الجمعيات الأدبية فى مصر
مصباح قطب

حسن البنا : بدايات عصر الارتداد
رفعت السعيد

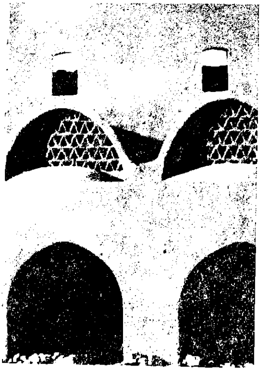
رواية ورود سامة لصقر
أحمد زغلول الشيطى

أدب ونقد
مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية
٥٤
يناير
فبراير
١٩٩٠

شهادة على العصر . شهادة على الثقافة

لطيفة الزيات


رمسيس يونان



من عمارة حسن فتحى

■ فى هذا العدد ■

■ الحياة الثقافية ■

أدب ونقد

شهرية يصدرها حزب
التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى

٥٤

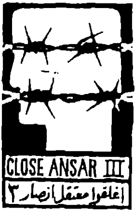
السنة السابعة ــ يناير ــ فبراير ١٩٩٠



تصميم الغلاف للفنان يوسف شاكر

الرسوم الداخلية للفنان : محمد المزروعى

الاشتراكات : (لمدة عام) : داخل مصر) ١٢ جنيها (البلاد العربية) : ٥٠ دولار ــ (أوروبا وأمريكا) : ١٠٠ دولار



□ من كتّاب العدد □

عطية الصيرفى : مناضل عمالى ونقابى مخضرم ، عضو اللجنة المركزية لحزب التجمع التقدمى ، يكتب فى القضايا العمالية والسياسية ● **أحمد زغلول الشيطى** : كاتب شاب من دمياط ، قصاص وروائى ، « **ورود سامة لصقر** » هى عمله الروائى الأول ● **سعدية مفرح** : صحفية وشاعرة كويتية ● **كريم دبّاح** : فنان تشكيلى فلسطينى بالأرض المحتلة ● **أحمد يوسف** : كاتب وناقد سينمائى وأدبى ● **ماجدة موريس** : صحفية بالجمهورية ، وناقدة سينمائية .

الفاتحــــــة

أجراس بيت لحم .. وأشواقنا

فريدة النقاش

كل عام وأنتم بخير .. تأتيكم تمنياتنا بالعام الجديد متأخرة عن موعدها ، ولانريد أن نعتذر مرة أخرى ولقول لكم بصدق اننا نعول على صبركم علينا ، ونعرف أن هذا الصبر لن يطول كثيرا إلا لأننا نبذل جهدا كبيرا فى عملنا لتطوير مجلتنا .. مجلتكم .. ونحن نعرف جيدا أن تطويرها هو مهمة مشتركة بيننا وبينكم ... ولانريد أن ننساق لاغراء مقارنة بين درجة انتظامنا ودرجة انتظام مجلات أخرى تتوفر على امكانيات هائلة من كل نوع .

أنت فى جماعة.. أنت ضد النظام .

هل إخترنا عنوانا مخيفا لتحقيقنا الرئيسى لهذا العدد والذى أعده محررنا اللامع « مصباح قطب » ؟ نعم ، لقد اخترناه كذلك لنستحثكم مجددا لتكونوا معنا فى التنفيذ العملى لدعوة إستمرت الآن لأكثر من أربع سنوات ، ووهى إنشاء رابطة للكتاب الديموقراطيين .. فحاجتنا لتنظيم صفوفنا باتت أكثر إلحاحا لأسباب كثيرة .

كنا نتساءل فى مجلس التحرير .. ترى هل هو قصور مبادرتنا ، أم كونها سابقة للأوان ، أم هى القدرة التنظيمية المحدودة للحالمين بعالم أفضل والعاجزين فى الوقت ذاته عن التقدم خطوة عملية واحدة على طريقه ؟

وأخذنا نتذكر .. كم عدد الهجمات ــ الوحشية أحيانا ــ التى تعرض لها كتاب ومثقفون ولم يدافع عنهم أحد ، أى لم تدافع عنهم جماعة،بل إن « أدب ونقد » نفسها قد صودرت أكثر من مرة،

لقد وعدنا أنفسنا ، ونريد وعدا منكم ، ان تكون قضيتنا لهذا العام هى تأسيس منظمتنا والعمل الدءوب عبرها وعبر كل المنظمات القائمة لإلغاء القانون رقم ٣٢ لسنة ١٩٦٤ الذى يشكل قيدا حقيقيا على حرية الناس ؛ وحرية المثقفين بخاصة فى العمل المشترك وفق أهداف يختارونها وأساليب عمل يتفقون عليها دون وصاية ، يوضح لنا التحقيق أبعادها .

إن الوصاية الأبوية تسقط فى كل مكان .. ولابد لها أن تسقط فى بلادنا ..

* * *

حين قررنا أن نقدم لكم كشف حسابنا تبين لنا أنه طويل ملىء بالقضايا والملفات ، بالمعارك والأسماء الجديدة .. لم نحرث اذن فى البحر .

إنتهجت « أدب ونقد » خطا ثابتا لايحيد طيلة العام الماضى ، هو خط الدفاع عن العقلانية وحرية الفكر والعلمانية ، وحرصنا دائما على أن نوضح لقرائنا أن العلمانية ليست بحال مرادفا للإلحاد ولا نحن دعاه إلحاد إنما نحن دعاه حرية الفكر والتعبير «« فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليفكر » شرط أن يتفق الجمع على إعمال العقل والابداع تحت شعار الدين لله والوطن للجميع ، الذى كانت قد أطلقته الحركة الوطنية المصرية فى بداية القرن ، ومازلنا نراه صالحا بل ضروريا ، وعلينا أن نسهم فى إعادة ترسيخه وتأكيده فى وجدان الناس وخاصة المثقفين .

إن العلمانية تعنى فى المطاف الأخير فصل الدين عن الدولة ، وقد نشأ التعبير فى أوروبا مع الثورة الفرنسية التى اصطدمت بقوة الكنيسة حيث كانت الأخيرة سند الاقطاع والاستبداد ، ومعاداة العلم والعقل .

ورغم أن هذا الفصل قائم نظريا فى بلادنا إلا أن أجهزة الاعلام والتعليم من جهة ؛ مع النفوذ الاقتصادى والاعلامى والتربوى المتزايد للجماعات الدينية ، والقوانين والقرارات التى كان قد أصدرها السادات والتى تقضى بتطهير المؤسسات ممن أسماهم « بالملحدين » ؛ من جهة أخرى ، كل هذا جعل من الفصل النظرى خرافة ، حتى أن المجتمع المصرى يتعرض الآن ، ربما أكثر من أى وقت مضى فى التاريخ ، لخطر فتنة دينية طائفية تهدد بانقسام الوطن على أساس وهمى لاطبقى،وتشويه الصراع الاجتماعى القائم على أشده بتفريعه الى قنوات جانبية ، فلا تصب حركته فى إتجاه المجرى الرئيسى للتاريخ الإنسانى وصولا إلى الاشتراكية ، أى الى ازدهار مواهب كل الناس فى مجتمع خال من كل أشكال الاستغلال وصوره وأقنعته ..

ومن المؤكد أن تعثر الحركة الجماهيرية المصرية فى طريقها الى تبنى الاشتراكية كهدف ، يعود فى جانب منه — إلى هذا النفوذ والثراء المادى الذى تتمتع به الجماعات الدينية .

إن إلحاحنا المتصل ، ومثابرتنا الدءوبة على طرح قضية العلمانية والدفاع عنها ينطلق من قناعتنا بها كملاذ وحيد لمجتمعنا من إنفجارات دموية طائفية أو إقتتال دينى — علمانى ، أو اسلامى — مسيحى أو حتى إسلامى — اسلامى ، كما هو الطابع العام لمخطط الأمبريالية فى البلدان الرأسمالية التابعة التى تشعل فيها مثل هذه الصراعات لتضعف قدرتها على المقاومة أو النهوض الشامل .

لذا سوف نواصل فى العام القادم دفاعنا عن العقلانية وحرية الفكر والعلمانية ، وسوف نناقش المفكرين والدعاة الدينيين كما يفعل الدكتور رفعت السعيد فى هذا العدد مع حسن البنا .

وإذ نعرف جيدا أن قضايا الفكر لاتحل إلا فى ساحة الصراع الاجتماعى ، ويعلمنا التاريخ — وتاريخنا القريب على نحو خاص — أن مشروعات أعظم مفكرينا الديموقراطيين وأجرأهم قد تحطمت فى ميدان الصراع لأنها لم تعتصم بالقدرة الخلاقة لقوة إجتماعية منظمة.. كطبقة أو مجموعة طبقات ، أى قوة قادرة على الدفاع حتى النهاية عن مشروع المجتمع المدنى العلمانى الديموقراطى الذى تستقر فيه المواطنة وحقوقها الثابتة فى العيش بحرية وكرامة حيث تصبح حقوق التعبير والتنظيم والاعتقاد والضمير مؤسسات لاتحميها نصوص فقط ؛ وإنما يحميها فى الأساس مجتمع له تقاليده الراسخة فى الحريات بحيث تخلق فيه مناخا فكريا عاما ومزاجا شعبيا عاما يرفض بالعرف كما بالقانون والعادة أى عدوان على الحرية أو إنتقاص منها ، سواء كان هذا العدوان يرفع راية الدين أو راية الأمن ليستر فى الحالتين أبشع عملية إستغلال رأسمالى يلبس قناع الدين أو قناع السلام الاجتماعى .

* * *

ويحمل عددنا هذا رواية — شهادة تقول بأفصح لسان أيضا أن قيودا على حرية التعبير والفكر مازالت قائمة بل إنها تشتد حين تتم باسم الله وتراوغ حين تتم باسم الحزب الحاكم .

إن رواية « ورود سامة لصقر » لأحمد زغلول الشيطى الذى كان « لأدب ونقد » كما لصفحة الثقافة فى جريدة الأهالى شرف تقديمه كقصاص لأول مرة .. هى شهادتنا الحية على صحة رؤانا فقد عجز عن نشرها بعد أن أدرجت فى قائمة واحدة من السلاسل الرائجة .

كنا نتمنى أن تصبح هذه الرواية القصيرة البديعة هى أول ماتقدمه لكم فى كتاب نعد العدة لاصداره هو كتاب « أدب ونقد » ، حتى نزف لكم بشراه عمليا .. لكننا ولأسباب مالية لعلها لاتخفى عليكم . كنا مضطرين لتأجيل مشروعنا قليلا ؛ ولم نجد طريقة للاحتفاء بمولد روائى كبير أفضل من أن نفسح له هذه الصفحات ونقدمه لكم لنرعى معا موهبته ونحميها من الإهمال والاحباط حتى نصدر كتابنا المرتجى الذى نتمنى أن يحتوى دائما على ماهو جديد وواعد لنسهم معا — قدر مانستطيع — فى تطوير الثقافة الجديدة فى بلادنا ..

أحلامنا كثيرة .. ومواردنا محدودة شأن البلدان النامية جميعا .. لكننا سوف نتمثل اختيار الانتفاضة الأخاذ ... أفضل استثمار لامكانياتنا المحدودة .. وليكن الجمال الفقير أجمل ..

وبينا أخذنا نخطط للعدد الخاص بالدكتور « لويس عوض » لنقدمه هديتنا فى عيد ميلاده الخامس والسبعين الذى حل هذا العام ؛ فوجئنا بمرضه الذى سقطت معه قلوبنا ؛ ودعونا له بالشفاء ، وحملنا باقة الورد باسم « أدب ونقد » كل تمنياتنا وتمنياتكم . إستمعنا لصوته على الهاتف لنؤكد له ويؤكد لنا أن موعدنا للطاولة المستديرة مازال قائما . وكنا نعد هذه الطاولة لمناقشة الباحثون والكتاب الذين أسهموا فى كتابة المواد ؛ ولكننا أشفقنا على صحته مرتين : مرة بسبب المرض ؛ ومرة أخرى بسبب مانعرفه من عنف الإنتقادات التى سوف تكون محور النقاش معه دون أن تقلل تقديرنا العالى وإحترامنا العميق كتلامذة مجتهدين فى مدرسة العقل والحرية ، التى هو واحد من ألمع أساتذتها الكبار ...

فاضطررنا أيضا إلى تأجيل العدد الخاص بالدكتور لويس .

كذلك كنا قد قررنا ألا نغفل أى رسالة تصلنا ، لا فحسب لأننا نعتز بكل قارىء جديد ؛ ونعتز أكثر بهذه الروح الايجابية تجاه ماهو عام والتى يلاحظ الكثيرون تراجعها ؛ وإنما أيضا بسبب مانعرفه جيدا فى ساحة النشر والثقافة بصفة عامة حيث ينتصر التليفزيون والراديو على الكتاب ؛ وتكسب المشاهدة التأمل فى عصر الصوت والصورة اذ يصبح الميل للتعبير بالقصة والشعر أجدر بالاحتفاء وهو غالبا ما يحمل فى طياته حسا نقديا يعنينا فى الصميم أن نكشف عنه ؛ كذلك فنحن لانريد أن نعتذر عن نشر مادة من المواد التى تصلنا دون أن يعرف كاتبها سبب إعتذارنا ، ودون أن نتعلم مع قرائنا كيفية التعلم من أخطائنا ...

ومع ذلك فإن ممارستنا فى باب « التواصل » خلال العام الماضى أغضبت كثيرين وجدوا أنفسهم وكأنما عاملتهم المجلة كمبتدئين فقررنا وقف هذه الممارسة إلا مع المبتدئين فعلا على أن نرسل خطابات شخصية فى حالة رفض قصة لكاتب ينشر فعلا .

* * *

حملت لنا أجراس بيت لحم هذا العام أنغاما جديدة .. ففى ليلة الميلاد المجيد الذى ألغى الفلسطينيون فى الأراضى المحتلة كل أشكال الاحتفال به ماعدا الصلوات فى الكنائس .. فى هذه الليلة المباركة صلى فى بيت لحم الأب « دزموند توتو » أحد قادة الكفاح ضد العنصرية فى جنوب أفريقيا ، وحمل إلى المناضلين الفلسطينيين الذين قدموا ويقدمون تضحيات سخية فى الانتفاضة رسائل التضامن من شعب شقيق يكافح بدوره دون توقف فى ظروف مشابهة ضد سياسة الفصل العنصرى وحكومة الأقلية البيضاء فى بريتوريا ؛ وكان الشاعر الشاب « بنيامين مولوويز » قد توجه قبل أربعة أعوام إلى حبل المشنقة ليلقى حتفه فى ريعان الشباب،تماما كما يتوجه أطفال الحجارة للشوارع والميادين .. وذلك بعد أن حكمت عليه القوات العنصرية بالإعدام إثر اتهامه بقتل شرطى أبيض . كان « مولوويز » آتيا من قلب النضال المحتدم ، كما يأتى لنا من قلب النضال الفلسطينى شعراء ومبدعون يكبرون فى معركة الشعب ضد الظالمين والغاصبين ويطورون أدواتهم .. ويحلقون فى سماء الابداع العربى والعالمى طيورا حرة وإن أثخنتها الجراح .

ومع نهايات العام المنصرم ، وقبل أن تدخل الإنتفاضة عامها الثالث وصلنا من الأرض المحتلة ديوان الشاعر الصديق عبد الناصر صالح الذى كان قد خرج قبل شهور من اعتقال طويل فى معسكر أصبح مشهورا فى كافة دوائر حقوق الانسان والحريات فى جميع أنحاء العالم هو « أنصار ٣ » .

كان « المجد ينحنى أمامكم » هو أثمن الهدايا التى تلقيناها وأعزها على القلب وبعد أيام قليلة من بداية العام وصلنا ديوانه الثانى « داخل اللحظة الحاسمة » . وحتى نصدر ملفنا المرتقب عن أدب الانتفاضة نرجىء حديثنا عن هذين الديوانين الجميلين المفعمين بالشجن الصافى والفرح العميق .

ونقول لعبد الناصر صالح ورفاقه .. نحن هنا كنا ومازلنا أسرى محبتكم . فالإنتفاضة هى معقل رجائنا نتكىء عليها ساعة يشتد الظلام ، ونتلفت حولنا لنشهد بوادر النهوض العمالى والشعبى فى بلادنا ، ونقول لأنفسنا بفرح .. ها إن بذورها تنبت ، فندخل بها ومعها فى العام الجديد وقد تآلفنا معها ، باتت جزءا من حياتنا فأصبحنا أصدقاء حميمين نتبادل التحايا على البعد .. يبننا العسس .. وشبكات الانذار المبكر وسلطة المال .. لكن صداقتنا تصبح أمتن ونزداد قربا كلما ابتعدنا .. لندخل بها ومعها إلى العقد الجديد فخورين بقدرة الجماهير العربية على الابداع الذى نحن على ثقة من أنه سوف يشهد فى العقد الذى بدأ قدرة غير مسبوقة على تجاوز كل سفالة وكنسها من حياتنا الى الأبد بازاحة كل أشكال ورموز الامتثال الذليل للأمبريالية والصهيونية .



الخروجيون

شكرى عياد

أهل صناعة النشر فى بريطانيا مشغولون هذه الأيام بهجوم رأس المال الكبير على الصناعة . حتى دور النشر الكبيرة أمثال دار بنجوين تبتلع فى دور أكبر منها . والعمالقة الجدد ليسوا بالضرورة بريطانيين ، فرأس المال العالمى يعلو فوق حدود الأوطان والقوميات القديمة ، ومن الواضح أن المؤسسات الأمريكية لها النصيب الأوفر فى هذا الغزو ، بحكم اللغة المشتركة والتاريخ المشترك .

يرقب أصحاب دور النشر الصغيرة هذا الانقلاب بكثير من القلق . فهم غير قادرين على المنافسة . دور النشر الكبرى تجند الكتاب المعروفين ، ذوى الأرقام العالية فى التوزيع ، تدفع لهم مبالغ معتبرة « تحت الحساب » عندما يتم الاتفاق معهم على موضوع كتاب . ودور النشر الكبرى تضع خططها مراعية تقلبات السوق التى تتبع أذواق القراء . وهكذا انضم الكتاب إلى وسائل الاعلام الجماهيرية كالسينما والكاسيت والفيديو كاست ، ولم يبق أمام دور النشر الصغيرة إلا أن تغلق أبوابها أو تبحث لها عن مكان داخل المؤسسة الاعلامية الكبرى . وأعتقد أن الكثير منها سوف يستمر فى الحياة ، ولن يتعب كثيراً قبل أن يحدد وظيفته ويعرف دوره .

ذلك أن وظيفة دور النشر الصغيرة قد تحددت بالتدريج كأمر واقع . وإذا كنت قد زرت المتحف البريطانى فلابد أنك رأيت بعض هذه الدور فى الشوارع الصغيرة المحيطة به . أماكن — دكاكين أو شقق فى الطابق الأول تشبه فى منظرها الخارجى وهدوء حركتها محلات بيع التحف أو مكاتب سماسرة العقارات . رأيت على أحد هذه المحلات لافتة « لورنس وويشارت » الناشر الذى قرأنا اسمه أول وآخر ماقرآناه على عدد من الكتب الماركسية عرضها بعض مكتبات القاهرة أثناء الحرب العالمية الثانية . ورأيت لافتة لناشر آخر تخصص منذ أواخر الخمسينيات فى نشر الكتب الجنسية المترجمة عن العربية والهندية . فدور النشر الصغيرة كالمجلات الصغيرة والمسارح الصغيرة هى المختبرات التى تتم فى داخلها

بلورة الاتجاهات الجديدة فى الفكر والفن . هى المأوى الطبيعى للرافضين الذين لايرفضهم المجتمع الغربى رفضاً باتاً بل يسمح لهم بأن يعيشوا على هامشه ويظل يراقب أعمالهم لا ليضمن بقاءهم داخل دائرة « القانون والنظام » فحسب بل ليستفيد من تجاربهم لتجديد شبابه أيضا ، فكأنهم بنوك للقلوب والأمخاخ والأحشاء التى يجرى استبدالها كل حين فى جسمه المهترىء .

فى هذه الزوايا الهامشية نبتت أعمال باوند واليوت وجويس فى العشرينيات من هذا القرن ، وفيها ظهرت مسرحيات بيكيت ويونسكو فى الخمسينيات ، وعن إحدى دور النشر الصغيرة فى باريس صدرت الطبعة الأولى من رواية « لوليتا » للكاتب الأمريكى ، الروسى الأصل ، فلاديمير نابوكوف ، فشرعت أسلوباً بالغ الصراحة فى تناول مسائل الجنس ، لم يحلم به جويس أو د. هـ . لورنس ، ولكنه أوشك أن يصبح أسلوباً « تقليديا » فى الكتابة الروائية ، خلال سنوات قليلة .

ليست هذه استثناءات بارزة ، بل هى القاعدة . ويمكنك أن تقول أيضاً إن القاعدة هنا هى الاستثناء ، لأن كل تغيير وكل تقدم هو دائماً استثناء ، هو خروج على المألوف والمعترف به ، والذين يقومون بهذا الخروج هم دائماً أفراد منبوذون أو شبه منبوذين ، أفراد على هامش المجتمع ، يخرجون ، إما لأنهم لن يخسروا شيئاً بهذا الخروج — لن يفقدوا إلا قيودهم كما قال ماركس عن الطبقة العاملة الثورية — وإما لأنهم يتبعون نداء الروح ، أو شيئاً كهذا ، ولايبالون بالقيم المادية التى يوفرها لهم المجتمع . ولا تنخدع بأن عصرنا هو عصر المؤتمرات والجمعيات والمنظمات والمؤسسات ، فهؤلاء كلهم هم المنتفعون من منجزات العصر الحقيقية ، التى يقدمها اليهم منتجوها — الأفراد الخروجيون — بلا مقابل ، ويبيعونهاهم للجماهير بأغلى الأثمان . وليتهم يأخذون « كل » تلك المنجزات ، فهم لايأخذون منها إلا ما يحقق لهم المزيد من الأرباح ، أو المزيد من السلطة .

لعلك مستعد لقبول هذه الفكرة بالنسبة إلى الأدب والفن بالذات ، وبالنسبة إلى المجتمعات الرأسمالية دون المجتمعات الاشتراكية . لعلك تقول أيضاً إن الفكرة لم تخل من بعض التشويه . فالقضية ليست قضية أفراد بل قضية طبقة ، وهؤلاء الخروجيون لم يعبروا عن نزعات ذاتية ، شخصية ، بل عن وعى جماعى . إننى أوافقك دون تردد . فالخروجى لا يحرم نفسه من الراحة التى يمكن أن ينالها تحت كنف المجتمع طوعاً لدافع ذاتى . ولا أعترض عليك إذا قلت إن الوعى الجماعى هو وعى طبقى فى جوهره ، مادام الوعى الطبقى عندك قادراً على أن يتمثل كل القيم النبيلة التى أغرم بها الإنسان . أوافقك أيضاً لأنى أعرف أن الخروجيين الذين لم يروا إلا ماهو تافه وصغير وسوقى فى المجتمعات الرأسمالية وجدوا أنفسهم واقفين فى صف الفاشية : باوند ، هديجر ، أورتيجا أى جاسيه .

ولكننى لا أوافقك على أن الخروجيين هم الأدباء والفنانون دون العلماء ، ولا على أن هؤلاء وهؤلاء غير محتاجين أن يكونوا خروجيين إذا وجدوا فى مجتمعات اشتراكية . إن علامة الخروجى هى أنه لا يرضى بشىء ، فى العلم كما فى الفن ، فى المجتمعات الاشتراكية كما فى المجتمعات الرأسمالية . ولماذا لايرضى بشىء على هذه الأرض ؟ أقول : لأنه ينظر إلى السماء ، إلى الما وراء . ولهذا فهو دائما فنان وفيلسوف ولو كانت صناعته العلم . ولهذا فهو زاهد فى كل مجد أو متعة لاتقربه إلى الماوراء . الحضارة الغربية تعى هذا

جيداً ، ولذلك احتملت هؤلاء الخروجيين ، من علماء وفنانين ، وتعلمت بالتجربة أن حرية الإبداع لازمة لحرية التجارة ، وأن الاقتصاد يختنق والسوق يموت ان لم يقتحما دائماً آفاقاً جديدة ، وأن الابداع الحقيقى قد لايجىء من قبل الجامعات والمؤسسات الرسمية وشبه الرسمية ، فهذه فى أكثر الأحيان تقاوم الابداع ، ثم تستقبله بكثير من الشك والاتهام كما يُستقبل الضيف المريب ، حتى إذا جاز اختبار الصلاحية أصبح جزءاً من مناهج التعليم ، وبنداً فى برامج السياسة ، وعنصراً فى خطط الانتاج .

نعم ، إن التقدم العلمى يستلزم أجهزة دقيقة للقياس ، وهذه لاتتوفر إلا فى المختبرات الكبيرة التى لاتملكها سوى المراكز العلمية الرئيسية ، ولكننا فى هذا العالم الثالث المتخلف نميل إلى المبالغة فى قيمة الأجهزة ، إلى درجة نسيان دور الخيال والفكر المجرد فى كل اكتشاف علمى ، والنتيجة أننا فى كثير من الأحيان نجلب بأموالنا القليلة أجهزة لانستعملها . إن أينشتين اكتشف نظرية النسبية حين كان يعمل كاتبا فى إدارة براءات الاختراع فى سويسرا ، فقد كانت أمامه نتائج الأبحاث التى أجريت فى المختبرات ، وإنما كان الاكتشاف يتطلب خيالاً وفكراً . وكان طبيعيا أن تلقى النظرية معارضة غير هينة ـــ سببها غالباً عدم الفهم ـــ داخل المؤسسات العلمية إلى أن ثبتت صحتها مرة أخرى بالقياسات المختبرية ، ثم أدت الأبحاث المتفرعة عنها إلى اختراع القنبلة الذرية .

إن التوجيه المركزى الصارم للعلم والفن يقفل الابداع فى كليهما ، فالفكر الموجه لايبدع ، لأن الحرية هى الشرط الأول للابداع . وقد أدركت المجتمعات الاشتراكية ما للتوجيه المركزى من آثار ضارة على الاقتصاد ، ولكن أعلى الأصوات فى رفض هذا التوجيه كانت أصوات العلماء والكتاب ، لأنهم أعلم الناس بأضراره . أما نحن فى هذا العالم الثالث فقد أثبتنا بتخبطنا بين النظم والمذاهب أن حاجتنا إلى الفكر الأصيل المبدع أكبر من حاجتنا إلى الأجهزة أو التكنولوجيا أو رءوس الأموال ، وأن المؤسسات الضخمة التى نقيمها لبناء اقتصادنا أو بناء ثقافتنا ، مرة على النمط الاشتراكى ومرة على النمط الرأسمالى ، غير خارجة أبداً عن روح الحكم الاستبدادى الراسخ الجذور فى بلادنا ـــ هذه المؤسسات جعلت الفرد المصرى ، أو الفرد العربى ، أقل رغبة فى العطاء ، وأقل قدرة على تحمل المسئولية .

والفكر مسئولية . والفن مسئولية . والكتابة مسئولية .



شخصية

حسن البنا سيد عصر الارتداد

د . رفعت السعيد

• ملاحظة أولية :

« اذا كان وصف الارتداد يعتبر عند العقلانيين والعلمانيين ودعاة التجديد عامة إنتقاداً أو مايشبه ذلك ، أونقيصة أومايرتقى إلى ذلك ، فإنه عند السلفيين ومن نهج نهجهم ارتداد إلى السلف الصالح ، وإنفلات من مجتمع الجاهلية للعودة إلى الاسلام الأول ، الاسلام كما كان عندما بدأ .. متمثلين الحديث .. « يعود الاسلام غريبا كمابدأ » .

— ١ —

• بطاقة شخصية مطولة :

الاســم : حسن احمد عبدالرحمن البنا الساعاتى

تاريخ الميلاد : اكتوبر ١٩٠٦

محل الميلاد : المحمودية – بحيرة

مهنة الوالد : مأذون الناحية وامام مسجد القرية ، وقد مارس ايضا مهنة إصلاح الساعات ومن هنا جاء لقب « الساعاتى »

الاخوة : خمسة وحسن هو الأكبر بينهم .

وابتداء نلاحظ ان كل من تحدث عن طفولة حسن البنا حرص على أن يضفى عليها هالات تقترب من دلائل القديسين ، وتضفى عليه مسحة من التميز .. وقد أتى ذلك من حسن البنا نفسه[(١)] ووالده ومريديه ممن كتبوا عن أيامه الأولى ..

وعلى أية حال فإن كانت صحيحة هذه الهالات ، أو كانت مبالغاً فيها ، أو هى حتى مخترعة فإنها تشى بشيء ما يحيط بالشيخ حسن البنا ، أو حاول هو واتباعه أن يحيطوه به ..

الأب يروى كيف سقط الطفل « حسن » فى ملطم للمونه وكانت وفاته محققة ولكن .. « وينجيك الله ياولدى لأمر يدخرك له » وقد « استيقظت امه وهو طفل لتجده نائما وبجواره ترقد فى هدوء أفعى ضخمة لم تمسسه بسوء » .. « وجمح به فرس بما يؤدى لهلاك أى شخص لكنه نجا من الموت » .. إلخ ..

وعندما بلغ الطفل الثامنة من عمره دفع به أبوه إلى كُتّاب القرية حيث تتلمذ على يد أزهرى متشدد هو الشيخ محمد زهران .

لكن الطفل غير عادى ، أو يتعين عليه أن يبدو كذلك ، فالطفل ابن الثامنة لا يقبل بوجود تمثال لامرأة شبه عارية فوق أحد زوارق النهر فى قريته فيلجأ إلى البوليس [وهنا لا بد من علامة استفهام تسأل فى هذه السن ؟ وأى بوليس فى قرية صغيرة فى مطلع القرن ؟] المهم يلجأ الطفل إلى البوليس ويصمم على إزالة التمثال وينجح فى ذلك(٢) .

وفى الثانية عشرة ينتقل حسن البنا إلى المدرسة الابتدائية ، حيث انضم إلى جماعة مدرسية رائدها احد المدرسين المتدينين وهى « جمعية السلوك الاجتماعى » وهى جمعية استهدفت ترويض نفوس اعضائها ، ودفعهم للتحلى بالأخلاق الحميدة وتعاليم الدين عامة .. وكانت الغرامات المالية المرهقة لتلاميذ فقراء هى سلاح الجمعية فى إرغام اعضائها على الالتزام بتعاليمها ..

وسريعا مايصبح ابن الثانية عشرة ، رئيسا لهذه الجمعية ، لكنه سرعان مايكتشف انها لاتفى بطموحه الدينى ، وتطلعاته الاكثر شمولا .. فيؤسس وهو فى هذه السن [وهنا علامة استفهام اخرى] جمعية جديدة اسميت « جماعة النهى عن المنكر » كانت تستهدف [منذ هذا السن المبكر] ارهاب سكان المدينة وارغامهم على الالتزام بتعاليم الدين عن طريق إرسال خطابات تهديد إلى من ترى انهم لايلتزمون بهذه التعاليم .

ولكن الأمر لا يستمر طويلا ، ويصعد الصبى إلى سن الثالثة عشرة ومعها ينتمى إلى جماعة اسمها « اخوان الحصافية » وهى جمعية صوفية ، جذبت الفتى إلى حلقات الذكر حيث وقف يهتز فى هذه الحلقات وسط رجال يكبرونه سنا .

وفى حلقات الذكر يلتقى بشريكه الأول فى كل مافعل ، ثم خصمه اللدود فيما بعد .. احمد السكرى واكتشف الاثنان معا ان « التطوح » فى حلقات الذكر ليس بكاف لطموحهما الدينى ، ومرة أخرى يؤسس التلميذان جمعية جديدة هى « جمعية الحصافية » ظلت تعتبر نفسها امتداداً للجماعة الكبيرة « اخوان الحصافية » لكنها تتميز عنها بالعمل الجدى المباشر ، مستهدفة الحفاظ على تعاليم الدين ، ومواجهة موجة التبشير المريبة التى تسللت إلى مصر فى ذلك الحين مثيرة أو مستثيرة

مشاعر العديد من المسلمين . ومرة أخرى يترأس الفتى ابن الثالثة عشرة جمعية ذات طابع دينى .. وتستهدف العمل المباشر لتحقيق أهدافها .

هما مجرد عامين تنقل فيهما الفتى سريعاً من « جماعة السلوك الاجتماعى » إلى « النهى عن المنكر » عبر خطابات تهديد للمخالفين ، ثم إلى جماعة صوفية ومنها إلى جماعة للعمل المباشر .. وعام آخر ويصبح الفتى طالبا بمدرسة المعلمين الاولية فى دمنهور حيث ينغمس إلى مدى أعمق فى نشاطه الدينى ، ويرتاد حلقات ذكر الحصافيين ليصبح لى عام ١٩٢٢ عضوا عاملا .. أخذ العهد على شيخهم .. ويجهر الفتى بتميزه الدينى عن تلاميذ مدرسته ، فيرتدى لبعض الوقت عباءة بيضاء وعمامة ذات ذؤابة وهى زى الحصافيين المتشددين ، لكنه يعود إلى زيه العادى بعد حين .

وخلال قراءاته الدينية اصطدم الفتى بأول عقبة حقيقية . فقط طالع كتاب ابو حامد الغزالى « إحياء علوم الدين » حيث صدمته مواقف الغزالى التى تقول ان التعليم يجب ان يقتصر على ما هو ضرورى « لتحقيق الواجبات الدينية واكتساب الزرق » وبتوقف الفتى لى حيرة من امره هل يواصل تعليمه مخالفا رؤية الامام الغزالى ، أم يتوقف عن مواصلة التعليم .. لكنه يغلب المصلحة ويواصل التعليم وينجز دراسته فى مدرسة المعلمين الاولية التى اسلمته بدورها إلى « دار العلوم » ليلتحق بها عام ١٩٢٣ .

هكذا يصل الفتى الذى عمد نفسه ، أو عمده بعض مريديه شيخا عليهم منذ عهد طفولته .. يصل إلى القاهرة .. وأية قاهرة ، إنها قاهرة العشرينات التى كانت تموج بصراعات حزبية ، وموجات ليبرالية ، ونزعات علمانية ، وكانت الثورة الكمالية فى تركيا تلهم الكثيرين بالمزيد من الشجاعة فى نزعاتهم التجديدية والليبرالية والعقلانية .. ورأى الفتى الشيخ لى ذلك كله إضعافاً لشأن الدين ، وجفل الشاب وإنتحى هو ومن والاه من أصدقائه جانباً ، واغترب عن حياة المدينة الصاخبة ، ويسجل حسن البنا هذه الفترة قائلاً : « والله وحده يعلم كم أمضينا من ليال لبحث حال الأمة ، نحلل العلة ونفكر فى وسائل العلاج الممكنة ، ولقد بلغ بنا القلق درجة أوصلتنا إلى حد البكاء »(٣) .

انها الغربة التى تقود الفتى من جديد إلى الصوفية ، فيعود إلى ولائه « لاخوان الحصافية » وينصت طويلا إلى محاضرات « جمعية مكارم الاخلاق الاسلامية » .

وهنا تبدأ القناعة الحقيقية لحسن البنا فى تبلورها ، لقد اكتشف ان « تطوحه » فى حلقات ذكر إخوان الحصافية ، وإنصاته إلى محاضرات جمعية مكارم الاخلاق .. لا تغير شيئا مما يجرى حوله لى هذه المدينة الصاخبة ، وايقن حسن البنا ان « المسجد وحده لا يكفى » فلا بد من رجال يهبون حياتهم « للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكون من عدد من زملائه « جماعة » يمكن اعتبارها النواه الاولى لجماعة « الاخوان المسلمين » ، كانوا يخطبون فى المساجد والتجمعات الشعبية وقد حدد البنا لنفسه ولجماعته هدفا هو محاولة سد الهوة التى تفصل بين الانسان المنغمس فى هموم حياته

اليومية وبين صحيح الدين وتعاليمه، ومحاولة حث المسلم على أن يكيف حياته وان يخضعها في كل تفاصيلها لهذه التعاليم ..

لكن القاهرة لم تكن كلها عبثا ففيها وجد المشورة والنصح ممن هم اكبر منه سنا .. ففى هذه الفترة تعرف فى المكتبة السلفية على مديرها محيى الدين الخطيب ، وعن طريقه تعرف على الشيخ رشيد رضا واحمد فريد وجدى واحمد تيمور باشا .. وجرت مناقشات عديدة حول كيفية العمل من اجل الاسلام .. والتقى بالعديد من مشايخ الازهر فلم يعجبه منهم استسلامهم أمام مايجرى من احداث ، وبدأت علاقته بهم تؤرقه ، فإذا شيوخ الأزهر قد اصبحوا كاسماهم هو « موظفين دينيين » فما هو السبيل للتصدى لما يجرى حوله .. ولم يجد الفتى إجابة شافية .. لا عند من قابلهم من صحبة الشيخ محيى الدين الخطيب ، ولا عند الموظفين الدينيين .

ويسجل حسن البنا حيرته وطموحه معا .. كتابة .

ففى السنة النهائية بدار العلوم طلب إليه كتابة مقال مدرسى موضوعه « تحدث عن الآمال الكبيرة التى تراودك بعد إتمام دراستك ، وبيِّن كيف ستعد نفسك لتحقيق هذه الآمال » .

قال حسن البنا فى إجابته « إن أفضل الناس هم أولئك الذين يحققون سعادتهم بتوفير سبل السعادة للآخرين وبإسداء المشورة لهم » .

وقال فى مرارة « إننى اعتقد ان شعبى قد ابتعد عن أهداف إيمانه نتيجة للمراحل السياسية التى مر بها ، والتأثيرات الاجتماعية التى تعرض لها ، وتحت تأثير الحضارة الغربية .. والفلسفة المادية والتقاليد الافرنجية » .

وحدد الشيخ طموحه بأن يكون ناصحاً ومعلماً وان يكرِّس نفسه لتعليم الاطفال نهاراً وآبائهم ليلا .. ويختم مقالة قائلا : « هذا عهد بينى وبين ربى »

بهذه الروح .. وهذا المنطلق تخرج الطالب حسن أحمد عبدالرحمن البنا من دار العلوم عام ١٩٢٧ ، وعين مدرسا إبتدائيا بمدينة الاسماعيلية ..

وهكذا .. نصل إلى نقطة البداية ، الفتى .. أصبح مدرساً وأصبح مدركاً لما يريد أن يفعل .. وقرر ان يبدأ رحلة الارتداد السلفى .. بمفهومه الاسلامى .(*)

(*) لمزيد من التفاصيل عن نشأة وحياة حسن البنا يمكن الرجوع إلى المصادر الآتية مع العلم بأنها تتضمن معلومات متقاربة نظراً لأنها تأخذ فى الاغلب عن مصدر واحد .
- حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية .
- موسى اسحق الحسينى – الاخوان المسلمون كبرى الحركات الاسلامية الحديثة .
- مجلة الدعوة – [الاعداد الصادرة فى ذكرى وفاة حسن البنا] ١٣/٢/١٩٥١ ، ١٢/٢/١٩٥٢ ، ١٠/٢/١٩٥٣ ، ١٦/٢/١٩٥٤ .

- ٢ -

الارتداد عن ماذا ؟

كانت سنوات ما قبل القرن العشرين هى سنوات الحيرة بالنسبة لمصر ، التى وقفت حيرى أمام مفترق طرق كل منها يبدو شاقا .

فالخلافة الاسلامية تتهاوى ، والتحكم التركى المغلف بعباءة الخليفة ، أمير المؤمنين ، حامى حمى الاسلام ، خاقان البرين والبحرين .. الخ هذا التحكم يرحل ليحل محله تحكم استعمارى انجليزى .

وتحاول مصر أن ترفض الانصياع للتحكم التركى فى مواجهة رفض إسلامى متشدد يعلن على لسان الشيخ عبدالعزيز جاويش « إنكار الخلافة تضييع للذات » ويرد محمد فريد على ما كتبه جاويش قائلا « ان حبه للدولة العثمانية أدى به إلى نسيان مصر وحقوقها ، فأصبح يقول أن مصر للمسلمين لا للمصريين » .

ويقول « ان جاويش لم يزل يحارب فكرة الوطنية فى الاسلام ، وقد قال أخيرا فى برلين لأحمد بك ان يقلع عن فكرة الوطنية أو الجنسية المصرية قائلا انه لا وطنية فى الاسلام »(٤) .

وقد استمر « دعاة الاسلامية » يتشبثون بالخلافة ، وبدولتها ناسين ان ضعف الخلافة العثمانية ثم إنهيارها « قد دمر الأسس الواقعية والجغرافية للجامعة العربية وشجع النزعات الوطنية والقومية »(٥) .

وهكذا يرتفع شعار « مصر للمصريين » برغم مقاومة « إسلامية » ضعيفة . ولكن السؤال الملح يبقى « مصر للمصريين نعم .. ولكن إلى أين ؟ »

هذا هو السؤال ، أو هذه هى المعركة .

وكانت الليبرالية والاتجاهات العقلانية والعلمانية تحاول جهد استطاعتها ان تشق لمصر طريقاً فى مواجهة صعاب حقيقية ..

- المصور - ٢٩ / ٨ / ١٩٥٢ مقال احمد عبدالرحمن البنا .
- انور الجندى - قائد الدعوة : حياة رجل وتاريخ مدرسة .
- احمد أنس الحجاجى - روح وريحان .
- محمد حبيب احمد - نهضة الشعوب الاسلامية فى العصر الحديث .
- عبد الخبير الخولى - قائد الدعوة الاسلامية ، حسن البنا .

- Mitchel, R. The Society of muslim Brothens.
- Khadduri, M.- Political Trends in ARAB WORLD.



فمصر كانت تعيش فى حالة من التخلف الفكرى عميق الجذور .. إلى درجة ان مفكراً مثل رفاعة الطهطاوى لم يستطع ان يذكر « إحتمال » ان تكون الارض كروية إلا منسوباً إلى فتوى لعالم اسلامى فى « تمبكتو » ..

لكن الأمر فى نهايات القرن التاسع عشر قد اختلف ، ولم يعد التيار العقلانى بقادر على احتمال إنكار العلم والعقل ، فيكتب يعقوب صروف « ان موضع دوران الارض حول نفسها وحول الشمس صار أشهر من نار على علم وأوضح من الصبح لذى عينين ، وتحققت صحته لكل ذى عقل سليم يطالع ويفهم »[٦]

وعندما ينهمر السيل فإنه من الصعب ان يوقف ..

ويتجاسر شبلى شميل فيصدر كتابه « فلسفة النشوء والارتقاء »

وتحدث « رجة » عنيفة وتكال التهم لشبلى شميل الذى يتقبلها هادئا .. معلنا « ان هذه الرجة التى حصلت اليوم هى المقصودة منى لايقاظ الافكار من نومها العميق ، والحركة مهما كانت خير من السكون »[٧] .

ويحاول شميل ان يستميل الناس تجاه العقل فيخاطب قارئه قائلا « إليك اكتب ايها القارىء العاقل ، العاقل المتأمل ، وما اطلب منك علماً واسعا وفلسفة بديعة وحكمة عميقة ، بل أطلب منك عقلا حلت قيوده ، وتفتحت منافذه ، وأقام التفكير مقام الاعتقاد ، والبحث مقام المقرر ، يقدر مستنتجات العلم قدرها ، ولا يبخس مستنبطات العقل حقها »[٨] .

ويشتد الهجوم على الرجل ويأتى الهجوم على الاغلب من المحافظين ورجال الدين لكن الرجل لا يتراجع معلنا « لست أخشى تخطئه الناس لى اذا كنت أعرفنى مصيباً ، ولا يسرنى تصويبهم لى إذا كنت أعرفنى مخطئاً » .. وفى مواجهة الهجوم المتصاعد يعلن شميل بوضوح « نعم ان القول بمذهب النشوء يستلزم بالضرورة القول بمادية الكون »[٩] .

ولم يكن شبلى شميل وحده ، كان هناك رعيل متكامل فرح انطون ومجلته الموسوعية « الجامعة » سلامة موسى ، مصطفى حسنين المنصورى صاحب أول كتاب مصرى وربما عربى وافريقى عن الاشتراكية .

ويتصدى المحافظون ورجال الدين لهذه النزعة .

يتصدون لها فى ظل مناخ يميل إليهم هم ، وإلى مقولاتهم ، ويميل إلى اتهام كل نزعة تجديد بالكفر والالحاد .. مناخ أرهق دعاة التجديد ، حتى أيامنا هذه ، ودفع كاتباً جليلا هو الشيخ محمود الشرقاوى لأن يكتب « أى شقاء فكرى وروحى يجده دعاة التقدمية الفكرية فى عالمنا العربى عندما يرون فى بعض الكتب التى يطالعها الناس ويتناقلون مافيها .. ان « نوحا » بنى سفينة من عظام حيوان يبلغ طوله مسافة مابين السماء والارض ويبلغ عرضه مسيرة عام كامل ، وأى شقاء للروح والعقل أكثر من أن يقرأ دعاة التقدمية فى الفكر الدينى مايقرؤه الناس فى كتاب من كتب التفسير [تفسير الخطيب الشربينى – الجزء الثانى – ص٣٢٨ – ٣٣١] ان يأجوج ومأجوج أمة ، وكل أمة أربعمائة أمة ، لايموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح ، وهم من ولد آدم يسيرون فى خراب الأرض .. وهم ثلاثة أصناف : صنف مثل شجرة الارز ، وصنف طوله وعرضه سواء عشرون ومائة ، وهؤلاء لاتقوم لهم الجبال ولا الحديد ، وصنف منهم يفرش إحدى أذنيه ويلتحف بالاخرى ، لايمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ومن مات منهم أكلوه ، مقدمتهم فى الشام وساقتهم فى خراسان يشربون آبار الأرض وبحيرة طبريا ... »[١٠] .

فى ظل المناخ قامت المعركة .. ويتصدى رجال الدين بعنف بالغ يستدعى رداً من نوع :

ولكنــه دين أردت صلاحـــــه   أحاذر ان تقضى عليه العمــائم

ويرد العقلانيون على الهجوم بهجوم مضاد ، عنيف .

وتقرأ عبارات لشبلى شميل تقول « **فنرى مماتقدم ان الدين نفسه ليس عقبة فى سبيل العمران ، بل رجال الدين أنفسهم** »[11] ويقول « **ولكن الاديان تتحول من النفع العام حتى تصير وسائل للكسب فى يد أولئك الذين اتخذوها تجارة لجذب الدنيا ولو بالقضاء على الانسان** » وهو يصب هجومه ضد رؤساء الاديان من كل دين وملة ، الذين علموا الناس غير ماتأمرهم به الاديان ، وكم قاموا يبيعون دينهم بدانق وفرطوا بمال الايتام ، وكم خدموا به أغراض عتاة حكامهم ليقتسموا معهم ، ولو داسوا الدين بالاقدام »[12] .

ولا يقف شميل وحده فى المعركة بل يعاضده كاتب وشاعر ملهم هو ولى الدين يكن .. الذى يصف رجال الدين بأنهم « لا يرغبهم فى الشورى شىء مماهم منقطعون إليه ، فهم يحبون ان يظلوا متحكمين فى الرقاب وان يبقوا عيالا على الأمة ، وان يلثم الناس أيديهم ويملأون أكياسهم »[13] .

بل هو يصيح بأعلى صوته « ياأيها المسلمون .. أنا مسلم مثلكم .. يحزننى خسرانكم ، ويشركنى معكم مصرعكم ، ان هؤلاء الرجال الذين أثقلت هاماتهم العمائم اكثرهم لا يعقلون .. كان السلطان عبدالحميد يقتل الناس وينفيهم وينهب الخزائن .. وكل هذا حرام فى دينكم فما قام فى وجهه واحد منهم ناصحاً أو رادعاً ، ولكنهم اليوم وقد وسعتهم بلاد الحرية يكرهون أن يروا حراً يتكلم ، فهم يهاجمون كل من لا يكون من فريقهم ، يملأون الدنيا صخباً وضجة ، يكفرون الساعل والماخط ، والآكل والشارب ، حتى لقد زهدونا بالحياة وهم اشد الناس بها تعلقا ، فلاتجعلوا لهم سلطانا عليكم فيكسبوا من خسرانكم ويسعدوا بشقائكم وانتم لا تعلمون »[14] .

ويصل الحد بالمعركة إلى الدرجة التى مكنت شبلى شميل من ان يقول يوما « لو قامت الانسانية فى كل الدنيا ونسرت لحم رؤساء الاديان – الذين هم وحدهم المسئولون عن كل الفظائع التى ارتكبت ولاتزال ترتكب باسم الدين – نَسْرَةً نسرةً لماوفت حق الانتقام لماجنوه اليوم على الانسان »[15]

ولم يكن بإمكان معركة كهذه ان تستمر بمثل هذه الضراوة .. طويلا ، وأخيرا آن للمعركة أن تتوقف .

لقد أنجبت مصر من استطاع أن يوقفها .. من استطاع أن يحل المعضلة ولا يضع الدين فى مناقضة مع منجزات العلم .. بين العقل والايمان ..

وكان الامام محمد عبده « أبداً داع لضرورة أن العقل يجب ان يحكم كما يحكم الدين ، فالدين

عرف بالعقل ولا بد من اجتهاد يعتمد على الدين وعلى العقل معاً حتى يستطيع المسلمون ان يواجهوا الاوضاع الجديدة فى المدينة الحديثة مقتبسين منها مايفيد وينفع ، واذا كان المسلمون لا يستطيعون ان يعيشوا فى عزلة ، فلابد لهم ان يتسلحوا بمايتسلح به غيرهم ، واكبر سلاح فى الدنيا هو العلم »(١٦)

ويبدأ الشيخ الامام محمد عبده معركة بتجريد رجال الدين من كهنوتهم الذى يحاولون ان يفرضوه على البشر فيقول « ليس فى الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر ، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لاعلاهم يتناول بها أدناهم »*.

وكان محمد عبده مفتياً ، ولكنه لم يقبع فى بيته منتظراً سائلى الافتاء بل تقدم فى عبقرية وشجاعة محاولا أن يرسى دعائم فهم جديد للعلاقة بين الدين ومتطلبات الحياة . وكانت الحياة تلح بأسئلة عدة عن مدى تحريم أو عدم تحريم كثير من مستحدثات العصر إبتداءً من التصوير الفوتوغرافى إلى التأمين على الحياة ، إلى النظام المصرفى ، الخ ..



(*) لمزيد من التفاصيل عن دور الاستاذ الامام محمد عبده فى تحديث نظرة الاسلام إلى العقل والحياة ومتطلباتها راجع :

- Adams- Islam and Madernism in Egypt .
- Khadduri, M.- Political Tnends in The Arab world.

ولقد رسم محمد عبده طريقاً جديداً .. يصعب ان نوفيه حقه من البحث بشكل جانبي متعجل ، لكننا سنكتفي بعبارات لعلها تقدم صورة كافية عن مدى التقدم الذى أحرزته علاقة الدين بالحياة على يديه ..

محمد عبده يقول « ان الاسلام لم يتعارض ، ولا يمكن أن يتعارض مع العلم ، فالعلم مثله مثل العقيدة يكشف للناس أسرار الطبيعة » .

ويقول « ان سر تفوق أوربا يكمن فى تفوقها فى مضمار البحث العلمى وإلى تقدم نظم التعليم فيها ، ورفض الاستاذ الامام مبدأ « التقليد » الذى دعى إليه السلفيون ومازالوا يدعون إليه ، وقد أكد ان الاسلام لا يمكنه أن يرسخ أقدامه عبر الزمان إذا مااستمر معتمداً على التقليد ، وأكد « انه بدون استخدام العقل سوف يتعذر على المسلمين تحقيق أى تقدم أو تطور » .

وتعالج فتاوى الاستاذ الامام الكثير من مشكلات العصر .. حتى مشكلة الحجاب ، إلى الحد الذى راجت فيه شائعات قوية انه أسهم فى كتاب « تحرير المرأة » الذى أصدره صديقه الحميم قاسم أمين .

وإذ يبلغ محمد عبده القمة ، وإذ ينجح فى إسكات صوت المحافظين الرجعيين والسلفيين ، والمتهجمين على الأديان بدعوى عدم مواكبتها لروح العصر .. إذ ينجح فى إسكات ضجيج معركة مفتعلة ويلزم الجميع الصمت .. يرحل .

وبرحيله يخلو الميدان لدعاة الارتداد من جديد .

ويورد د. مجيد خضورى تفاصيل مشوقة لمعركة نشبت بين تلاميذ الاستاذ الامام .. ويقول « ان البعض من تلاميذ الامام قد يحاول ان يطور تعاليمه ويصل بها إلى نهايتها المنطقية ، أى أن ينفى دور الاسلام كعقيدة تجاه المجتمع ككل ، وأن يحصره تجاه الفرد وضميره ووعيه . وكان هذا البعض يرى أن الاسلام عقيدة حية ومن ثم يتعين لها أن تتطور باستمرار ، وان النهاية الحتمية لهذا التطور هى علمانية المجتمع الاسلامى » .

ويقول خضورى ان هذه الآراء قد رفضت بشدة من جانب المحافظين من مريدى الاستاذ الامام وخاصة هؤلاء الذين كانوا – برغم ولائهم لشيخهم – إلا انهم كانوا يرون انه قد قدم تنازلات غير ضرورية لصالح المدنية والتطور الحديث ، وكان على رأس هؤلاء المحافظين المتشددين الشيخ رشيد رضا »(١٧)

● هاهى معركة التجديد التى قادها الاستاذ الامام تحاصر .. وينطبق عليها من ناحيتين :

– التقليديون والمحافظون السلفيون الذين طالما هاجمهم الامام وهاجموه ..

– المحافظون من أتباع الامام من امثال الشيخ رشيد رضا وتلاميذه ..

وعلى يد رشيد رضا وتلاميذه تبدأ أخطر معارك الارتداد السلفى فى تاريخ مصر الحديث ..

- ٣ -

الارتداد إلى .. ماذا ؟

وكما قلنا تبدأ رحلة الارتداد بالشيخ رشيد رضا .

وكانت مزدوجة الاهداف .. خاضت معركتين وليست معركة واحدة .. واحدة ضد مشايخ الازهر ذوى النزعة فى التقليد والاخرى ضد دعاة التفرنج والتجديد .. وكان يخوض المعركتين معا وبنفس الحدة ..

وفى كتابه « الخلافة أو الامامه العظمى » يهاجم رشيد رضا الشيوخ « الذين إزوروا إلى زوايا مساجدهم أو جحور بيوتهم ، ودعاة التفرنج ذلك انه من الجنون أن تسعى إلى انتزاع مقومات الامة الاسلامية الدينية والتاريخية ، واستبدال مقومات أمة اخرى ومشخصاتها بها »

ورويدا رويدا يتخلص رشيد رضا من تعاليم شيخه وإمامه ، بل ويقترب كثيرا من معسكر خصوم الامام ، ولا يلبث رشيد رضا أن يعلن أن الأمل والعمل والجهد يتركز فى شىء واحد هو « الخلافة الاسلامية » فهى الحكومة المثلى التى بدونها لايمكن ان يتحسن حال البشرية »[١٨] .

بل ان الدولة الاسلامية هى فى الواقع خير الدول ليس بالنسبة للمسلمين فحسب ولكن بالنسبة لسائر البشر »[١٩] .

ثم يواصل رضا تناقضه الحاد مع تعاليم الامام عندما يؤكد ان السيادة المطلقة فى الدولة الاسلامية « هى لأولى الأمر الذين أمر الله بطاعتهم »[٢٠] .

وتبدأ رحلة الارتداد .

ويعلن حسن البنا فيما بعد : « نحن سلفيون من أتباع الشيخ رشيد رضا »

ولكن الارتداد إلى ماذا ؟

يفسر ألبرت حورانى الأمر قائلا : « إذا كان التاريخ هو ماتعيه ذاكرة الانسان عن الماضى ، فإن هذا الماضى يظل بالنسبة للبعض أملا يتعين الارتداد إليه ، وبالنسبة لبعض المسلمين سيظل العصر الاسلامى الأول صورة وحيدة لما يجب أن يكون عليه العالم »[٢١] .

واذا كنا نقول ان الافغانى كان بداية سلم التجديد فى الاسلام وان محمد عبده كان قمته وان رشيد رضا كان بداية الارتداد الحديث ، فإن حسن البنا من موقع متعال على الجميع يقول « الافغانى كان يرى المشكلات ويحذر منها ، وكان محمد عبده يعلم ويفكر ، ورشيد رضا يكتب أبحاثاً » وهم جميعا مجرد [مصلحين دينيين وأخلاقيين يفتقدون الرؤية الاسلامية الشاملة »[٢٢]

بينما يتفوق أحد تلاميذ البنا على استاذه فى عدم التواضع فيقول « الافغانى كان مجرد مؤذن ورشيد رضا هو مجرد مؤرخ .. أما المرشد فهو « بنا »[٢٣]

ويميز تلميذ آخر لحسن البنا بين هؤلاء جميعا معلنا ان دعوة حسن البنا تتميز عن غيرها بأنها تعني الجهاد والنضال و العمل وانها ليست مجرد رسالة فلسفية[٢٤] .

نحن إذن أمام حالة نصف أصحابها بأنهم سلفيون من أتباع رشيد رضا ، بل هم أشد سلفية من رشيد رضا وهم أيضاً ليسوا مجرد دعوة فلسفية بل جماعة جهاد ونضال وعمل ..

وبهذا نقف على عتبات « الاخوان المسلمين » .

فكيف كان الارتداد الذى أراده وأداره حسن البنا وإلى أين وصل بأصحابه ، وكيف أوجد نفسه فى التطبيق العملى ؟ ..

• المرشد .. الجماعة .. البيعه :

وتقترب مصر من نهاية العشرينات ، حيث الأزمة الاقتصادية العالمية التى أصابت العالم الرأسمالى ، بل والنموذج الرأسمالى كله بالدوار ، وحيث تجربة الاستقلال المصرى تتعثر ، وتجربة الحكم الدستورى تواجهها عقبات جسيمة .. وأمام كل هذا الاحباط برزت « الاسلامية » كمخرج .. ولم تكن مصادفة ان يشهد عام ١٩٢٨ تحديداً مولد جماعتين « الاخوان المسلمين » و « جماعة الشباب الحر انصار المعاهدة » التى أصبحت فيما بعد « مصر الفتاة » .

وفى هذه الاثناء تخرج الشيخ الشاب من دار العلوم وعين مدرساً فى الاسماعيلية ، وفى ١٩ سبتمبر ١٩٢٧ يبدأ العام الدراسى .. وتبدأ رحلة الشيخ ليجتذب أنصاراً .. ومن ستة من المريدين تأسست الشعبة الأولى لجماعة الاخوان ..

ويحدد الشيخ الشاب سهام اتجاهه ، فيقرر ان يتجه إلى : ــ العلماء ــ مشايخ الطرق الصوفية ــ علية القوم ــ النوادى[٢٥] .

وتجمع الرجال الستة ليخاطبوا الشيخ فى تواضع ، ويتباهى الشيخ بما قالوه إلى الدرجة التى دفعته ان يسجله حرفيا فى مذكرات الدعوة والداعية « انا لنشعر بالعجز عن تفهم الطريق إلى العمل كما تفهمه أنت ، ولا نعرف الطريق إلى خدمة الوطن والدين والامة كما تعرفه أنت ، وكل ما نرغب فيه الآن هو أن نقدم لك كل ماتملكه حتى نصبح فى حل من المسئولية أمام الله ، ولكى تصبح أنت مسئولا أمامه عما يجب أن نقوم به »[٢٦] .

وبدأت رحلة جماعة الاخوان المسلمين ..

* * *

□ بطاقة شخصية .. للجماعة :

الاســـم : قال حسن البنا لأتباعه « نحن أخوة فى الاسلام ومن ثم فنحن « **الاخوان**

المسلمون »[٢٧] .

تاريخ الميلاد : شهر ذى القعدة عام ١٣٤٧ هجرية [ويلاحظ ان حسن البنا أورد التاريخ الميلادى المرادف له « مارس ١٩٢٨ » ، لكن روزنتال فى مقال « الاخوان المسلمون فى مصر » المنشور فى مجلة عالم الاسلام اكتوبر ١٩٤٧ اكتشف من مقارنة التقويمين ان ذى القعدة ١٣٤٧ هـ يوافق ابريل – مايو ١٩٢٩ . ونلاحظ ان الجماعة قد احتفلت بعيد تأسيسها العاشر فى يناير ١٩٢٩ ، لكنها عادت فاحتفلت بعيدها العشرين فى سبتمبر ١٩٤٨]

الهيكل القيادى : مكتب الارشاد ، ويعمل تحت إمرة المرشد العام – وهو بمثابة مجلس الشورى لكن صالح عشماوى أحد قادة الجماعة يقول وهو يمجد المرشد « عند أول عهدى بعضوية مكتب الارشاد ثار البحث هل الشورى فى الاسلام ملزمة أم غير ملزمة ؟ أى هل يتقيد فضيلة المرشد العام برأى مكتب الارشاد أم أن المكتب هيئة استشارية له أن يأخذ برأيها أو يخالفه إن شاء .. وكان رأى المرشد أن الشورى غير ملزمة وأن من حقه مخالفة رأى المكتب »[٢٨] .. مرة أخرى كتب عشماوى ذلك ممتدحا وليس ناقداً .

محل الميلاد : أول تبرع مالى تلقته الجماعة من شركة قناة السويس [الفرنسية] وقد أكد حسن البنا ذلك وقال ان التبرع كان خمسمائة جنيه وهو مبلغ كبير بمقياس هذا العصر[٢٨] وعند حل الجماعة عام ١٩٤٨ اتضح انها كانت اغنى الجمعيات والاحزاب السياسية فى مصر .

طبيعة الجماعة : حرص البنا على ان يضفى صبغة ضبابية على الجماعة وألا يقدم تفسيراً واضحاً لأهدافها أو طبيعتها حتى يوائم بينها وبين تقلبات الاحوال .

قال البنا « أيها الاخوان : انتم لستم جمعية خيرية ، ولا حزباً سياسياً ، ولا هيئة موضوعية الأهداف محددة المقاصد ، ولكنكم روح جديدة يسرى فى قلب هذه الأمة ينجيه بالقرآن »[٣٠] .. « روح جديدة يسرى فى قلب الأمة » .. عبارة مطاطة لايمكن الامساك بأى من أطرافها .

البرنامج : لا يوجـــد ..

سئل البنا عن البرنامج فقال « ولم البرنامج انه يفرقنا » .. واكتفى بعبارة عامة « القرآن دستورنا والرسول زعيمنا » .

ولقد ظل البنا فى بداية الأمر ينكر أن لجماعته علاقة بالسياسة ، لكنه ماأن قوى عود جماعته حتى أعلن على صفحات مجلة النذير ان الجماعة سوف « تنتقل من دعوة الكلام وحده إلى دعوة الكلام المصحوب بالنضال والاعمال » وتوجه إلى

اتباعه متحدثا عن السياسيين جميعا قائلا « ستخاصمون هؤلاء جميعا فى الحكم وخارجه خصومة شديدة لديدة إن لم يستجيبوا لكم »[٣١]

ولم يلبث البنا أن صارح الجميع بشعاره الاساسى انه يطمح إلى الحكم ليقيم دولة دينية وقال « الاسلام الذى يؤمن به الاخوان المسلمون يجعل الحكومة ركنا من اركانه ، ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الارشاد .. والحكم معدود فى كتبنا الفقهية من العقائد والأصول .. فالاسلام حكم وتنفيذ ، كما هو تشريع وتعليم ، كما هو قانون وقضاء »[٣٢]

وأيضا . « الذين يقولون ان تعاليم الاسلام إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحي مخطئون .. فالاسلام عبادة وقيادة ، ودين ودولة ، وروحانية وعمل ، وصلاة وجهاد ، ومصحف وسيف ، لاينفك احدهما عن الآخر »[٣٣]

وبغير ذلك لم يقل البنا .. لم يقل ماموقف جماعته من مشكلات الحياة اليومية .. ولا من متطلباتها ولا من الجديد فيها .. فقط عموميات لايمكن الامساك بشىء منها .

العلامات المميزة : تميزت جماعة الاخوان المسلمين عن غيرها من القوى السياسية بعلامتين مميزتين أساسيتين .. البيعة والجهاز السرى ..

أما عن **البيعة** فقد استند فيها حسن البنا إلى حديثين شريفين الاول يقول « من مات وليس فى عنقه بيعه فقد مات ميتة جاهلية » والثانى يقول « من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعمه ان استطاع فإن جاء آخر ونازعه فاضربوا عنق الآخر »

واستند أيضا إلى أقوال أبو الاعلى المودودى « لا ينتخب للامارة إلا من كان المسلمون يثقون به وببصيرته وبطباعه وبخلقه ، فإذا انتخبوه فهو ولى الأمر المطاع فى حكمه ولا يعصى له أمر ولا نهى » ويقول بأن الامام أو الامير من حقه ان يملى رأيه حتى على الاغلبية « فالاسلام لا يجعل من كثرة الاصوات ميزاناً للحق والباطل ، فإنه من الممكن فى نظر الاسلام ان يكون الرجل الفرد أصوب رأياً وأحد بصراً من سائر أعضاء المجلس »[٣٤] .

ولقد بايع الاتباع إمامهم بيعة كاملة فى المنشط والمكره ، وعاهدوه على السمع والطاعة ..

ولم يكن حسن البنا يخفى ذلك على الناس ، فهو لم يكن يقبل منهم بأقل من السمع والطاعة ، دون نقاش .. « يجب على الاخ أن يعد نفسه إعداداً تاماً ليلبى أمر القائد فى أية ناحية ، ان الدعوة تتطلب منا ان نكون جنوداً طائعين لقيادة موحدة لنا عليها الاستماع للنصيحة ، ولها علينا الطاعة كل الطاعة فى المنشط والمكره »[٣٥] . وأيضاً « يتعين على العضو الثقة بالقائد والإخلاص والسمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره »[٣٦] .

ويصف البعض ولاء الاتباع قائلين « ان سيطرة البنا على أتباعه كانت مطلعة وكاملة وتصل إلى درجة السحر »[٣٧] وتصف الأمر جريدة مصرية فتقول فى تهكم واضح « اذا عطس المرشد فى القاهرة ، قال له الاخوان فى اسوان يرحمكم الله »[٣٨] .

وإذا قد ترتب على البيعة بمفهوم البنا انه ليس مسموحا بالخلاف مع المرشد ، فإن كلمة « ليس مسموحاً » هذه ليست أداة معنوية فحسب ، بل كان العنف والارهاب المعلن والمتباهى به سبيلا لفرضها .

فمنذ البداية دب الخلاف فى شعبة الاسماعيلية ، وحاول البعض التمرد على البنا وأبلغوا النيابة العامة ضده فى مخالفات مالية ، فكان رد فعل البنا عنيفاً فقد جمع عدداً من أتباعه حيث « اعتدوا على المنشقين بالضرب »

ويعترف البنا بذلك ويتباهى به ، ويبرره بأن « المخالفين قد تلبسهم الشيطان وزين لهم ذلك ، وان من يشق عصا الجمع ، فاضربوه بالسيف كائنا من كان » ويتأسف البنا على رفض البعض لضرب المخالفين وردعهم قائلا : « اننا قد تأثرنا إلى حد كبير بالنظم المائعة التى يسترونها بالفاظ الديمقراطية والحرية الشخصية »[٣٩]

أما العلامة المميزة الثانية فهى الجهاز السرى الذى مارس أوسع عمليات إرهاب فى تاريخ مصر الحديث ، وقد تدرج الفكر التنظيمى لحسن البنا فى سلاسة ويسر ليصل إلى هذا الهدف غير المعلن ، فبدأ « بالجوالة » بهدف تعويد الاخوان على النظام شبه العسكرى ويدربهم على الطاعة التامة والتفانى المطلق ..

ثم كانت « كتائب أنصار الله » وهى مجموعات تضم كل منها أربعين عضواً من الاعضاء النشيطين فى الجماعة يلتقون معا ليلة كل اسبوع حيث يقضون الليل فى العبادة والتلاوة .

والعيون اليقظة تتابع ذلك كله لتفرز منه من يصلحون للجهاز الخاص ..

ولقد أنكر البنا طويلا أنه يوجد ثمة جهاز خاص ، ونفى ذلك نفياً قاطعاً ، بل لقد وصف القائمين بأعمال النسف والتفجير والقتل عام ٤٨ - ١٩٤٩ بأنهم « ليسوا اخوانا وليسوا مسلمين » .

وظلت الجماعة على إنكارها لوجود الجهاز الخاص حتى برغم اعترافات عشرات بل مئات من أعضائه أمام محكمة الشعب . وقيل ساعتها أنها اكاذيب قيلت تحت وطأة التعذيب .

ثم تظهر الحقيقة فى اعترافات مفصلة ومتباهية تمت دون إكراه ، فقد أصدر كلا من الاستاذين صلاح شادى . وأحمد عادل كمال مذكراته مؤخراً ونهديها إلى كل من حاول إنكار وجود الجهاز السرى أو إنكار ضلوعه فى عمليات الاغتيال والتفجير والارهاب .. ان خطة الجهاز وتركيبه وإرهابه المنظم يتم التباهى بها على صفحات الكتابين وبتفصيل مذهل .

٤ – عن السياسة وأشياء اخرى :

ظل حسن البنا طوال عشر سنوات كاملة ينكر أية صفة سياسية لجماعته ويؤكد فى إلحاح انه لاعلاقة له بالسياسة ، ولكنه ماأن شعر بالقوة ، وبضعف الآخرين حتى جاهر بدوره السياسى .

الدين شىء والسياسة غيره   دعوى نحاربها بكل سلاح

هكذا أكد عبدالحكيم عابدين صهر البنا ..

أما البنا نفسه فمالبث أن قال بصراحة « استطيع ان أجهر بصراحة بأن المسلم لا يتم إسلامه إلا إذا كان سياسيا بعيد النظر فى شئون أمته مهتما بها غيوراً عليها »(٤٠)

لكن الامر لايكون مستقيماً أبداً مع الشيخ البنا ..

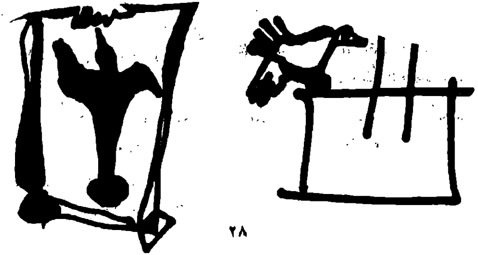
فهو يعود ليغمض القول « هل نحن طريقة صوفية ، جمعية خيرية ، مؤسسة اجتماعية ، حزب سياسى نحن دعوة القرآن الحق الشاملة .. »(٤١)

ثم يقرر البنا صراحة « إن الاخوان دعوة سلفية ، طريقة صوفية ، هيئة سياسية ، جماعة رياضية ، رابطة ثقافية ، شركات اقتصادية ، فكرة اجتماعية »(٤٢)

ولكن متى تستطيع ان تمسك الزئبق فالشيخ يعود لينفى ما قال « ايها الاخوان انتم لستم جمعية خيرية ، ولا حزبا سياسيا ، ولا هيئة موضعية الأغراض محدودة المقاصد ، ولكنكم روح جديد ونور جديد ، وصوت داو »(٤٣)

مع ذلك فإن احداً لاينكر ان الاخوان قد تداخلوا فى السياسة ، وشاركوا فى غمارها مشاركة كاملة .

وحتى فى المبادىء الجوهرية كان الاخوان يتلاعبون تلاعب السياسيين غير المتمسكين بالمبادىء فبعد ان يوجه البنا نقداً شديداً للدستور ويقول « ان فيه مايراه الاخوان مبهماً غامضاً يدع مجالا واسعا للتأويل والتفسير الذى تمليه الغايات والاهواء »(٤٤) ، يعود فيتراجع تحت ضغط قيل أنه قد أتى من القصر الملكى ليعلن « ان الدستور بروحه وأهدافه العامة لا يتناقض مع القرآن .. وان مايحتاج إلى تعديل منه يمكن ان يعدل بالطريقة التى رسمها الدستور ذاته »(٤٥)





ثم يعود البنا ليتراجع مهرولا « ماكان لجماعة الاخوان المسلمين أن تنكر الاحترام الواجب للدستور باعتباره نظام الحكم المقرر فى مصر ، ولا ان تحاول الطعن فيه .. ماكان لها ان تفعل ذلك وهى جماعة مؤمنة مخلصة تعلم ان إهاجة العامة ثورة ، وان الثورة فتنة ، وان الفتنة فى النار »[٤٦] :

ولكن لعبة السياسة عند الشيخ استمرت على هذا المنوال : قول ونقيضه فى آن واحد .. وان كان الخط الثابت هو المناورة بين الجميع ، والتلاعب بالجميع ، وان الشيخ قد أدرك ولكن متأخرا ان الجميع كانوا يتلاعبون به ..

ولعبة السياسة عند الشيخ بلا مبادىء ولن نطيل وسنكتفى باشارات ..

• شركة قناة السويس الاستعمارية قدمت له عونا ماليا وقبله .

• الطاغية اسماعيل صدقى قدم له عوناً مادياً ومعنوياً كبيرا فى بداية نشأة الجماعة ..

• على ماهر داهية القصر والموصوم بعلاقات مريبة خارجية كان الصديق الحميم للجماعة ..

• عقد الاخوان المسلمون مؤتمرهم الرابع خصيصا للاحتفال باعتلاء « جلالة الملك العرش » وقام الجوالة بدور المنظم فى الاحتفالات الصاخبة بهذه المناسبة [٤٧]

• عندما اختلف النحاس باشا مع الملك خرجت مظاهرات الاخوان إلى قصر عابدين تهتف « الله مع الملك »

• كتب احد قادة البوليس تقريرا يقترح « ان تشجع الحكومة الجماعة وتعمل على تعميم فروعها فى البلاد حتى يكون فى ذلك اكبر خدمة للأمن والاصلاح » ويتباهى حسن البنا بذلك ويورده فى مذكراته » [٤٨]

• يقول ريتشارد ميتشل « منذ اكتوبر ١٩٤١ قامت علاقات بين البنا والانجليز » (٤٩)

وتؤكد جريدة الاخوان ان اتصالا قد تم مع الانجليز وان الطرف الانجليزى قد أبدى استعداده لتقديم عون مالى للجماعة وتقول ان البنا قد رفض ذلك (٥١)

مرة أخرى نقف أمام ظاهرة محيرة ، يعترف البنا ان الطاغية صدقى قدم عرضا بمعاونة مالية ، وان الانجليز قدموا ذات العرض ، ويقول انه رفض . حسنا ، ولكن لم لا نسأل انفسنا لماذا هؤلاء بالذات تحمسوا لتقديم العون ..

• وهل تنسون أحداث ١٩٤٦ ، وخروج الاخوان يهتفون « واذكر فى الكتاب اسماعيلا » .

• وهل تنسون تأييد معاهدة صدق – بيفن .

ويورد شاهد محايد – صلاح الشاهد – الواقعة التالية « توهم صدقى ان الاخوان قاعدة شعبية ذات وزن فاستدعى المرشد بعد عودته من لندن بساعتين واطلعه على مشروع الاتفاقية قبل أن يطلع عليه النقراشى وهيكل المشاركين له فى الحكم وحصل على موافقة على المشروع ، وعندما اشتدت المظاهرات الشعبية ضد هذه الاتفاقية طلب صدقى باشا من المرشد ان يركب سيارة زكى باشا مساعد الحكمدار المكشوفة ليعمل على تهدئة الجماهير ، واستجاب المرشد لطلب صدقى باشا » (٥٢)

وبهذا نكتفى فى مجال السياسة .. فكل الخطى متشابهة .

هذا عن السياسة اما عن الموقف الاجتماعى فقد ساند الاخوان الرأسماليون وكبار الملاك علنا وعندما أضرب عمال شبرا الخيمة إضرابهم الشهير عام ١٩٤٦ حاول الإخوان تخريب الاضراب ، وكتبت جريدتهم « لا بد للعمال من سلاحين هما قوة الايمان وحسن الخلق فتقوم الصلة بين العامل وصاحب العمل على الاحترام والعطف المتبادلين وهذه هى أنجح الوسائل » (٥٣)

أما علاج البطالة فهو « إعادة العمال الذين نزحوا من قراهم إلى موطنهم الاصلى » (٥٤)

وقاوم الاخوان حق الاضراب من حيث المبدأ « فهو أمر مخل بروابط الاخاء بين المسلمين ومثير للجفاء بين فرقهم » (٥٥)

ونترك المواقف لنأتى إلى ماأثير حول العلاقات « المالية » للجماعة بأوساط عديدة .. منها الحكومة ومنها الانجليز .

والحقيقة أننا لا نريد الخوض فى الشائعات ، لكننا نلاحظ ان كل الانقسامات التى خرجت من الجماعة قد ركزت هجومها على هذا الموضوع .. كان ذلك فى انقسام شعبة الاسماعيلية ، ثم فى انقسام جماعة شباب سيدنا محمد ثم انقسام احمد السكرى ..

وحتى هذا لا نأخذ به فقد يكون مجرد إتهام عن غير بينة من منقسمين عن الجماعة ولكن هل يمكن ان نتأمل معا بعض ممتلكات الجماعة عام ١٩٤٧ :

- شركة الاخوان للصحافة ورأسمالها ٥٠,٠٠٠ جنيه .
- شركة الاخوان للطباعة ورأسمالها ٧٠,٠٠٠ جنيه .
- شركة الاعلانات العربية ورأسمالها ١٠٠,٠٠٠ جنيه .

شركة المعاملات الاسلامية ورأسمالها ٣٠,٠٠٠ جنيه .

- شركة المعاملات الاسلامية ورأسمالها ٣٠,٠٠٠ جنيه .
- الشركة العربية للمناجم والمحاجر ورأسمالها ٦٠,٠٠٠ جنيه .
- شركة التجارة والاشغال الهندسية ورأسمالها ١٤,٠٠٠ جنيه .
- شركة التوكيلات التجارية بالسويس .
- شركة مزرعة العركى (٨٠٠ فدان) .

هذا بالاضافة إلى عشرات العيادات الطبية ومئات المدارس والمقار والاندية .. الخ ولعله من الضرورى أن ننسب الارقام إلى زمانها ، لنجد انها كانت تمثل ثروة حقيقية ..

فمن أين ذلك كله ؟ هذا هو السؤال ..

• من تلاعب بمن ؟

وتمضى عشرون عاما لا أكثر أمضاها الشيخ حسن البنا مناوراً بين مختلف القوى، محاولا أو مالحا نفسه وهما كبيراً بأنه يتلاعب بكل الاطراف السياسية فى مصر ..

عشرون عاما لا أكثر واكتشف البنا انهم جميعا كانوا يتلاعبون به ويستخدمونه، فتح البنا عينيه ليجد نفسه محاصراً وظهره للحائط ، ودعوته التى اتسعت بصورة لم تشهد لها مصر مثيلا تفتقد ممكنات النمو .. أو حتى الاستمرار .

ترك الشيخ المصحف جانبا ، وأبرز مسدسه .

الآن السلاح هو الذى يتكلم ، وبرز « الجهاز الخاص » إلى الساحة ، سلسلة من الاغتيالات

والانفجارات .. كان البنا قد أعد عدته جيداً ، ألف أو اكثر قليلا من الرجال المسلحين تسليحا كافياً والمدربين تدريباً عالياً[٥٦] . وكان قد استخدم إلى أقصى حد حرب فلسطين فاستحوذ على الكثير من السلاح مدعياً انه للقتال فى فلسطين لكنه كان يتسرب إلى مخازن الجهاز الخاص .

وكان قد أعد رجاله فكرياً ، وأقنعهم « بمشروعية الجهاد » فى سبيل الدعوة .. « كانت قمة نجاح البنا كداعية وكمنظم انه استطاع ان يغرس فى نفوس أعضاء هذا الجهاز أن الموت فى سبيل الدعوة سهل وبسيط ومرغوب فيه ، وان المؤمن المجاهد يخطو خطوة رائعة واحدة تنقله من حياة فانية إلى حياة خالدة باقية ينعم فيها بالجنة »[٥٧] .

ودارت ماكينة الارهاب إلى أقصى مداها .

الآن الحديد يطرق الحديد ، السلطة التى لاينهـا ولاينته أمداً طويلا ، تكيل الصاع صاعين ، ورجاله الذين أعدهم فى دأب ؛ يتهاوون الواحد بعد الآخر وتنهال اعترافاتهم على كل شىء .. والجماعة حلت ، وأموالها صودرت ، ورجاله اعتقلوا أو تفرقوا ، وبقى هو وحيداً . لم يعتقلوه تركوه كى يعتصروا منه آخر قطرات المناورة ، وبدأت سلسلة اتصالات تطالب الشيخ باستنكار العنف مقابل عودة كل شىء إلى ماكان عليه ..

وبدأ الشيخ المحاصر يلعب بآخر ما فى جعبته من سهام المناورة ، فقال لمفاوضيه « انه لايستطيع ان ينكر الاخطاء التى ارتكبها الاخوان إلى درجة انه هو نفسه قد شعر بضرورة حل الجماعة »[٥٨] .

وطلب إليه ان يصدر بيانا فأصدر ، ثم بيان آخر .. وأخير .

قال فيه بعد عنوان مثير « ليسوا اخوانا وليسوا مسلمين » .. « ان مصر الآمنة لن تروعها هذه المحاولات الاثيمة ، وسيتعاون هذا الشعب الحليم الفطرة مع حكومته الحريصة على أمنه وطمأنينته فى ظل جلالة الملك المعظم على القضاء على هذه الظاهرة الخطيرة » واتهم القائمين بهذه الأعمال بأنهم « صغار من العابثين » ووصف أعمالهم بأنها « سفاسف » .

وهكذا انتهى الشيخ ، تساقطت آخر أوراق مناوراته ، وانتهى سياسيا ومعنوياً بهذه الكلمات المخجلة له كصاحب لفكرة الجهاز السرى وكقائد فعلى ووحيد له .

أما رجاله الذين بايعوه فى المنشط والمكره فمالبثوا بعد أن اطلعوا على هذا البيان وهم فى السجن ان انهاروا هم أيضا وانهالت اعترافاتهم ..

أما جلالة الملك المعظم الذى لم ينسَ الشيخ ان يتملقه فى البيان فقد قرر أن ينهى الامر فلم تعد به حاجة لبقاء الشيخ ، وصدر الامر واغتيل البنا ..

لكننا نعتقد ان البنا لم يمت برصاص رجال الملك ، وانما كان قد مات من كلمات خطها

يده .. عندما وصف رجاله الذين أسماهم يوماً « رهبان الليل وفرسان النهار » وصفهم بأنهم صغار من العابثين ووصف « جهادهم فى سبيل الدعوة » بأنه « سفاسف » .

• **خاتمة تليق بما سبق :**

وكما ناور البنا ، ناور رجاله .. انها مدرسة متكاملة ، فمالبثت الصفقة أن عقدت من جديد ، وعادت الجماعة وكان المقابل جسيما .. فإذا كانت الاصابع كلها تشير إلى الملك كقاتل لحسن البنا ، فلماذا لاتجبر الجماعة على تبرئة القاتل ؟ وفى ١٤ نوفمبر ١٩٥١ فتح دفتر تشريفات قصر عابدين ليوقع فيه عدد من قادة الاخوان معلنين ولاءهم للمليك المفدى ، وربما معلنين ايضا نسيانهم لدم الامام الشهيد ..

أما التوقيعات فهى عديدة وموحية ..

ـ المرشد العام الجديد .. حسن الهضيبى ..

ـ شقيق حسن البنا .. عبدالرحمن البنا عضو مكتب الارشاد

ـ صهر حسن البنا .. عبدالحكيم عابدين سكرتير عام الجماعة

ـ اقرب المقربين للامام من مريديه .. صالح عشماوى ـ عبدالقادر عودة ـ حسين كمال الدين ـ محمد الغزالى ـ عبدالعزيز كامل .. والجميع أعضاء فى مكتب الارشاد .

• وحتى السكرتير الخاص للبنا وكاتم أسراره ورفيق رحلته الطويلة سعدالدين الوليلى كان معهم ليوقع معربا عن ولائه لقاتل إمامه ..

ولعل هذه الخاتمة تغنى عن كل قول .

ألم نقل انها تليق بكل ماسبق .

الهوامش

---

(١) راجع كتاب : مذكرات الدعوة والداعية .

(٢) المصور – ٢٩ / ٨ / ١٩٥٢ – مقال بقلم [والد حسن البنا] الشيخ احمد عبدالرحمن البنا ، وقد أورد فيه العديد من الروايات المماثلة .

(٣) حسن البنا – رسالة المؤتمر الخامس – ص ٧

(٤) **محمد صبيح – مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية – ص ٢٨٩ [نقلا عن مذكرات محمد فريد المخطوطة] .**

(٥) **Berger, M. : The ARAB World today (1964) p318 .**

(٦) المقتطف – مجموعة عام ١٨٧٦ .

(٧) د. شبلي شميل – فلسفه النشوء والارتقاء – مقدمة الطبعة الثانية – مطبعة المقتطف (١٩١٠) ص ٢ .

(٨) مجلة البصير – مجموعة عام ١٨٧٨ – شبلي شميل مقال « القضاء على القضاء » .

(٩) شبلي شميل – فلسفة النشوء والارتقاء – المرجع السابق – ص ٢٧ .

(١٠) مجلة الهلال – مجموعة عام ١٩٦٨ – مقال الشيخ محمد الشرقاوي « محنة الفكر التقدمي في مصر » .

(١١) شبلي شميل – مجموعة الاعمال – جـ ٢ – ص ٦٢ .

(١٢) الاخبار – مجموعة عام ١٩٠٩ – مقال : ضحايا الجهل .

(١٣) ولي الدين يكن – المعلوم والمجهول – جـ ٢ – ص ١٥٩ .

(١٤) التجـاريب – ص ٢٣

(١٥) الاخبار [مجموعة عام ١٩٠٩] مقال لشبلي شميل بعنوان « ضحايا الجهل » .

(١٦) الاخبار – ٢٧ / ٢ / ١٩٧٣ – مقال أحمد حسن الباقوري بعنوان « هذا الرجل لماذا يظل هدفاً للمهاجين ؟ »

(١٧) **- Khadduri — Ibid- p 65**

(١٨) رشيد رضا – الخلافة أو الامامة العظمى – مطبعة المنار بمصر (١٣٤١) – ص ١١٦

(١٩) المرجع السـابق – ص ١٢٨

(٢٠) رشيد رضا – كتاب الوحي – ص ٢٣٩ .

(٢١) **Hourani, Albert- Thought in the Liberal age- p.80**

(٢٢) حسن البنا – مذكرات الدعوى والداعية – المرجع السابق – ص ٥٨

(٢٣) الدعوة – ٢٠ / ٢ / ١٩٥١ .

(٢٤) احمد أنس الحجاجي – الرجل الذى أشعل الثورة (١٩٥٢) – ص ٤٣ .

(٢٥) حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية – ص ٢٢ .

(٢٦) المرجع السـابق – ص ٧٣ .

(٢٧) موسى اسحق الحسيني – الاخوان المسلمون كبرى الحركات الاسلامية الحديثة – ص ١٧ .

(٢٨) الدعوة – ١٢ / ٢ / ١٩٥٢ – مقال لصالح عشماوى .

(٢٩) حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية – ص ٩٦ .

(٣٠) حسن البنا – بين الامس واليوم ص ٢١ .

(٣١) النذير – العدد الاول – مايو ١٩٣٨ – الافتتاحية (بقلم حسن البنا) .

(٣٢) حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية – ص ٢٨٣

(٣٣) المرجع السابق – ص ١٥١ .

(٣٤) ابو الاعلى المودودى – نظرية الاسلام السياسية – ص ٢٩ .

(٣٥) الأخوان المسلمون (الاسبوعية) – ٢٦ / ١٠ / ١٩٤٦

(٣٦) حسن البنا – رسالة التعاليم .

(٣٧) موسى اسحق الحسيني – المرجع السابق – ص ٥٤

(٣٨) نقلا عن : ابو الحسن الندوى – مذكرات سائح فى الشرق العربى – ص ٢٦

(٣٩) حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية – ص ١٢٤ – ١٢٦

(٤٠) **الاخوان المسلمون – ١٦ / ٤ / ١٩٤٦ – حسن البنا مقال : الاسلام سياسة وحكم .**

(٤١) **انور الجندى – الاخوان المسلمون فى ميزان الحق – ص ١١**

(٤٢) **المرجع السابق – ص ١٥**

(٤٣) **المرجع السابق – ص ٥١**

(٤٤) **حسن البنا – رسالة المؤتمر الخامس**

(٤٥) **انور الجندى – المرجع السابق – ص ٦٢ .**

(٤٦) **النذير – العدد ٣٣ – حسن البنا – مقال : الاخوان المسلمون والدستور المصرى .**

(٤٧) **- Mitchill. The Socity of Muslim Brothers-16.**

(٤٨) حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية – ص ٨٩

(٤٩) **Mitchill- ipid- p25**

(٥٠) الاخوان المسلمون – ٣١ / ٧ / ١٩٤٦

(٥١) **- Heyworth- Dunne- Religious and political Tnends in Egypt. p38-41.**

(٥٢) صلاح الشاهد – ذكرياتى فى عهدين – ص ٤٨

(٥٣) الاخوان المسلمون – ١٠ / ٦ / ١٩٤٦

(٥٤) الاخوان المسلمون – ١٨ / ٨ / ١٩٤٦ .

(٥٥) امين عز الدين – تاريخ الطبقة العاملة المصرى – ص ١٧٦ .

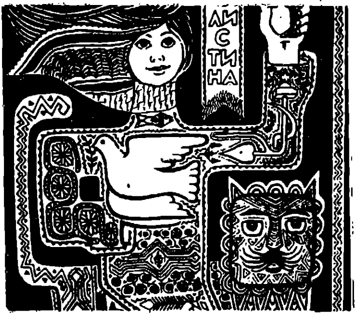
(٥٦) **- Mitchell - Ibid. p205**

(٥٧) راجع فى هذا الصدد – محمد لبيب البوهى – مع شهداء الاسلام .

(٥٨) موسى اسحق الحسيني – المرجع السابق ص ٣٦

□ تحقيق العدد □

الجمعيات الثقافية فى مصر



أنت فى جماعة / أنت ضد النظام

إعداد :

مصباح قطب

١٤ ألف جمعية ومليون عضو تحت هيمنة قانون ٣٢ غير الديمقراطي

أعضاء مجالس الإدارة يُعرضون على المدعي الاشتراكي وأجهزة الأمن

تشكيل الجمعيات حق دستوري وتنظيم المثقفين ضرورة وهدف

الجرائم « الديمقراطية » ! التي ارتكبت وترتكب في حق المصريين أكثر من أن تحصى أو أن تعد ..

والحرب التي شنّت وتُشن ضد حقوقهم الديمقراطية ، هدفها الأساسي هو أن يكون كل منهم فردا ، لاصلة له بالآخر ، فلا يتفق معه في رأى ، ولا يسعى معه في عمل مشترك ، ولا يكّون معه ، أو مع آخرين « جماعة » .. !

والسبب في ذلك هو أن السلطة التي حكمتهم وتحكمهم ، تعتقد — وهي على حق — أنها تستطيع أن تتحكم فيهم ، وأن تأمن على نفسها من مطالباتهم ، إذا ما ظلوا أفراداً ، أما إذا تحاوروا ، واتفقوا ، وتوحدوا ، فمعنى هذا أنهم سيتحولون إلى « جماعة ضغط » ، تعارض ما تتخذه من قرارات ، أو — على الأقل — تشارك في اتخاذ القرار .

ومع أن كل الدساتير المصرية ، قد كفلت للمصريين الحقوق والحريات العامة ، ومنها حق الاعتقاد والتنظيم ومخاطبة السلطات بشكل جماعي ، وحرية الرأى والتعبير والبحث العلمي .. إلا أنّ القوانين التي تنظم ذلك جعلت هذه الحقوق — كالعادة — حبراً على ورق ..

ومن بين هذه القوانين قانون عجيب اسمه القانون رقم ٣٢ لسنة ١٩٦٤ ، وهو تطوير لقانونين سبقاه ، صدر الأول في عام ١٩٤٩ وصدر الثاني في ١٩٥٦ ، والقوانين الثلاثة تنظم إنشاء وتكوين الجمعيات والمؤسسات التي تنشط في مجال الخدمات الاجتماعية ، وهو مصطلح يغطى مساحة واسعة تبدأ بجمعيات دفن الموتى ، ورعاية المعوقين ، الحج والعمرة ، وتحفيظ القرآن ، ولا تنتهي بجمعية « كل شكّه بذنب » بل بجمعيات الأدباء ورابطة الأدب الحديث ، وجمعية الاقتصاد السياسي والتشريع والمنظمة المصرية لحقوق الانسان ، والجمعية الجغرافية والجمعية المصرية لعلوم الحشرات !

ومعنى هذا أن سيادة القانون ٣٢ هو الذي يحكم علاقة الأديب والفنان والمثقف المصرى ، بالدولة والمجتمع ، إذا أراد أن يتحول من « فرد » إلى « جماعة » أو « منظمة ثقافية » .

والاحصاءات المتوفرة ، تقول أن سيادة القانون رقم ٣٢ ينشر ظلّه على ١٤ ألف جمعية ورابطة في كافة انحاء مصر ، تضم حوالى مليون عضو .. ووفقاً لمصادر وزارة الشئون الاجتماعية ، فإن ٦٥٪ من هذه الجمعيات تنشط في مجال الخدمات الدينية ، وأن ٢٠٪ منها روابط قروية ، و ١٠٪ منها تنشط في مجال تقديم المساعدات ، أما الباقى ، فهى جمعيات علمية وخيرية .

ومع أن القانون ينص على ضرورة أن تسجل الجمعيات نفسها في اتحادات اقليمية ، ليتاح التنسيق بين انشطتها ، إلا أن نصف الجمعيات المسجلة في القاهرة ، هي فقط المشتركة في الاتحاد ، ونصف هذا النصف هي التي تسدد اشتراكاتها في الاتحاد ..

ومع أن القانون ينص على ضرورة أن تنعقد الجمعيات العمومية مرّة كل عام ، إلاّ أن الجمعيات العمومية لمعظم هذه الجمعيات لا تنعقد ، إلاّ مرّة كل خمس سنوات ..

ويتلقى عدد كبير من هذه الجمعيات اعانات من وزارة الشئون الاجتماعية ، وهى الهيئة التى تنوب عن الدولة الاشراف عن الجمعيات . حتى أن ٦٣٧ من الجمعيات المسجلة فى محافظة القاهرة تمثل حوالى ٢٠٪ فقط من جملة الجمعيات فى المحافظة ، قد تلقت فى عام ١٩٨٧ وحده ، اعانات من الدولة تبلغ قيمتها ٣,٧٥ مليون جنيه . تتوزع بين اعتمادات للبر (٢٤٧ ألف جنيه) ، وإعانة للحضانات (٥٥٨ ألف جنيه) واعانات لجمعيات مسماه بعينها (٦٩٢ ألفا) واعانات استثنائية (٢٢٣ ألفا) واعانات للانشاء والتأمين (١٩٠ ألفا) وإعانات الحد الادنى (١,٠٢٣ مليونا) ، ومعونة أمريكية تصل الى (٧٤٢ ألفا) . ولم يفصح البيان عن طبيعة النشاط الذى تمارسه الجمعيات المعانة . ولكن « عبد القادر دياب » — رئيس لجنة الشئون الاجتماعية فى مجلس محلى القاهرة — يؤكد أن أغلبها يذهب للاعانات الاجتماعية وللانشاءات وشراء ماكينات التريكو والاجهزة العلمية المختلفة .

وتعيش الجمعيات — بعد هذا ، وقبل هذا — على اشتراكات الاعضاء ، وتحصل على تراخيص جمع تبرعات مقابل عمولة تدفع لمن يجمعونها تصل الى ١٥٪ ..

والجمعيات العلمية والأدبية والثقافية ، هى واحدة من رعايا سيادة القانون ٣٢ .. وهى موضوع هذا التحقيق ..

وسبب تجديد الاهتمام بها ، هو ذلك النزوع الذى يشمل كل المصريين — وبينهم المثقفون — للخروج من قوقعة الفردية ، والعمل المشترك معا ، من أجل أهداف لا تتعلق فقط بهم ، ولكنها تتعلق أساسا برغبتهم فى التعبير عن انسانيتهم .. أى عن انتمائهم للمجتمع والوطن والكون ..

وهو نزوع تشير كل التوقعات السياسية والاجتماعية إلى أنه يسود العالم اليوم أكثر من أى وقت مضى . وتشير هذه التوقعات إلى أن المنظمات القاعدية والوسيطة فى المجتمعات المختلفة ، ستلعب أدوارا بالغة الاهمية فى العقد القادم ، ويدللون فى هذا الصدد باعادة ابداع مفهوم جديد للمركزية فى الاتحاد السوفيتى ، والاحياء الهائل للمنظمات القاعدية فيه ، « والسوفيتات » ، والافكار التى تكتسب أهمية متصاعدة فى أدبيات المستقبل فى العالم الرأسمالى ، حول انهيار عصر الكيانات الضخمة فى مجتمع ما بعد الصناعة — بصرف النظر عن الاختلاف مع الأساس الايديولوجى لهذه الأفكار .

وفيما يتعلق بنا فى مصر ، فقد اكتسبت قضية التنظيم مجددا أهمية كبيرة ، تبدت فى الموقف الذى اتخذه « **الملتقى الفكرى الأول لحقوق الانسان** » — وقد شاركت فيه جهات عديدة — ضد القانون ٣٢ لسنة ٦٤ والذى يكبح جماح التطلع الاهلى فى العمل الاجتماعى ، كما تبدت فى ادانة « **لجنة الدفاع عن الثقافة القومية** » لهذا القانون ، وتضامنها مع المطالبين بالغائه ، وكذلك فى القضايا العديدة التى رفعها أعضاء منظمات اجتماعية تطوعية فى مجال حقوق الانسان والعلم والثقافة ، ضد وزارة الشئون الاجتماعية ، سواء تلك التى رفضت تعسفا السماح باشهارها ، كما فى حالة « **الفرع المصرى لمنظمة حقوق الانسان** » ، أو حلتها بعد اشهار مثل جمعية « **اصدقاء الاعلام العربى** » كما يتسع يوما بعد يوم احتجاج نوادى هيئات التدريس فى الجامعات ، التى نكبها القانون ٣٢ بضرورة اشهارها طبقا لنصوصه .

ويكفى أن تعلم أن الدولة التى وقف شعر رأسها فرحا بفوز الكاتب الكبير « **نجيب محفوظ** » بجائزة نوبل ، ورفعته فوق كل الرءوس ، هى ذاتها التى لا تثق فى ذمته المالية ، ولا عقله الثقافى ، ولا قدرته على الادارة مثقال خردلة ، بوصفه رئيسا لنادى القصة ، المشهر طبقا للقانون ٣٢ ، والخاضع لمديرية الشئون الاجتماعية بوسط القاهرة ، وتستطيع الشئون ومحافظة القاهرة ، وفقا لهذا القانون أن تفعل هذه الاعاجيب ، فمن حقها أن تحل النادى وتصفى

موجوداته وأمواله . وأن تدمجه فى نادى آخر ، أو تفككه ــ وأن تمنحه الاعانة أو تحرمه منها ، وأن تعين مجلس ادارة مؤقتا بعد حل المجلس المنتخب . ويستطيع أى موظف صغير ــ معه شارة القانون ٣٢ ــ أن يرفض اعتماد محضر مجلس الادارة ، أو محضر الجمعية العمومية ، غير عابىء بتوقيعات امثال نجيب محفوظ ود. سهير القلماوى ، ويوسف الشارونى ، ويوسف جوهر ، وغيرهم .

ــ وطبقا لهذا القانون / الجريمة ــ كما يسميه « أمير سالم » المحامى ــ فلابد من عرض المرشحين لعضوية مجلس الادارة ، على المدعى الاشتراكى ، وعلى أجهزة الامن .

والمفاجأة التى اذهلتنا ونحن نجمع مادة هذا التحقيق ، هى أن الاسماء تعرض على بوليس الآداب ، عند تأسيس الجمعية وكلما تقرر اجراء انتخاب ليقرر اذا ما كان من الممكن السماح بترخيصها أم لا .

ومعنى ذلك أن نجيب محفوظ يجب أن يرهن قدره ، انتظارا لتقرير « مخبر » يغير معلوماته بساندويتش كفتة ــ كما تقول « كريمة العروسى » ــ نائبة الوطنى حتى يتمكن من رئاسة جمعية مثل نادى القصة !!

تنظير ولكن ..

من الطبيعى أن نبحث من خلال التفاصيل عن « تنظيرة » تتناول موقف البورجوازية المصرية ، بكافة « أجناسها » « وخلقها » من قضية تنظيم الجماهير .. د . **محمد السيد سعيد الخبير بمركز الدراسات الاستراتيجية « بالاهرام » اسعفنا بالقول بأن الامر مرتبط بطبيعة منظمات الطبقة الوسطى التى نشأت فى فترة صعود البورجوازية المصرية ، وكانت تستنهض العمل الاجتماعى من خلال المنظمات السياسية والفكر الا أن هذا الترابط لم يدم طويلا .. وراحت البورجوازية تنظر بريبة الى الجمعيات ذات الطابع الشعبى الصرف ، وأخذت تفكر فى ضرورة لجم تلك المنظمات ، خاصة بعد أن عجز دعاة المجتمع المدنى عن الاستحواذ على وفرة من المنظمات المتشابكة مع المرامى السياسية التى خططوها « للأمة »** .. ويمضى د . سعيد : وقد يكون عام أو آخر مثل ١٩٣٦ ، حيث توقيع المعاهدة ، أو جمعية أو أخرى مثل جماعة الاخوان ، هى التى أدت الى تشريع الانفصام بين الفريقين ، ونمو الرغبة فى اللجم .. لكن على كل حال كان هناك مناخ عام متشابك يدفع البورجوازية فى اتجاه التقييد ومن هنا نشأت وزارة الشئون عام ١٩٣٩ ، وتلا ذلك أول **قانون موحد للجمعيات عام ٤٥ ، ووصل الامر الى الحد الذى أصبح فيه قانون الجمعيات أخطر من قانون الطوارىء** .. ومن المستحيل كما يقول د . سعيد أن يقوم مجتمع مدنى حقيقى ــ اذ لا مجتمع فى الدنيا بلا شبكة تنظيمات قاعدية متنوعة ــ مع بقاء هذا القانون ويضيف : لاجل هذا قررنا فى المنظمة المصرية لحقوق الانسان ، بالتنسيق مع المنظمة العربية الأم ، أن يكون عام ١٩٨٩ هو عام النضال ضد هذا القانون الجائر ، والدعوة الى تنسيق المواقف كذلك مع كافة القوى الوطنية والديمقراطية ، ببرنامج ، للمؤتمرات والندوات والمناقشات ، فى اتجاه تحرير المبادرات الجماهيرية من القيود السياسية والادارية ، وابدال قانون الجمعيات بقانون يتعلق فقط بمراقبة جمع المال من قبل جهاز المحاسبات وحماية الآداب العامة .. ومن ناحية أخرى يقول **د . سعيد اننا بحاجة كذلك الى « المثقف العضوى » القادر على التصدى لقضية التنظيم من منطلقات وطنية ديمقراطية ، وباعتبارها قضية الحلقة المفقودة لوصل المبادرات الصغيرة والتى بلا تراكم** بعمل ابداعى كبير للنهوض الجماهيرى ، مع اهمية تنويع معالجة قضية التنظيم ، فليس من المعقول أن يظل سيف ٣٢ مسلطا على الجميع وبنفس الكيفية من دفن الموتى الى الدراسات الجغرافية !؟ ، كما أنه يمكن ابتكار أشكال تنظيمية وتمويلية جديدة ، وعلائق مع المنظمات النقابية وشبه النقابية مستحدثة ، لفك هيمنة الدولة على هذا النشاط ... **عندما نتكلم عن الغاء ٣٢ فاننا نتكلم عن هدف هو رأس الرمح فى أى عمل ديمقراطى ..**

هكذا انتهى د . محمد سيد سعيد من القول .

بعد هذا المنظور العام ، ونأسف لاستخدام كلمة « المنظور » نأتى الى التفاصيل ولتتحدد الاسئلة :

●● هل هناك علاقة بين تطور النظام السياسى والاقتصادى فى مصر وبين تشريعات تنظيم العمل الطوعى الاجتماعى ؟

●● وإلى أى حد انعكست تلك العلاقة على العمل فى المجال الطوعى الثقافى ؟ وما مدى تأثير التشريع الاجتماعى على النشاط الثقافى بكل تفاعلاته الجدلية ؟

●● وما هى المقترحات المحددة للخروج من عصر ثقافة « د . آمال عثمان » الى الثقافة الحية والحرة والخلاقة ؟

و ... عشرات الاسئلة الفرعية عن المحرمات والاجراءات فى القانون ٣٢ ، وعن دور وزارة الشئون وحل وربط الجمعيات ، وعن الاعانات والمنح و ... و ... يمكن أن تحيا بين السطور طالبة الاجابة .. والمجيب .

الاجتماعى والـ « بور .ا جوا »

. تزامن ظهور العمل الاجتماعى فى مصر ، مع بدايات تبلور البورجوازية المصرية ، بخليطها المحلى والاجنبى ، بعد منتصف القرن التاسع عشر . وفى هذا الاطار نشأت الجمعية اليونانية ، وجمعية الارمن ، وجمعية العروة الوثقى ، والجمعية الخيرية الاسلامية ، وغيرها ، كتعبير عن احتياج موضوعى لوجود حلقات وسيطة فى هرم الدولة القومية الآخذة فى التبلور ، وكرد فعل من ناحية أخرى للفوران الاجتماعى والثورى فى الطبقة الوسطى المصرية . وكان يكتفى فى ذلك الوقت باخطار الجهة المعنية بقيام الجمعية ، دونما حاجة الى اعتراف من الادارة ، أو حتى استئذانها قبل القيام .

وفى عام ١٩٠٣ شهدت محكمة مصر جلسة عاصفة عند نظر اعتراض جهة الادارة على قيام احدى الجمعيات ، وأصدرت المحكمة حكما هاما فى ٢٥ يونيو ، يلخصه نجاد البرعى المحامى فى كونه قد أكد أن الاعتراف بقيام الجمعية نوعان: صريح وضمنى .. والاعتراف الضمنى معناه أن تظهر الجمعية بنشاطها دون معارضة ، وأنه مادام الغرض مشروعا فلا يلزم اعتراف الحكومة بالشخصية المعنوية للجمعية ، وانما تكتسبها الجمعية - كالطفل - بحكم ميلادها فى الحياة، وتوليدها لارادة تعبر عن مصالح اصحابها... وكان هناك حكم آخر فى قضية كانت مشهورة وقتذاك باسم قضية النادى السعدى. وتولد لدى الجمهور العام شيئا فشيئا شعور بأهمية حق الناس فى تكوين جمعياتها دون وصاية ، وجاء دستور ١٩٢٣ ليتوج النضال الشعبى فى هذا المجال ، بالنص على حق المواطنين فى تكوين جمعيات ، وحق الجمعيات ذاتها ووحدها فى تكوين احزاب ، ولم ينص على الحق فى انشاء الاحزاب ، اكتفاء بالاول ، وتعظيما لاهمية الجمعيات كمدرسة للمبادرة الشعبية . وفى الوقت الراهن اجمع كل المتحدثين على ان ما يجرى الآن فى مصر انقلاب بزاوية ١٨٠ درجة .. اذ ليس من حق الجمعيات طبقا للجريمة ٣٢ لسنة ١٩٦٤ العمل بالسياسة أو المجادلة فى الامور الدينية ... بل ويكاد الامر يصل الى حرمان الاحزاب السياسية ذاتها ، التى تخضع هى الاخرى لقانون الاحزاب - الساداتى - من العمل بالسياسة !!

ويكشف نجاد البرعى ، باعتباره احد المحامين المترافعين لدى القضاء الادارى ، ضد قرار الشئون الاجتماعية برفض اشهار الفرع المصرى لمنظمة حقوق الانسان ، الذى تأسس عام ١٩٨٤ ، عن وثيقة خطيرة عبارة عن خطاب موجه من اللواء جمال زهران مفتش مباحث أمن الدولة بالجيزة ، الى **قسم مكافحة جرائم الآداب ، بمديرية أمن الجيزة ، يطلب فيه رأيه فى امكان التصريح بقيام جمعية حقوق الانسان من عدمه ، ورد عليه بوليس الآداب بالرفض فأحاله الى الشئون ، وعملت الوزارة به ، والخطاب مؤرخ فى ٦ أكتوبر ١٩٨٧ ، ولا حاجة للتعليق عليه .**

ويهون نجاد البرعى ان الادارة فى مصر « تتلكك » بأوهى الاسباب ، متذرعة بالقانون ٣٢ لرفض اشهار الجمعيات التى ترى فيها ما يخيف مصالحها . ومن ذلك التعلل برفض جمعية حقوق الانسان لوجود جمعية بنات الاسم فى الاسكندرية .. وكأن كل ما يرِد فى تقرير منظمة العفو الدولية عن مصر ، وكل ما نراه بأعيننا صباح مساء ، من انتهاك للحريات ، يكفيه وجود جمعية واحدة !

ويضيف نجاد ، وقد كان مستشارا قانونيا لجمعية اصدقاء الاعلام العربى المحلولة ، والتى كانت تصدر عنها جريدة « صوت العرب » الناصرية : ان المباحث قامت بتشميع المقر حتى قبل صدور قرار وزيرة الشئون بحل الجمعية ، والطريف ان الارتباك ساد فى دوائر موظفى الشئون ، بعد ما ألمح الرئيس الى خروج الجمعية عن مجالها ، بتعرض صحيفتها لرئيس دولة عربية ، ولم يكن أحد يعرف هل تتبع الجمعية الجيزة أم القاهرة ، وسأل مسئول الشئون بالجيزة فتأكد أن الجمعية تقع فى نطاق القاهرة ، وبعدها بقليل سأله ضابط أمن الدولة : ايه اللى يحصل عندكم ده ؟ فأجاب بزهو : يا باشا احنا جمعياتنا كلها تمام لا بتتكلم فى السياسة ، ولا فى الديمقراطية !

ويقول نجاد البرعى ان القانون ٣٢ ينص على ضرورة الحصول على موافقة « ست » جهات فى الامن والشئون والمحافظة لقيام الجمعية ، وعلى الانتظار لمدة شهرين حتى تقرر الجهة الادارية رأيها ، وعلى ألا يقل عدد الاعضاء عن عشرة ، مع وجوب ان تقدم الجمعية عشرة نسخ من عقد التأسيس ، يحمل ثلاثة منهم توقيعات رسمية ، وعشرة نسخ من كشف اسماء المؤسسين ، موضحا قرين كل منهم : الاسم الثلاثى واللقب والسن والديانة والجنسية والمهنة ومحل الاقامة ..

وعشرة نسخ من أعضاء مجلس الادارة .

وعشرة نسخ من محضر اجتماع المؤسسين .

وعشرة نسخ من محضر اجتماع مجلس الادارة ، أما إذا اريد أن تكون الجمعية مركزية ، على مستوى القطر ، فهذا يتطلب دورة اخرى كاملة بين الجهات الادارية مرة ثانية ! لكن العجيب مع كل ذلك ان جمعية مثل جمعية ربات البيوت فى المعادى ، اشهرته فى ٢٤ ساعة ، وتقررت لها الاعانة فى نفس اليوم .. فقط لان « الرئيس » اشاد بموقف عضواتها من مقاطعة اللحوم .. كما انها تضم « صفقة » مناصرات الوزيرة فى الحزب الحاكم ؟! هكذا يشير البرعى .

جسارة « التفسيرية »

ومن العجيب أن المذكرة الايضاحية (التفسيرية) . للقانون ٣٢ كانت تتحدث « بجرأة » عن حق تشكيل الجمعيات الذى كفله الدستور ، وعن الحاجة لتعديل القانون فى ضوء مبادىء الميثاق الوطنى والنظام الاشتراكى ، ونظام الادارة المحلية المستحدث ، وتمشيا مع اهداف الثورة الاجتماعية وبناء المجتمع الاشتراكى ، وتعدد المذكرة المزايا التى استحداثها القانون والتى منها : عدم جواز العمل فى اكثر من ميدان الا باذن ، وحق الادارة فى رفض شهر الجمعية لتكرارية نشاطها ، ولمنع الازدواج ، وعدم جواز قيام النقابيين — مهنيون وعمال — بانشاء جمعيات او روابط تقوم بادوار النقابات ، والاعفاء من بعض الرسوم الجمركية والمحلية ، وتخفيض ٢٥٪ فى اجور المواصلات والكهرباء والاعلانات ، وجعل سلطة حل الجمعية فى يد وزيرة الشئون ، مع حقها فى حل مجلس الادارة وتعيين مجلس مؤقت لمدة ثلاث سنوات . هذا جانب « المزايا » .

وعلى الجانب الآخر يقول د . اسماعيل صبرى عبد الله ، عضو مجلس ادارة جمعية الاقتصاد والتشريع السياسى ، باوضح عبارة : لا يستطيع منصف أن ينكر ان حكومة الثورة ، كانت تنظر بعين الشك لكل نشاط لا يكون فى حضن الاجهزة ، ويؤكد على اهمية ما قام به القطاع الاهلى من خدمات فى مجالى التعليم والصحة بالذات — كانشاء

الجامعة المصرية والمستشفيات المعروفة — ، كما يؤكد على حق كل مجموعة من الناس فى انشاء الجمعية التى يرغبون ، دون اجراء، سوى الاتفاق الذى يلزم اعضاء الجمعية ولايلزم سواهم ، مع اكساب الاتفاق حجيته بالاعلان عنه ، وينظم القانون عادة اجراءات هذا الاعلان ... ولكن بعكس المنطق المقبول والدساتير السائدة ، والمواثيق الدولية التى وقعت عليها مصر ، جاء القانون ٣٢ ليضع كما يقول د. اسماعيل شروطاً عجيبة لقيام الجمعية ، منها النص الذى يحرم أى جمعية من الوجود الا اذا حصلت مسبقا على موافقة جهة الادارة ، بل وخول البيروقراطية حق اعداد « نظام أساسى نموذجى » تخضع له كل الجمعيات حال الشهر ، بصرف النظر عن طبيعة نشاطها ... وغير ذلك من القيود المعروفة ...

الادارة على قلبك وقلبى .

وليس من قبيل المصادفات ان يتواكب نشاط العمل الاجتماعى ، مع بروز الحركة التعاونية فى مصر، على يد راعيها الاول عمر لطفى ، فى بداية القرن العشرين ، وان ينتهى الامر بالاثنين ، الى التبعية الكاملة لجهاز الادارة ، حيث اصبحت التعاونيات هى الاخرى ملحقيات تنفيذية بالوزارات المختصة ، بل وتعرض بعضها للعصف التام مثلما حدث مع الاتحاد التعاونى الزراعى على يدى انور السادات ، متوجا بذلك صفحات « نضاله » لتمرير كتاب « الحافز الفردى » و « العرض والطلب » « المقدس » !!!

●وقد سبق قيام وزارة الشئون الاجتماعية فى مصر عام ١٩٣٩ ، ظهور عدة قوانين لتنظيم العمل الاجتماعى ، وأعمال المراهنات والنوادى والموالد وبيوت الدعارة ، الى ان كانت الحرب العالمية الثانية ، وشاعت عمليات النصب باسم العمل الخيرى لجمع المال ، وانتهزتها الحكومة فرصة ، واصدرت القانون ٤٩ لعام ١٩٤٥ ، ومعه بدأ عصر وجوب تسجيل الجمعية فى الشئون ، ونشر قرار التسجيل ، وحق الادارة فى الاشراف المالى والتفتيش ، ولكنه كان ينص على أن تلجأ وزارة الشئون للمحاكم الابتدائية ، اذا أرادت حل جمعية من الجمعيات ، وتم تعديل القانون عام ١٩٥٢ ليعطى الوزارة حق حل مجلس الادارة بقرار مسبب ، وتعيين مجلس مؤقت ، ثم صدر أول قانون موحد للعمل الاجتماعى عام ٥٦ ، وتوسع فى اعطاء الادارة صلاحيات الادماج والتوحيد والتعديل للجمعيات ، وحدد شروطا لعضوية مجلس الادارة ، وبعد ذلك كانت الجريمة ٣٢ .

فى الطريق يقول صلاح عيسى ، المؤرخ المعروف ، ان الدافع الحقيقى لقيام وزارة الشئون ، ومحاصرة العمل الاجتماعى ، كان زيادة نشاط جماعة « الاخوان المسلمون » التى أسسها حسن البنا عام ١٩٢٨ ، وقيامها بالعديد من الاعمال الخدمية الشعبية مما جعل النظام فى مصر باجنحته (السراى – الانجليز – الاحزاب) يتوجس من تحول العمل الاجتماعى الى نشاط مواز للدولة ، يشجع المواطنين على فسخ عقد الاذعان الذى يخضون بمقتضاه للحكومة ، فى أقواتهم وارزاقهم .

والحقيقة فان ٣٢ — الجريمة — ليس وحده فى ساحة ترسانة القوانين ، فى اطار العمل الاجتماعى ، فهناك نحو ١٧ قرارا جمهوريا ووزاريا ورئيس وزاريا ، تنظم هذا الميدان أيضا وتحدد أشكال اتحاداته ولوائحه ، ومواصفات الجمعيات العامة فيه ، والاصناف التى يمكن ان تستوردها الجمعيات وتخضع للاعفاء ، بل ويضع احد القرارات ١٤ شرطا واجب التوفر لسفر أحد اعضاء مجلس ادارة جمعية من خلالها الى الخارج !! ، كما يحدد قرار آخر ٩ سجلات يجب امساكها فى كل جمعية تمارس النشاط ، ويصل ثمن بعض السجلات الى ١٢ جنيها . لكن أخطر تلك القرارات فى حقيقة الامر إثنان :

— القرار الجمهورى رقم ٩١ لسنة ١٩٧١ ، بتخويل وزارة الحربية الولاية على جمعية المحاربين القدماء

وضحايا الحرب ، بدلا من الشئون الاجتماعية . وهو اعتراف صريح بأن خلط كل الجمعيات فى سلة الشئون أمر لا يمكن قبوله .

والقرار الثانى هو القرار الجمهورى الدورى ــ الذى يصدر كل عام ــ بتعيين رئيس لجمعية الاقتصاد السياسى والتشريع ، بناء على اقتراح وزيرة الشئون ، وقد حمل القرار هذا العام رقم ٣٧٧ ، وصدر فى ٨٨/٩/١٥ ، وتم بمقتضاه تعيين د . عاطف صدقى رئيسا للجمعية ، وكان مرشحا لرئاستها معه د . على لطفى ود . رفعت المحجوب . ووجه الغرابة فى ذلك ان جمعية الاقتصاد كانت قد عدلت لائحتها بعد صدور ق ٣٢ لسنة ٦٤ ، واستحداثه انتخاب رئيس الجمعية ، لتجعل من حق رئيس الجمهورية تعيين رئيسها بترشيح من وزارة الشئون ، وهو اغرب نص للائحة فى تاريخ الجمعيات فى مصر ، العلمية منها ، وغير العلمية .

ويقول د . اسماعيل صبرى عبد الله ان النص وقتها كان قد وضع من أجل اختيار د . عبد الحكيم الرفاعى رئيسا ، ويضيف : لم نكن نحتاج الى ذلك ، فقد كان د . الرفاعى رائدنا وأستاذنا ، وها هو قد رحل ، وبقى النص العجيب فى اللائحة ، ووصلت العبثية مداها فى استخدام اعضاء الجمعية للنص ، فى السنتين الاخيرتين بصفة خاصة ... والعابثون « أشهر » من أن يسميهم الانسان فى هذا الصدد . كما يقول ، لكن سكرتير جمعية الاقتصاد تلك يقول انه لابد من قواعد مستقلة للجمعيات العلمية تنزه العلماء عن لعبة الانتخابات (؟!) ، لان الانتخاب برأيه ان جاز فى عمليات التفويض فى الارادة السياسية ، فلا يجوز فى مجال الانابة العلمية ويدلل : هل يجرى الانسان انتخابا للطبيب (العالم) الذى يزمع ان يزوره للفحص ؟!

ثم يمضى الاستاذ غانم بلهجة تحمل بعضا من « برستيج » الارستقراطية المصرية ، التى نشأت الجمعية مع صعودها (عام ١٩٠٨) قائلا : هل ينتخب العلماء فى وكالة « ناسا » للفضاء .. فى مفاعل كذا للطاقة ؟ .. هنا علم والعلم رهبنة وتجرد وعطاء .. صحيح أن بعض الاساتذة قد تسول له نفسه ان يسرب امتحانا ، أو ينقل بحثا . وينسبه لنفسه ، لكن تظل ابسط الاشياء موضع استنكار بالغ .. ولقد ظلت جمعيتنا منذ أول رئيس مصرى لها ، وهو د . عبد الحميد بدوى باشا ، تختار رئيسها ولا تنتخبه ، والامر كذلك حتى الآن ، وان كنا نجرى الانتخابات شكليا لمطابقة القانون .. العالم متواضع لا مصالح له ، لدى ٢٠٠٠ عضو من العلماء الافاضل المتجردين فكيف نعرض اسماءهم على المدعى الاشتراكى ؟ وكيف مثلا اعرض حسابات الجمعية ، وامين صندوقها د . على لطفى ، على موظف فى الشئون ، ليقول لى : « ميزانيتك مش قانونية ؟! » .. هذا لا يليق .. هناك فرق بين جمعيات العلماء وجمعيات الرفق بالحيوان ونوادى القمار .. والعلماء لهم معيار ولحكم الشعوب معيار .. واختيارنا للرئيس لا ينبع الا من مكانته العلمية .



د . محمد السيد سعيد

د . اسماعيل صبرى عبد الله



● برأيك هل يا سيدى ينطبق ذلك على اصطفاء د . صدق من دون زميليه د . لطفى ود . المحجوب ؟

ــ طبعا .. طبعا .. ود . أمال عثمان نفسها عضوة لدينا ؟!

● وهل لا تمارسون السياسة ولا الجدل الدينى كما يقول القانون ؟

ــ « منقدرش » نلغى السياسة .. لكن فيه فرق بين الممارسة السياسية والعلوم السياسية .

● وكم مقدار الاعانة التى تتلقونها من الشئون ؟

ــ ٥٠٠ جنيه سنويا .. بعد عذاب .، هذا عدا اعانات ترد الينا من البنوك وغيرها .

● ولم لا يمول الاعضاء نشاط جمعيتهم واغلبهم بسم الله ما شاء الله يرتحون من العمل فى البنوك والمكاتب الاستشارية ؟

ــ العالم غلبان ... لقد رحل د . زكى شافعى ــ رحمه الله ــ دون أن يخلف مالا ولا ثروة ، بل وكان بدون سيارة فى حياته !

● وهل لكم نشاط آخر غير اصدار مجلتكم الفصلية ــ مصر المعاصرة ــ والندوات ؟

ــ بالمناسبة عدد يناير من المجلة لم يصدر بعد لنقص التمويل ، ونحن ننسق مع الجمعيات الدولية والامم المتحدة ، كما أن جمعيتنا ــ الفريدة فى المنطقة ــ عضو فى إتحاد الجمعيات الاقتصادية الدولية .

● وآخر جمعية غير عادية لكم ؟

ــ فى عام ٦٤ وكانت لاعادة شهر الجمعية طبقا للقانون ٣٢ بعد صدوره

● وقيمة الاشتراك السنوى ؟

ــ جنيه ونصف للعضو ؟

● وتقيمك لعمل جمعيتكم ، التى بدأت بمستشارى محكمة الاستئناف الاجانب ، قبل تمصيرها ، وانتهت بما هو جار الآن ؟

ــ يتزايد تأثير الجمعية فى المحيط العلمى بشكل ملموس ، وان كنت اشعر ان الجمعيات العلمية فى خطر ، ويجب فصلها عن الشئون الاجتماعية ، والحفاظ فقط على شكل بسيط وفعال من أشكال الرقابة على المال فى علاقة جهة الادارة بأى جمعية .

● **وبالنسبة للجمعيات الاخرى بشكل عام ؟**

ــ شوف : الدولة فى أى نظام لا تسمح بقيام أشخاص معنوية تحاربها .

قلت فى سرى هذا يكفى ومضيت .

ومعلقا قال د . اسماعيل صبرى : لقد كافحنا طويلا حتى اعدنا نظام الانتخاب الى العمادة فى الكليات ، واعجب ايما عجب من أولئك الذين لا يرون الانتخاب ملائما للعلماء ، تحت ستار الحفاظ على الهيبة العلمية ، ومن اذن سيحسن الاختيار بالانتخاب ، ما لم يكن العلماء قادرين على ذلك ، دون اخلال « بالهيبة » تلك ؟ . وحاسما يقول : لا بديل للديمقراطية ولا بديل للانتخاب ، وهذا لا ينفى تأييدى لضرورة الغاء القانون ٣٢ ، واصدار قانون ينظم فقط اجراءات اعلان قيام الجمعيات ، مع فصل جمعيات النشاط العلمى والفلسفى والثقافى عن سائر الجمعيات .

فرمانات الحل و« العقد » !

ونستطيع ان نتقدم اكثر .. ففى عام ١٩٨٧ وافق الاتحاد الاقليمى بالجمعيات بالقاهرة على اشهار ٣٩ جمعية ، ولم يوافق على اشهار ٣٧ جمعية ، ووافق على اعادة اشهار ٧٨ جمعية ، وعلى تعديل اشهار ١٧ جمعية ، ورفض حل جمعيتين ، ووافق على حل ١٣ جمعية ؟!

ومن المفيد أن نعرف « تفريدة » الجمعيات الموافق على اشهارها ، من حيث طبيعة النشاط :

فمن بين الـ ٤٩ جمعية ، ٢٣ للعمل فى مجال المساعدات الاجتماعية ، و ١٤ فى مجال الخدمات الثقافية والعلمية والدينية ، و ٦ فى تنمية المجتمع ، وواحدة فى رعاية الطفولة والامومة ، وواحدة رعاية شيخوخة ، وواحدة للنشاط الادبى ، وواحدة لرعاية الفئات الخاصة ، وواحدة للوقاية من الجريمة ، وواحدة لرعاية الأسرة .

وسوف يلاحظ القارى أن الوزارة تدمج « العلمية والثقافية والدينية » معا ، وتخصهم باتحاد نوعى ، من بين ١٤ اتحادا نوعيا ، بذات الاسم ، ورئيسه هو محمد عبد المقصود ، نفس رئيس الاتحاد الاقليمى .. وهو محام يرأس فى ذات الوقت عدة جمعيات منها جمعية المحافظة على القرآن الكريم .. وقد نعته « اعتماد خورشيد » بأفظع النعوت فى كتابها العفن ، لكنه نفى ما جاء فى كتابها لكاتب هذه السطور . وبشكل اجمالى فان « التفريدة » تؤكد الى حد صدق معادلة التخصيص الواردة فى أول التحقيق ، والتى تشير الى اتجاه اغلب الجمعيات للعمل فى النشاط الدينى .. لأنه يلبى حاجة اجتماعية من ناحية .. ولكونه الاكثر جذبا للأموال والهبات والمساعدات من ناحية أخرى ، وفق ما يرى خبراء الجمعيات فى هذا الصدد . وننوه الى أن عدد عدد الجمعيات الثقافية بالمفهوم « الليبرالى » للكلمة ضئيل جدا ، وانه يجرى ــ للخلط ــ تسجيل مئات الجمعيات فى بند العلمية والثقافية الدينية ، ولننظر مثلا هذه الارقام فى سوهاج حيث يبلغ عدد الجمعيات المشهرة فى المحافظة نحو ١٨٥ جمعية بنهاية عام ٨٧ ، منها نحو مائة جمعية اسلامية فى اغرض متعددة ، وهى مسجلة غالبا فى خانة العلمية والثقافية والدينية ، و ٧٠ جمعية قبطية كذلك ، و ١١ جميعة ثقافية بحتة ، فيها ٨ جمعيات لرواد الثقافة (بالعسيرات وجرجا وطما والمنشاة وطهطا وساقلته وأخميم وسوهاج) وجمعية واحدة للادباء بشندويل ، والجمعية الثقافية القبطية ، وجمعية الثقافة الاسلامية بالعزيزات .

وباقى العدد جمعيات لرعاية المرضى والمسجونين . أرأيتم كيف ينكشف الامر بالنسبة لعدد الجمعيات الثقافية « الليبرالية » مقارنة بالجمعيات الأخرى ؟ وليس هذا فحسب وقد سألنا احدهم اثناء اعداد التحقيق : لماذا لا يمارس المثقفون دورهم من خلال نوادى الأدب المنتشرة بقصور الثقافة ؟ ، وقبل أن انطق رد خالد الكيلانى المحامى ، والذى كان عضوا بنادى الادب بأبى تيج بأسيوط ، انه اكتشف باليقين ان مباحث امن الدولة دفعت بواحد من الموظفين/المرشدين لرئاسة النادى ، وكان ذلك الرئيس يشترى القصائد من الشعراء الشبان مقابل سجائر البلمونت وينشرها باسمه .. « ويتابع » نشاطهم فى البيت والشارع الى ان اصيب بلوثة ، وترك العمل ، ليعمل ممرضا لدى احد الاطباء ويفضح المباحث ... فهل مع هذا المنطق مجال للعمل فى نوادى الحكومة ؟!

التاجر والمبدع

وكان من بين كتلة الجمعيات المندغمة التى لم يوافق على اشهارها ــ ٣٧ ــ جمعية تسمى « مركز الدراسات العربية » ويقول مديرها حلمى شعراوى ــ أمين لجنة الدفاع عن الثقافة القومية فى ذات الوقت ــ : قضية حق الشعب فى اقامة تنظيماته قضية محورية فى برامج القوى التقدمية بشكل خاص ، وبغض النظر عن كل عوامل التعرية التى كشفت مستورا فى المناخ الثقافى ، أو سترت معيوبا ، فان تنظيم المثقفين المصريين بشكل ديمقراطى كفيل باحداث هزة قوية فى مجريات الامور .

ويضيف : عندما فكرنا فى اشهار مركز الدراسات كنا نتطلع الى منتدى بحثى علمى راق يكون قطبا للباحثين الوطنيين الجادين ، يأخذ عنهم ويمنحهم .. لكن واجهتنا صعوبات جمة توجت برفض الشئون الاجتماعية اشهار المركز » واضطررنا لتسجيله كشركة توصية بسيطة ، بما يعنى ذلك من ملاحقات من الضرائب ومكاتب العمل والتأمينات وغيرها .. والمعروف أن القانون ٣٢ لا يتيح للجمعيات إلا اصدار نشرات خاصة بنشاطها ، كما أن التحول الى « الشركة » يوجب أن لا يقل الرأسمال عن ١٠٠ ألف جنيه لاصدار مطبوعة أسبوعية دورية ، و ٢٥٠ ألف لمطبوعة يومية .. أى ان الجريمة ٣٢ تنقلك كرها من مهنى الىٰ تاجر محترف ليقوى بذلك قانون الرأسمال حتى بين صفوف المبدعين .. وتنهار المقاومة ! ,

ويندد شعراوى باستخدام سلاح تشابه الجمعيات فى رفض اشهار الجمعيات الجديدة ، ويطالب بضم الجمعيات الثقافية الى وزارة الثقافة ، حيث امكانية الفهم أفضل ، ويرد على المبدعين بأن « كله عمل طوعى » كمبرر لاخضاع كافة الجمعيات للشئون بقوله : العمل الطوعى انواع .. ولا يمكن تسمية الابداع عملا طوعيا لمجرد انه مجانا !

وعن ارتباط الأوضاع السياسية بالتشريع الاجتماعى يقول حلمى شعراوى : كان ٣٢ يهدف الى وضع العمل الاجتماعى فى بوتقة الاتحاد الاشتراكى ، وتحت شعار توحيد توجهات قوى الشعب العامل وحماية مسيرته ، والآن تم تحويل الذمة الاقتصادية للبلاد الى الانفتاح الاقتصادى بكل ما ترتب عليه من تشريح المجتمع المصرى الى فئات متباينة المصالح والاحلام ، وفى ظل ذلك ليس من المعقول ان يسمح النظام بتعددية المراكز الاقتصادية ولا يسمح فى المقابل بالتعددية السياسية والاجتماعية .. لابد من الغاء ٣٢ وابداله بتشريع ينظم فقط عملية الاعلان عن الجمعيات ورقابتها ماليا ، خاصة المدعمة من الحكومة لطبيعة نشاطها .

أما محمد عبد المقصود فيقول ان المثقفين يفهمون فى الثقافة ، لكنهم لا يفهمون فى ٣٢ ، ويؤكد انه قانون ممتاز .. وان حل الجمعيات مرجعة عدم عقد جمعياتها العمومية .. او مجالس ادارتها .. بانتظام .. أو عدم قيامها بنشاطها .. ولا دخل للسياسة فى ذلك .. وان جمعية اصدقاء الاعلام العربى قد تم حلها لانها خرقت القانون .. ومنحت رئيسها مكافآت ضخمة ، ولم ترسل محاضر اجتماعاتها للاتحاد الاقليمى (نفى نجاد البرعى ذلك تماما وتحدى أن يجد المسئولون أى قصور فى الجمعية) . **ويبشر محمد عبد المقصود بعقد اجتماع قريبا لكل الجمعيات التى تصدر مطبوعات لتوعية رؤسائها بالفارق بين المطبوعة السياسية وغير السياسية ، حتى لا يتعرضوا لما تعرضت له « صوت العرب » وجمعيتها . ويطالب الجميع بأن يتقوا الله !**

« هيافة » ٣٢ والسذاجة المدهشة !

وتعليقا على المثقفين والجريمة ٣٢ تقول د . امينة رشيد نائب رئيس جمعية الادب المقارن ، معبرة عن دهشتها : كنت احسب ان انهاء شهر جمعية يعنى ان تمضى فى عملها وفق رغبة اعضائها .. لكننى افاجأ كل يوم بموظف الشئون الاجتماعية يقول لى :

ـــ لابد من كتابة محضر الاجتماع بالطريقة الفلانية .

ـــ خذى القدوة من محضر جمعية المحافظة على القرآن الكريم هذا .

ـــ لابد من كتابة الحاضرين والغائبين فى محضر مجلس الادارة .

ـــ .... وكتابة اسم الجمعية هكذا (يريها) .

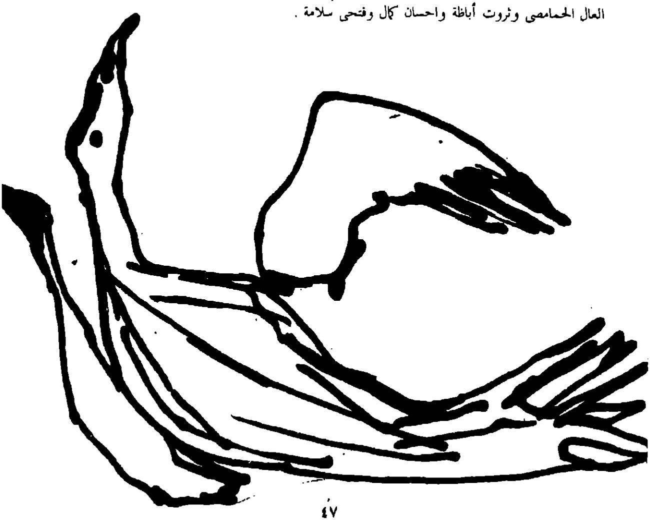
ـــ واخطارنا بالجمعية العمومية قبل انعقادها بخمسين يوما .

لقد جعلنى الموظف مشوقة لمعرفة ذلك الـ ٣٢ الذى يحشر نفسه فى كل صغيرة وكبيرة الى هذا الحد ؟! ولابد ان نناقش هذا القانون فى منتدى مثل الدفاع عن الثقافة ، لنرى مايمكن عمله ازاء هذا التعقيد .

● وتذكرت عبارة سكرتير جمعية الاقتصاد والتشريع .. الصائبة : اذا كانت توكيلات الامة قد عززت مشروعية مطالبة سعد بالاستقلال ، أفلا يجوز ان تعمل جمعية وفقا لتوكيلات اعضائها دون وصاية المجلس الحسبى (مديريات الشئون) ؟!

مجلس بلدى القصة المصرية !

تأسس نادى القصة فى مصر عام ١٩٥٣ ، بادئا بعضوية ١٥ عضوا ، قفزوا الى ٥٠ مع نهاية الخمسينات ، وذاع صيت سلسلتيه اللتين اتفق مع مجلة روزا اليوسف على اصدارهما ، وهما الكتاب الذهبى ، والكتاب الفضى ، ونشر النادى أولى اعمال يوسف ادريس ارخص ليالى ، ثم جمهورية فرحات ، والحرام ، ونشر ليوسف الشارونى أولى أعماله « العشاق الخمسة » ، وجذب عشرات المبدعين اليه حتى تحول وقتها الى ما أسموه جامعة القاهرة الجديدة . وكان النادى ينظم مسابقة سنوية للقصة القصيرة ، كان يشارك فيها من ٥٠٠ الى ٨٢٠ قصاص ، فى أوج مجده ، واليوم ، وطبقا لآخر الأرقام فان ١٨٢ متسابقا هم الذين تقدموا من كافة الجمهورية لمسابقة النادى الـ ٣٢ عام ١٩٨٧ ، ولايتجاوز عدد اعضاء النادى ٦٠ عضوا ، منهم ١٥ أعضاء مجلس الادارة ، ويدفع العضو اشتراكا سنويا قدره فقط جنيه واحد ، بعد أن كان ستة جنيهات ، ولاتتجاوز الاعانة التى تقدم للنادى ١٠٠٠ جنيه سنويا ، والعجيب أن النادى محروم من التبرعات رغم ان الله فتح على كثير من أعضائه مثل جمال الغيطانى ويسرى العزب وعبد العال الحمامصى وثروت أباظة واحسان كمال وفتحى سلامة .



ويساهم النادى فى الوقت الراهن مع مجلة النصر للقوات المسلحة فى مسابقتها للقصة القصيرة ، كما ينظم كل عامين مسابقة للرواية ، ويصدر مجلة فصلية بهيئة الكتاب اسمها مجلة « القصة » يرأس تحريرها ثروت اباظة وهو فى نفس الوقت سكرتير عام الجمعية ورئيس لجنة المسابقات ... (ورئيس اتحاد الكتاب طبعا) وكان النادى قد بدأ فى شقة صغيرة بالتحرير ثم تدخل جمال عبد الناصر فى منتصف الخمسينات فانتقل الى شقة قصر العينى ، ويعانى النادى من سداد ايجارها (٤٠ جنيها شهريا) بعد ان توقفت اعانة الايجار التى كان يدفعها المجلس الاعلى للثقافة له ؟!

واذا ما تركنا تقييم دور النادى الآن وفقا لاهدافه المعلنة : خدمة القصة واعلاء شأنها ، تحقيق الصلة والتعارف بين القصاصين ، النشر على اوسع نطاق ، ابراز الناشئين الموهوبين .. تحقيق اتصال المبدعين بالسينما والمسرح والاذاعة .. حتى لا يحمل ذلك على محمل الخلاف الدائم والطبيعى بين اليسار وبين الاستاذ ثروت اباظة فسوف نلاحظ ملاحظة غاية فى الخطورة ألا وهى :

ــ اقترنت رعاية جمال عبد الناصر ويوسف السباعى للنادى بتحويله الى نادى فى اطار الجمعيات العامة ، اى لا يجوز مع وجوده تأسيس نادى للقصة ثان ، فى القاهرة ، واكتفى النادى منذ انشائه بافتتاح فرع آخر له فى الاسكندرية ، يترأسه الآن أديب قليل الحيلة والموهبة هو فتحى الابيارى .. وقد انحدر مستوى الابداع فى النادى الى درك قال معه الشبان الذين حضرت بينهم ندوة الاثنين بالنادى يوم ٧ ديسمبر ، انه لا يمكن لعاقل ان يستمر فى قراءة مجموعة كاملة منه .. لكن الاهم من ذلك ان المشرفين الاداريين للنادى ، وللحق يقومون بعملهم بصورة مشرفة ، تشكرهم عليها وزارة الشئون اثر كل تفتيش ، لفتوا نظرى الى ان النادى كان فى اوج ازدهاره حتى بداية الستينات بالتحديد ، وقد ارتبط ازدهاره بولوج اسماء مثل د . ادريس ونعمان عاشور والشرقاوى ود . لويس والسعدنى والشارونى حتى ان سلسلة الكتاب الذهبى كانت توزع فى العدد الواحد ١٥ ألف نسخة ، وهو مالا يمكن أن يحققه أعظم الادباء فى الوقت الراهن . وبالتأمل فى أعضاء مجلس ادارة النادى سيرى الرائى بسهولة انها قائمة « مغسولة » من أى وجود يسارى وطريقة الغسل كما علمت تسير وفق ذات الطريقة التى اتبعها ثروت اباظة فى اتحاد الكتاب بالاستبعاد من خلال لجنة القيد وقد اتجه كل الكتاب اليساريين من الشباب والكهول الى منظمات اخرى اكثر ديمقراطية وفعالية مثل اتيليه القاهرة ، ودور النشر التقدمية المعروفة والذى لا يصدق ما نقول عليه يتجرع حضور ندوة الاثنين فى النادى ، وبانتظار تعليقه .

وقد تجولت الزميلة رضا توفيق بين دار الادباء وجمعية الدراسات التاريخية وجمعية الرابطة الاسلامية وعادت لتكتب لنا هذا التقرير :

ــ كان يدور فى ذهنى نكتة ترددت قبل الشروع فى المقابلات ، مفادها ، ان اتحاد مصر وسوريا ، قد تم حله ، ليس بسبب مواقف القوميين والبعثيين والشيوعيين كما قال الاستاذ هيكل فى سنوات الغليان ، ولكن لانه لم يكن مشهرا فى وزارة الشئون الاجتماعية طبقا لقانون الاتحادات والجمعيات !

وفى دار الادباء بشارع القصر العينى قال د . يسرى العزب عضو مجلس الادارة وعضو اتحاد كتاب مصر : ان مؤتمرات الادباء تلح منذ ٨٤ على نقل تبعية الجمعيات الثقافية لوزارة الثقافة (؟) ومرارا قالت لنا د . امال عثمان ان المسألة ليست فى يدها وانما بيد القانون ٣٢ الذى يلزم تغييره . وقال د . يسرى ان « الدار » تحتاج الى ترميم مبناه منذ عشر سنوات لكن التناقض بين الوزارتين ، فى الولاية على الجمعية ، يعرقل تخصيص ميزانية لهذا الغرض .

ومعروف ان أول رئيس لدار الادباء كان د . طه حسين ، وان رئيسها الحالى ثروت اباظة الذى لا يحضر الى الجمعية خلال مدد تصل الى شهور .

* * *

وعن الفرق بين نشاط الجمعية منذ إنشائها عام ١٩٥٨ والآن قال يسرى العزب : كانت الجمعية فى الماضى تصدر مجلة الادباء العرب كما اصدرت كتابين فى الشعر والقصة فى نهاية الستينات .

أما فى الفترة الاخيرة فقد انخفضت الميزانية ــ وخاصة ــ بعد وفاة يوسف السباعى فلم نستطع غير القيام بتنظيم موسم ثقافى سنوى فى الفترة من اكتوبر الى ابريل نقيم خلاله ندوة كل أسبوع لمناقشة آخر الاعمال الادبية والنقدية التى ظهرت خلال الموسم .

كما تقيم امسية شعرية أول كل شهر يتبادل فيها الشعراء انتاجهم وكان يوجد حديقة وكافتيريا أما الآن فلا يساعد المبنى المتهالك على إستئناف هذه الخدمة اللازمة للادباء ، وتصل قيمة الاعانة ٥٠٠ جنيه سنويا .

وتتأخر الاعانة أحيانا نصف دستة من الشهور حتى تصل !

ويبلغ عدد الاعضاء ٢٠٠ عضواً .

وكان من اعضاء هذه الجمعية يوسف السباعى ، الفريد فرج ، ابراهيم الوردانى ، عبد الرحمن الشرقاوى ، عبد القادر القط ومن الاعضاء الحاليين صاحب جائزة نوبل الاديب نجيب محفوظ وهو من الاعضاء المحافظين عى دفع قيمة الاشتراك السنوى ــ ٢ جنيه ــ ولكنه لا يحضر إلى الجمعية .

أما جمعية الدراسات التاريخية والتى يرأس مجلس ادارتها د . ابراهيم نصحى استاذ التاريخ بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، فتواجه عدة عقبات من أهمها كما يقول د . صلاح العقاد عضو مجلس ادارة الجمعية علاقتنا باتحاد المؤرخين العرب ومقره بغداد .

وهو يرى أن هذه الجمعية أولى أن تكون مقرا لهذا الاتحاد لان مصر بها أكبر تجمع من مؤرخى التاريخ لا يضمه أى بلد عربى آخر ويضيف ــ ان هذا ليس تحيزا ولا تعصبا ، ولكن الذى يباعد بيننا وبين هذه المكانة هو نقص الموارد المالية المتوفرة للاتحاد من العراق خاصة ومن دول الخليج عامةً .

واستطرد د . صلاح أن بسبب نقص الموارد المالية ايضا لا تستطيع الجمعية القيام ــ بنشاط ويقتصر نشاطنا على اقامة ندوة بصفة دورية والغاء بعض المحاضرات وطبع كتيب سنوى .

وينتقد د . صلاح تبعية الجمعية لوزارة الشئون ويؤكد أن الاوضاع الحالية جعلتها عاجزة عن جذب أعضاء جدد ، بل أن اشتراك الجمعية الذى قفز من ٦٠ قرشا عام ١٩٤٥ عام الانشاء الى خمسة جنيهات ، أصبح وكأنه عقبة هو الآخر فى وجه الاعضاء المتطوعين ! ولم يعد يحضر للجمعية سوى طلبة الدراسات العليا للاطلاع فى المراجع .

وقال ان الاعانة السنوية وقدرها ٣٠٠٠ جنيه لا تكفى لمتابعة شراء الاصدارات الحديثة الهامة . ويقول رفعت محمد أمين صندوق الجمعية أن الجمعية ليس لها نشاط سياسى ، والدليل على ذلك ان الاعانة تصلها سنويا دون انقطاع ؟

أما جمعية الرابطة الاسلامية فانشئت فى ١٩٤٠ بهدف تحفيظ القرآن وتنظيم الرحلات الى الأماكن الدينية ، والحج ، واقامة الندوات .

وقال محمود حسنين الكاشف وكيل رئيس مجلس الادارة ان نشاط التحفيظ قد توقف لعدم وجود متطوعين ، وكذا توقف الحج ، وتوقفت الرحلات وبقى من نشاط الجمعية ندوة الاحد ، ويشير الى أن الادباء الكبار مثل أبو بثينة ومحمد التهامى !، لم يعودوا يداومون على القاء شعرهم فى الجمعية .

تأثير الثورة الفرنسية على نشوء الطبقة العاملة المصرية الحديثة

عطية الصيرف

شروق من الغرب

لا أغالى إن قلت ان مصر المملوكية والتركية قد طلع على ربوعها شروق من الغرب فبدد ظلامها الدموى والوحشى حيث كان يسودها وتتخذ قتل الانسان للانسان مصحوباً باستغلال الانسان للانسان وإهانة الانسان للانسان . فالخيال المملوكى والتركى لايصول فى جنباته غير سيف لامع وخيال مشنقة تترنح بما تحمله وخازوق يئن عليه إنسان وسجين يصرخ من الجوع حتى يأكل نعاله وأطرافه وقناطر مقنطرة من الذهب وأفخاذ جارية بيضاء أو أرداف صبى مكتنز اللحم .

يقول صبحي وحيده ــ إن المجتمع المصرى في هذه الأيام مجتمع تغلب عليه فكرة الحرب ــ الداخلية ــ حرب المسلمين للنصارى وحرب المغل ــ المماليك والأتراك ــ للمسلمين وحرب المماليك بعضهم بعضاً ــ بالإضافة إلى حرب المماليك للإتراك ــ وكل هذا يتم في وحشية كئيبة وسط فوضى بدوية لاتوصف وبكثرة عجيبة حقاً .

ويصف أميل لودفج أحوال مصر المملوكية فيقول ــ ومع ذلك يقع في مصر أمر لامثيل له سابقاً. فللمرة الاولى يقبض العبد لا الفلاح على زمام أمور مصر ويظل ابن البلد التعس تابعاً مصرياً ويصل المماليك آى العبيد من اسيا ولم يحدث أن رأى النيل مثل ذلك المنظر وكثير من المماليك الذين حكموا ثلثمائة سنة ولدوا عبيداً .

ثم حكم البشاوات الاتراك مصر مشاركة مع الأمراء المماليك بعد غزو السلطان سليم العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ فزاد قتل الانسان للانسان ونهب الانسان للانسان فحصل للحرفيين والفلاحين غاية الضرر لشيوع السخرة وترحيل الصناع الى تركيا ونهب محاصيل الفلاحين وقد صاحب ذلك تفشى عقوبة الخوزقة من الدبر والأضلاع حتى ان الأطفال كانوا يلعبون لعبة الخوزقة ومات طفل بواسطة أقرانه الذين خوزقوه عنوةً على الخازوق . ويقدر عدد الذين قتلهم خايربك نائب السلطان العثمانى عشرة آلاف إنسان كما قال بن إياس .

ملحوظة لابد منها

كاتب هذا المقال واحد من أبرز قيادات الحركة النقابية العمالية المصرية ، منذ بداية الخمسينيات وهو يجمع إلى ذلك الاهتمام بالنشاط السياسي بحث ودراسة بعض الظواهر التاريخية ، التي صدرت في عدد من الكتب التي نشرها .

وتنشر « أدب ونقد » ، وجهة نظره الواردة في هذا المقال ، متحفظة على المعنى العام الذى يوحى به ، بهدف اثراء المناقشة حول قضايا تاريخنا القومى .

وربما كان محور الخلاف الرئيسى ، هو التعميم الذى ذهب إليه المقال ، فاعتبر الحملة الفرنسية ، شروقا من الغرب ، وعملاً يستهدف تصدير الثورة إلى مصر ، وهى فكرة إذا كانت قد ناوشت بعض الليبراليين الرومانتيكيين وخاصة كتيبة العلماء والفنانين الذين صاحبوا الحملة ، فمن المؤكد أن المشروع كله ، كان جزءاً من الصراع بين دول أوربا الرأسمالية ، وخاصة فرنسا وانجلترا ، على الحصول على الأسواق ، والمواقع الاستراتيجية ، وأن أحد أسبابها الأساسية هو تحريض التجار الفرنسيين في القاهرة .

ويبقى أن نؤكد أن للظاهرة الاستعمارية — دائما — تأثيرات جانبية ، تكون أحيانا مفيدة ، من بينها أنها تخلق نقيضها من الطبقات والأفكار ، وأن محاولة تطويع أى بلد لكى يصبح بلداً تابعا ، تخلق نقيضها من الطبقات والأفكار ، وليس معنى هذا أن الظاهرة الاستعمارية ايجابية ،وهى فكرة لانظن أن الزميل عطية الصيرفي يوافق عليها .

والمقال — بعد هذا مطروح لمن يهتم النقاش حول ماورد به من أفكار .

« أدب ونقد »

وللأسف فإن مشايخ الأزهر كانوا سدنة للاقطاع المملوكى والتركى حتى تحولوا إلى شيوخ اقطاعيين مثلهم مثل الأمراء المماليك والبشاوات الاتراك ويصفهم الجبرتى بأنهم يأخذون الجمالات والهدايا واكثروا من شراء الحصص واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان وأجروا الحبس والتعذيب والضرب بالفلكة والكرابيج .

كل هذا البلاء المبين أدى إلى ظهور علاقات إنتاج إقطاعية بها سمات العبودية والوحشية حيث كان استغلال الصناع والحرفيين بشعاً مما اضطرهم الى الهجرة من الحرفة والصنعة الى حد عدم العثور على نجار لإصلاح الضبة الخشبية للباب كما ان استغلال الفلاحين كان أشد بشاعة ففرض عليهم غرامة الوجبه للجباه عندما يحضرون الى القرية لتحصيل الديون الحكومية المتنوعة وغرامة البطالين أى اكراه الفلاحين على السخرة بدون أجر .

ويلخص لنا صاحب هز القحوف فى تفسير قصيدة أبى شادوف مظاهر استغلال الفلاحين فى الأبيات التالية :

ومن نزلة الكشاف شابت عوارض ... وصار لقلبى لوعة ورجيف
ويوم يجيى الديوان تبطل مقاصلى ... وأهرُ على روحى من التخويف
ويوم تجى العونة — السخرة — على الناس ... فى البلد تنجينى فى القرن أو طيف

ويؤكد الجبرتي ذلك الاستغلال الاقطاعي ومردوده فيقول وانقضت هذه السنة أى سنة ١١٩٨ هـ كالتى قبلها فى الشدة والغلاء وتواتر المصادرات والمظالم من الأمراء وانتشار أتباعهم لجلب الأموال من القرى والبلدان وإحداث أنواع المظالم حتى اهلكوا الفلاحين واشتد كربهم وطفشوا من بلادهم . وصار بيت المال من جملة المناصب التى يتولاها أشرار الناس فحل بالناس ما لايوصف من أنواع حتى خرب الاقليم وجلت الفلاحون من بلادهم من الشراق والظلم - وانتشروا فى المدينة يصيحون من الجوع ويأكلون مايتساقط فى الطريق من قشور البطيخ وغيره ولايجد الزبال شيئاً يكنسه واشتد بهم الحال حتى اكلوا الميتة من الخيل والحمير فإذا خرج حمار ميت تزاحموا وقطعوه وأخذوه ومنهم من يأكله نيئاً من شدة الجوع ومات كثير من الفقراء بالجوع .

هذه هى علاقات الانتاج الاقطاعية ومردودها الاقتصادى والاجتماعى على الحياة المصرية فى نهاية القرن الثامن عشر مما دفع الثورة الفرنسية إلى تصدير الثورة لمصر كضرورة عاجلة من خلال الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨ التى كانت بمثابة شروق من الغرب

شروق مستهدف ...

كان الشروق المشار اليه عملاً مستهدفاً ومبادرة واعية من الثورة الفرنسية باعتبارها ثورة الرأسمالية الفتية محتوماً .. فالفعل الثورى الفرنسى وقتئذ قد تنبه إلى ضرورة تصدير الثورة فوراً الى مصر لا لانها تملك التاريخ والجغرافيا والزرع والحرفة والصنعة بل لأنها قلب الشرق العثمانى وواجهة الاستبداد الشرقى والأرض التى يمكن أن يستزرع فيها علاقات إنتاج جديدة وطبقة عاملة حديثة الأمر الذى يؤدى الى زواج الشرق بالغرب كما نادى بعد ذلك سان سيمون .

ومن هنا فلابد من حدوث هذا الشروق الضرورى للأسباب السالفة الذكر ويفرض — وجود عزلة متيعة بين التحالف المقدس للمملوك والرجعية الأوربية المعادى للثورة الفرنسية وبين حليفه الرئيسى ممثلاً فى الشرق العثمانى واستبداده الشرقى المطلق وذلك حتى تستطيع الثورة تصدير نفسها وفكرها غرباً وشرقاً .

شروق يواجه الاقطاع ...

وقد استهل ذلك الشروق وجوده فى مصر بنزول الجيوش الفرنسية ومواجهتها المباشرة للإقطاع المملوكى والتركى وهزيمة عساكره هزيمة منكرة فى أقل من ساعتين من الزمن كما يقول الجبرتى . وبذلك استطاعت الحملة كثورة مصدرة دحر المماليك والأتراك الذين فروا أمامها كالجرذان مما أدى الى كنس أسطورة الفارس المملوكى وازاحتها من الوجدان المصرى .

ولم تكتف الثورة المصدرة بهزيمة المماليك وتصفية وجودهم الجسدى فى المعارك العسكرية بل واصلت تصفيتهم جسدياً بهدف القضاء على وجودهم السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى الحياه المصرية ففى يوم السبت من شهر شعبان سنة ١٢١٢ هـ قتل الفرنسيون بالقلعة نحو ستين نفراً وغالبهم من المماليك الذين وجدوهم هاربين فى البلاد وكان ذلك بمثابة بروفة لمذبحة القلعة التى كانت أشبه بجراحة المصران الاعور للجسد المصرى .

وكانت تصفية المماليك على هذا النحو تعتبر الضربة الرئيسية لعلاقات الإنتاج الاقطاعية السائدة فى مصر حيث استمرت الحملة الفرنسية فى هدم ماتبقى من تلك العلاقات وازالة أنقاضها من المجتمع المصرى بتمصير الادارة المصرية لأول مرة منذ عهد الفراعنة حيث دعا نابليون مشايخ الأزهر الى المشاركة فى إدارة شئون بلادهم فرفضوا قائلين — ان مصر أرض من السلطان ولايحكمها غيره — ثم دعاهم الى تولى الوظائف العامة فرفضوا أيضاً مرددين قولتهم المشهورة — ان العامة والسوقة لايخشون غير الاتراك وسياطهم . ومع هذا فقد عينت الحملة الشيخ العريشي رئيساً للقضاء المصرى بدلاً من القاضى التركى . كما عينت الشيخ محمد المهدى عضواً باللجنة المالية للحملة الفرنسية .

وحتى تتوارى الأسس الفكرية للتخلف فقد جاء الفرنسيون بالمطبعة وانشأوا المجمع العلمى الذى كان يضم ١٤٣ عالماً فى كل التخصصات العلمية وفتحوا أبوابه للمصريين لمشاهدة التجارب والدراسات العلمية المتعددة أدت الى فهم مفاتيح اللغة المصرية القديمة ومعرفة الحضارة المصرية العريقة .

كما أعادوا صياغة المجتمع المصرى صياغة حديثة بظهور القوانين الجنائية والمدنية وقوانين الملكية والمواريث والضرائب والحياة العامة . يؤكد ذلك محاضر التحقيقات الجنائية مع سليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر ، الأمر الذى يشير الى أن علاقات الانتاج الإقطاعية قد ذهبت أدراج الرياح .

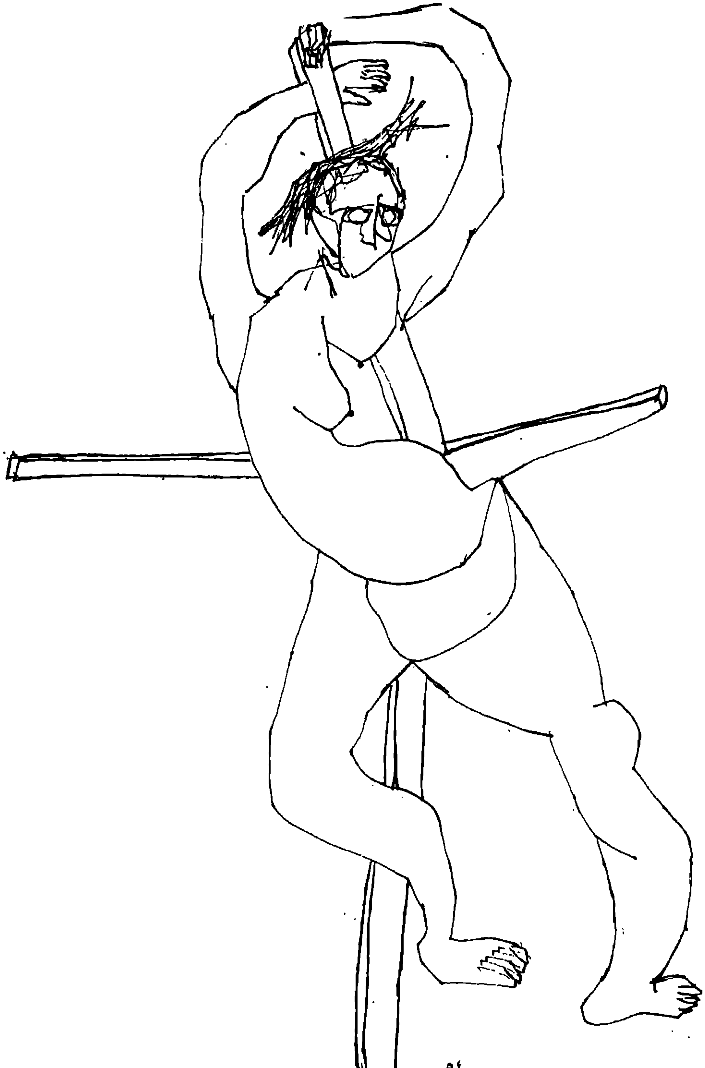
حياة برلمانية ديمقراطية :

وعلى أنقاض علاقات الانتاج الاقطاعية بدأت تظهر علاقات راسمالية جديدة نتيجة ظهور حياة برلمانية ديمقراطية لم يشهدها الشرق العثمانى حيث أسست الحملة الفرنسية الديوان العمومى الذى كان يمثل فى عضويته التجار والأعيان والمشايخ ومندوبى الأقاليم ، وقد اختص بمناقشة السياسة المصرية العامة . يقول الجبرتى — نبهوا على المشايخ والأعيان والتجار ومن حضر من الأقطار بالحضور الى الديوان وعندما عُقد الديوان قال الترجمان — نريد منكم يامشايخ شخصاً يكون كبيراً ورئيساً عليكم — فقال بعض الحاضرين الشيخ الشرقاوى فقال نو نو واتخاذ ذلك يكون بالقرعة بأوراق (أى بالانتخاب) فطلع الأكثر الشيخ الشرقاوى فقال حينئذٍ يكون الشيخ الشرقاوى هو الرئيس .

إصلاح زراعى مبكر .

كما اهتمت الحملة الفرنسية بالفلاح المصرى ومشكلة الأرض الزراعية ففى بيان النظام المالى المصرى قال نابليون ان الفلاحين المصريين يدفعون مبلغاً سنوياً قدره ٦٣ مليونا من الفرنكات لمجمل الجباه وذلك عيناً ونقداً ولهذا فالفلاح المصرى يتحمل العبء كله وكان لابد من انقضاء قرن ونصف قبل أن تبذل محاوله جديه للانتقال بالفلاح المصرى من مرتبة الحيوان الى مرتبة قريبة من الانسانية ..

كما فرضت مشكلة الأرض الزراعية نفسها على سلطة الحملة الفرنسية فى مصر بسبب خلو ثلاثة أرباع القرى المصرية من ملاك الأرض أو حائزيها نتيجة لقتل الكثير من الملتزمين المماليك أو فرارهم من



سلطة الحملة الفرنسية التى طرح عليها سؤال من مجموعة اشتراكية من ضباطها بقيادة الجنرال كفاريللى يقول ــ هل يمكن استغلال تلك الفرصة لإدخال إصلاح زراعى عام على ملكية الأرض الزراعية لجعل الفلاحين ملاكاً حقيقيين لهذه الأرض أم يختفظ بالنظام القديم ؟ ..

فالاشتراكيون من رجال الحملة الفرنسية قالوا إن هناك ٢٫٦ مليون فلاح من سكان مصر البالغ عددهم ثلاثة ملايين وان الاصلاح الزراعى سيحسن أحوال معاشهم تحسيناً هائلاً الامر الذى يضمن أيضاً عرفانهم بجميل فرنسا وان كبار الملاك لاجدوى منهم إطلاقاً من وجهة النظر المالية ..

ولكن المحافظين قالوا إن من حسن السياسة للحملة الفرنسية كسب ولاء الطبقة ــ الوسطى المالكة الراسخة لا الجماهير الجاهلة المتقلبة . وقد انتصر ذلك الرأى الداعى الى وجود اصلاح زراعى تحظى به الطبقة الوسطى فى مصر ..

قوى إنتاج جديدة :

بواسطة تلك الاصلاحات العقارية والعلمية والادارية والتمثيلية والزراعية استطاعت الحملة الفرنسية ان تكنس علاقات الانتاج الاقطاعية تمهيداً لظهور قوى إنتاج جديدة مصحوبة بعلاقات إنتاج جديدة فى وقت لايتعدى ثلاث سنوات وواحد وعشرين يوماً تخللتها واقعة تحطيم الأسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير البحرية وفشل حملة نابليون على عكا وثورات المصريين ضد الحملة فى الريف والمدينة دفاعاً عن الأرض المصرية فور هروب المماليك الجرذان امام جيوش الحملة الفرنسية ..

وفعلاً فقوى الإنتاج الجديدة قد تزامنت فى ظهورها وتوحدت فى طبيعتها الرأسمالية مع علاقات الإنتاج الجديدة فالعمال والصناع الفنيون الأحرار والآلات والأدوات الصناعية الحديثة بالاضافة للمعامل العلمية وبحوثها وتجاربها كانت تشكل قوى الإنتاج الرأسمالية الجديدة التى كان يلازمها علاقات إنتاج رأسمالية جديدة تتجلى فى وجود العمل المأجور أى حرية العمل وزيادة الأجور وتقليل ساعات العمل الشاقة للعمال وتخفيف جهودهم فى ظل غياب ممارسة السخرة والعمل الاكراهى ..

ذلك هو بداية الوجود الرأسمالى فى مصر يزامنه بداية نشوء الطبقة العاملة المصرية الحديثة فى ظل الحملة الفرنسية وليدة الثورة الفرنسية التى ازاحت السيطرة المملوكية والتركيه من الحياة المصرية . هذه السيطرة البغيضة التى وصفها إنجلز بقوله ــ ان السيطرة التركية ككل سيطرة شرقية لاتنسجم بالفعل مع المجتمع الرأسمالى إذ كان معدوما أول وأهم شرط من شروط العمل لأصحاب المشروع الرأسمالى وهو صيانة شخصية التاجر الوطنى وممتلكاته ..

أن اختفاء هذه السيطرة قد أدى الى نشوء المشروع الرأسمالى الحر فنشأت فى مصر صناعة الطباعة وكذلك صناعة السكر الحديثة حيث نشر جورنال المونيتور الفرنسى فى ديسمبر ١٨٠٠ خبر إرسال عينات من السكر المصرى الى فرنسا .. وفى هذه الفترة كتب القائد مينو الى وزير الحربية الفرنسية يخبره بأن المهندس كوش أنشأ طاحونة لإدارة الآلات اللازمة لصنع الأقمشة والقبعات والورق وأخذ يدرس الحرف والصناعات المصرية ويجتمع بالصناع المصريين ويستفسر عن آلاتهم التى يستخدمونها فى

صراعاتهم .

وكان الفضل فى ذلك يعود الى الاشتراكية الفرنسية التى تم تصديرها مع الحملة الفرنسية لإشاعتها فى الشرق العثمانى لتحرير شعوبه من مظالم الاستغلال والاستبداد .. ولقد كان الجنرال كفاريللى ورجاله هم حملة هذه الاشتراكية ودعاتها فكراً وعملاً ولهذا طالبوا بتنفيذ إصلاح زراعى جذرى ولفضحوا طبيعة الملكية وحسروا مع المشايخ المستنيرين بهدف تجنيدهم للفكر الاشتراكى .. ويبدو من المرجح ان كفاريللى ورفاقه قد جندوا القلية اشتراكية من مشايخنا المهدى والجبرتى والعطار والخشاب وغيرهم بدليل أنهم قد قبلوا بضرورة تجدد الكيان الاجتماعى بالمادة والفكر ولذلك فقد وجب أن نقف أمامهم فى احترام على حد قول الدكتور لويس عوض الذى يصفهم بأنهم طليعة المثقفين المصريين فى ذلك العصر القريب العجيب الرهيب ..

.. وهؤلاء المشايخ قد وقفوا مع ثورة الشعب المصرى ضد الفرنسيين رغم عدم قناعتهم فالجبرتى كان لايني ينعى على الثوار ثورتهم على الفرنسيين لما ألحقته من بلاء بالناس الأمر الذى يشير الى تأسيس خلية من المشايخ كان يتصدرها الشيخ المهدي الذي شغل منصب أمين الديوان العمومي وعضو اللجنة المالية للحملة الفرنسية وأبرز وأخلص وسيط للمصريين لدى الفرنسيين وان بنية قد حُرق فى أحد ثورات القاهرة ويصفه الجبرتى بالمدافع عن مصالح المصريين وأنه قد سد ثقوباً بعقله وانه والشيخ الصاوى كانا يعارضان الكتخدا ـ الحافظ ـ ويهاجمانه بسبب احكامه الجائرة والدموية ضد المصريين إلى حد ان واحداً من قادة الحملة الفرنسية وصف المهدى بأنه ـ مش يو ثو ـ ..

أليس ذلك بكاف للبرهنة على ان الشيخ المهدي وزملاءه كانوا على الأقل مجموعة سياسية تساندها بعض القوى فى قيادة الحملة الفرنسية ممثلة فى الجنرال كفاريللى ورفاقه الاشتراكيين .

ويذكر كفاريللى ينبغى الإشارة إلي أنه ليس شخصاً شاذاً كما صوره المخرج الكبير يوسف شاهين بل كان جنرالاً ومهندساً عسكرياً فذاً وداعية من خيرة الدعاة الإشتراكيين الرواد وقد مات في مصر تاركاً بصماته الثورية على المشروع الحضاري الذى شيده الوالى محمد على من خلال التطبيق الاشتراكى السان سيمونى فى مصر وبلاد الشرق العثمانى .. وذلك من خلال الدور الذي قامت به الخلية الاشتراكية بقيادة الشيخ محمد المهدى فى استقبال محمد على وجهرة شخصه وترشيحه والياً على مصر بشروط كتبها ووصفها الشيخ محمد المهدى .. وكذلك من خلال تطبيق اشتراكية الفدينا بمعاونة ومساندة الاشتراكية الفرنسية ..

ومن ثم فلابد من إفشاء سر ذلك الغريب الذي لم يأت إلى مصر بالصدفة ولم يتعاطف مع أهلها حباً وكرماً وخاصة أنه لايتداول اللسان العربى بل جاء إلى مصر بأمر وتكليف من الاشتراكية الفرنسية حيث وجد من ينتظره على أبواب مصر فعرفه بأهلها ومزاجهم الاجتماعى بلسان عربى مبين .. ولقد قام

الشيخ المهدى وزفاقه بهذه المهمة الذى انتهت باختياره والياً على مصر رغم انه مقدونى الجنسية عثمانى التبعية يعتنق الاسلام ديناً واسمه مهمت على ..

وبالتالى فقد كانت ولاية محمد على وحكمه لمصر امتداداً للحملة الفرنسية التى لولاها لما كانت ظاهرة محمد على المصاغة بصياغة الاشتراكية الفرنسية التى انبثقت عنها اشتراكية افنديناً السان سمونيه وثورتها الصناعية والانشائية والمعمارية واصلاحها الزراعى مما أدى الى ظهور الطبقة العاملة المصرية الحديثة بفضل تأثير الثورة الفرنسية العظمى التى تصدرت الى مصر مرتين الأولى مع الحملة الفرنسية والثانية مع تطبيق اشتراكية أفندينا محمد على ...

والى جانب ذلك فقد أنشأ الفرنسيون مصنعاً لصناعة الصابون وآخر لصناعة البيره كما طلب من وزير الداخلية فى فرنسا أن يرسل إلى مصر عدداً من النساجين وصانعى الأقمشة والحدادين وصانعى الساعات وحروف الطباعة .. وفى قلب هذه الصناعات وفى مجالات العمال التى كان يديرها الفرنسيون كانت علاقات العمل تحدد لنا الطبيعة الطبقية لعلاقات الإنتاج التى كانت علاقات رأسمالية متقدمة لخلوها من السخرة والإكراه البدنى والجسدى والنفسى. كما ان الفنيين الفرنسيين فى هذه الصناعات كانوا يضعون خبراتهم الفنية ومعارفهم الصناعية فى متناول العمال المصريين بالاضافة الى حصولهم على أجر أفضل فى حين أنهم كانوا يشتغلون ساعات عمل أقل من المعتاد فى هذه الأيام.



يقول الجبرتي ــ زى الجسر اللي قاموه بين الأزبكية وبولاق ما أنا جي منه فرعوه من بعد بولاق لفرعين فرع لطريق أبو العلا والثاني نازل هنا على ساحل النيل .. وفعلوا هذا الشغل الكبير والعمل العظيم في أقرب زمن ولم يسخروا أحداً في العمل .. بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ويصرفونهم من بعد الظهيرة ويستعينون في الاشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة في العمل وقلة الكلفة .. كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدان من خلف يملأها الفاعل ترابا أو طينا من مقدمها بسهولة بحيث تسع مقدار غلقين ثم يفيض بيديه على خشبتها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجرى على عجلاتها بأدنى مساعدة الى محل العمل فيميلها بإحدى يديه ويفرغ مافيها من غير تعب ولا مشقة وكذلك لهم فئوس وإزم محكمة الصنع متقنة الوضع وغالب الصناع من جنسهم ولايقطعون الاخشاب والأحجار الا بالطرق الهندسية ..

دور الاشتراكية الفرنسية :

ولكن نظراً لأن الثورة لاتصدر فقد توارت قوى الانتاج الجديدة وعلاقات الانتاج فور رحيل الثورة الفرنسية وعودة الظلام التركي المملوكي واستبداده الشرقي . وبالتالي فإن بدايات النشوء الجديد للطبقة المصرية الحديثة قد تلاشت ولكن من الناحية الظاهرية فقط حيث تركت الحملة الفرنسية وصناعاتها الحديثة العديد من العمال والصناع والأسطوات ممن شيدوا صناعات محمد على وحققوا ثورته الصناعية الكبرى مثل الحاج عمر أبرز العمال الفنيين في ترسانات محمد على وتلميذ المهندس سريزى الفرنسي ..

اذن فإن تأثير الثورة الفرنسية وحملتها المشهورة على نشوء الطبقة العاملة المصرية الحديثة لم يتوقف بل ظل مستمراً ومتزايداً بدليل تطبيق اشتراكية محمد على السان سيمونية من خلال إحداث ثورة صناعية وإنشائية ومعمارية مبكرة في مصر تولد عنها النشوء الحقيقي للطبقة العاملة المصرية التي كانت تعتبر القوة الرئيسية المنتجة في صناعات محمد على ومشاريعه المتعددة ..



رواية

ورود سامة لصقر

أحمد زغلول الشيطى

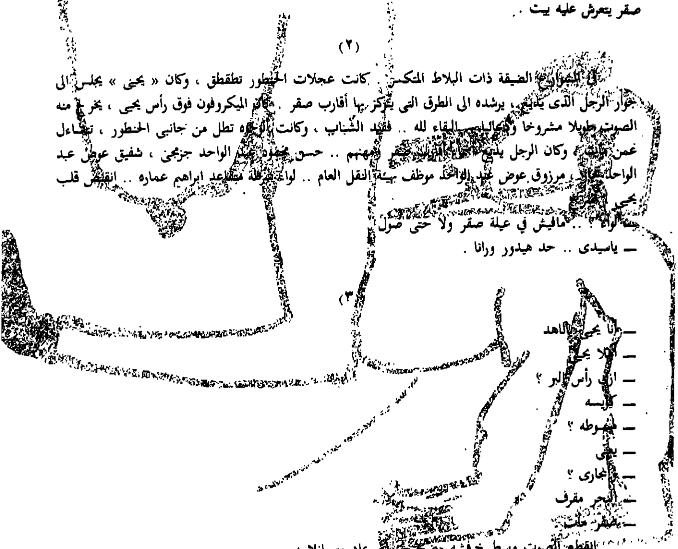


اهداء الى سلمى

موت صقر ـ ٩ أغسطس ١٩٨٤

(١)

بالأمس ، جلس أمام الورق ، بيده القلم : كتب أن الحب مستحيل ، وأن الأيدى الخشبية تحاصره . فى الصباح ، فتحوا الباب ، وجدوه أزرق وصلبا ، ورغوة تسيل من فمه ، وفوق صدره باقة ورود ، انطبقت عليها يده ، وتحت الأوراق ، امتدت قامة صقر عبد الواحد نفس القامة التى جعلت جده لأبيه يقول ذات مره متندرا : صقر يتعرش عليه بيت .



(٢)

فى الممرات الضيقة ذات البلاط المتكسر . كانت عجلات الخنطور تطقطق ، وكان « يحيى » يجلس الى جوار الرجل الذى يدفعه ، يرشده الى الطرق التى يتركز بها أقارب صقر . كان الميكروفون فوق رأس يحيى ، يخرج منه الصوت طويلا مشروخا ومحايدا البقاء لله .. فقيد الشباب ، وكانت الوجوه تطل من جانبى الخنطور ، تتساءل عمن مات ، وكان الرجل يدفع ، أقارب صقر ومنهم .. حسن محمود عبد الواحد جزمجى ، شفيق عوض عبد الواحد ، مرزوق عوض عبد الواحد موظف بهيئة النقل العام .. لواء شرطة متقاعد ابراهيم عماره .. انقبض قلب يحيى

جت الواد ؟ .. مافيش في عيلة صقر ولا حتى صول

ــ ياسيدى .. حد هيدور ورانا .

(٣)

ــ انا يحيى الشاهد

ــ اهلا يحيى

ــ ازى رأس البر ؟

ــ كويسه

ــ مضروطه ؟

ــ يعنى

ــ والجارى ؟

ــ البحر مقرف

ــ صقر مات

انقطع الصوت وسط خرفشه وضجيج ثم عاد متسائلا :

ــ تقول ايه يايحيى .. صقر فين ؟

وضع السماعة .. بصق على الأرض ، ومن فوقه كانت شمس أغسطس تصهر الأسفلت . مسح عرقه بمنديل ورق ، ووقف خلف السنترال يتبول . فكر فى ضيق أنه قد يشاع عن صقر الانتحار ، وأن ذلك سيسبب مشاكل لأمه وأخته ، صعد الى الخنطور وطلب من الرجل أن يكف عن الاذاعة .

(٤)

حاول يحيى أن يمنع أم صقر . شقت جلبابها وتمرغت فى التراب ، وكانت نحيلة تبكي فى صمت ، ثم تعود تردد .. أخويا .. ياخويا ، فيما كان جده مستندا الى الجدار ، وكان الناس يتدافعون الى الداخل فى كتل ضخمة ، وكان الخارجون يرددون أن شعره بدأ يتساقط ، وكانت الرائحة بدأت تفوح ، وكان يحيى بالخارج ، لايجرؤ على الدخول.وقف الى جوار الحائط ، ينظر الى النافذة المفتوحة ، ومرآة الدولاب ، والملابس الملقاه فوق الضلفة ، وعلى الجدار المقابل كانت صورة صقر أيام الثانوية ، يضع ذراعه فوق كتف يحيى ، فى حين أن عينيه بعيدتان ، لاتنظران الى الكاميرا ، وكان رغم ذلك لايبتسم ، ومن خلفهما كانت أشجار النخيل عالية ، وسماء عديمة اللون .

(٥)

فى المقدمة ، حمل يحيى ذراع النعش ، وتقدم خلف الناس ، فى الشارع الطويل ، على جانبيه المقاهى ، والناس يقفون فوق الرصيف ، يرفعون أصابعهم ، ويقرؤون الفاتحة ، شعر يحيى فى كتفه بتسلخ ، أبدل مع قريب لصقر ، وتخلف وراء النعش ، ثم وراء المشيعين فى الموكب .. استدار وجرى الى وسط المدينة ، كان فى حاجة لأن يغلق باب الحجرة عليه ليبكى .

(٦)

كانت المصابيح ساخنة. كانت ناهد جاءت . وقف يحيى أمامها. نظرت اليه متوسلة . كان الشيخ يقرأ سورة الرحمن . كانت ترتدى طقما أسود أحدث موديل ، ضيقا ومشقوقا من أسفل ، وكان برفانها يفوح على البعد ، جذبها يحيى من ذراعها خلف الشادر ، كان قلبه ارتج . لحظة فكر أن هذه البنت ، القحبة بنت القحبه ، هى قاتلة صقر ، وأنها ماجاءت الا لتعرض لجمالها على هؤلاء الغلابه لتنتزع من عيونهم المريضة الاعجاب .

ضرب العارضه الخشبية بقبضته وانفجر بالبكاء .. وجده خلف الشادر فى ظلام طويل ممتد .

يحيى خلف
١٠ أغسطس ١٩٨٤

(١)

قال صقر : انا نبكي من الموت لأننا لم نحى كما ينبغى . أمه قالت لى : صقر مات لأن الدنيا لم تعجبه ، راح لدنيا أخرى ، وقالت انه راح وأخذ سره معه . الآن ، أتساءل : لماذا مات صقر ؟ صقر لايموت الا اذا كان الموت هو الطريق الأوحد ، لم يترك رسالة ، ولاحتى كلمة ، حتى العبث بأوراقه غير مفيد بالمرة ، لأنه لو أراد أن يوضح لفعل ذلك بأعلى صوت . كنا معا آخر مرة ، فى المقهى القديم بسوق الخضار ، وضع فوق المنضده رواية « صورة الفنان » . قال انه لايدرى ماذا يفعل بحياته ، كانت عيناه بعيدتين ، تنظران الى الظلام فى أبواب الوكالة العالية ، كنا فى آخر أبريل ، وكان لايكف عن التدخين ، قال انا نقرأ أكثر مما ينبغى ، أخشى أن يشوهنى الفقر ، وضع كفه فوق وجهه ، صرخ بصوت مبحوح : صرت أكتب أشياء مزعجة .. هل أفسدتنى الكتب ؟

قال إنه يحب النساء ويفشل معهن ، وأنه لايعرف أين سينتهى . طلبت قهوة ، واشتريت علبتى سجائر . خرجنا نتجول فى شوارع السوق الخلفية ، تلك الشوارع التى يحبها صقر فى أوقات يأسه

كانت رائحة المجارى تفوح ، وكان الهواء بطعم الخراء ، خرجنا الى النيل . كان بركة راكدة ، مشينا بمحاذاة الرصيف ، سألته عن ناهد ، نظر اليّ فى وجهى ، كأنه فوجىء بسؤالى ، قال إنه لم يعد يحتفظ منها بغير سروال ملوث وقصتين من أظافر قدمها ، وأنه سيحرقهما قريبا ، ضحك بعصبية وقال : فاجرة .

كنت أعرف أنه يكذب ، وأنه يتصل بها من السنترال من آن لآخر . عزمت عليه أن نتعشى ، قال إنه متعب ، وصافحنى ومضى . سألت عنه فى بيتهم عدة مرات . كانت أخته « تحية » تقول إنه فى مصر ، وأنها لاتعرف متى يعود ، ومرة أخرى قابلتنى تحية فى الشارع ، كانت تحمل خضروات وخبزا ، قالت إن أمها تريد أن ترانى ، قلت إننى سأمر عليهم فى المساء ، وسألتها عن صقر . قالت إنه فى مصر من شهر ، ولاتعرف عنه شيئاً، خمنت أن أم صقر تريد أن تسألنى عنه ، خاصة وأن الوقت ليس وقت جامعة ولا دراسة . قررت ألا أذهب ، لأننى لاأعرف ماذا أقول لها ، لأننى كنت بعيداً عن صقر فى الفترة الأخيرة . بسبب مسلكه مع ناهد ، كنا اختلفنا وكان قال ، إنه حر فى تحديد متى ينهى هذه العلاقة .

قلت : انك لاتحب غير البرجوازيات ياصقر

قال : وماذا فى ذلك

قلت : لايمكن أن يكون حبا .

قال : كل الاشياء تحسم بهذا .

وأشار بين فخذيه . لم أتكلم . صرخ فى وجهى ماذا تريد منى ؟ لست شيوعيا ، ليتنى كنت شيوعيا ، لم أستطع أن أكون غير حالم يقع فى حب البرجوازيات . أمى بهية فقيرة ، أبى من حالالات المدن ، لأن رجلا عسكريا حالما أو مجنونا حكم مصر ، لم أصبح عربجيا أو نشالا أو حتى صبى حلاق . تركنا الرجل نتشعلق فى حبال الهواء ومات . ماذا أفعل ؟

من تحتنا كان الفراغ ، والحبال كانت تتمزع ، ماذا تريد ؟ ... لست مثلك يايحيى ...

تذكرت هذيانه وفزعه ، فى ظلام حجرتنا بالقاهرة ، وهو يصرخ مستجدا فى الليل أن أستيقظ . كان يتشبث بملابسى ، وبصوته المخنوق يصرخ ، أن أحدهم قدم له زهورا سامة ، وكل مرة فى كابوسه الابدى يأتى الرجل ، ذلك الذى رآه فى الشارع الجانبى على النيل ، بعد ذبحه ، وجهه قناع من خزف أصفر ، وعيناه بلورتان زجاجيتان ، فى يده باقة الورود السامة .

قال : كان يتقدم ببطء . ظهرى الى الحائط والبحر رابض ، وكيس الملح جبل فوق كتفى . يتقدم . والصرخة مذبوحة فى صدره ، يد من خشب يلقى الورود المتوحشة ، يفزع صقر .. لا .. لا .. هناك فى زمنه الموغل ، بعد النوم على الأرصفة والتشرد ، يوم التقى بها أمام البحر ، قال : جزت رقبتى . قلت : كنت فى كابوس . قال : كان القمر يصعد نحو سماء صافية ، يصعد فيما فوق الملح . سألته : أكان الوقت قبل خروج الفقراء الى شوارع القاهرة ، يتظاهرون ويكسرون ، بعد الاعلان عن أسعار زيادة الخبز ، قال : كنت مفردا أمام صدرها والبحر ، فى نور حلمى ، عندما سقطت رأسى وعيناى تجمدتا .

(٢)

أفقت ، لم أكن نائما . موت صقر جعلنى أنام وكأننى مغمىً علىّ ، ربما سيمر وقت طويل قبل أن أصدق ، أن هذه الزوبعة النيلة ، رغم كل شىء قد اندثرت وذهبت فى ظلام نهائى . طلبت من أمى ان تعمل لى كوب شاى ، وضعت رأسى تحت الماء وكان الماء ينزل من شعرى محملا بالتراب والعرق ، شعرت بكتفى يؤلمنى ، شربت كوب الشاى ، وخرجت ، اشتريت الجريدة ، وأوقفت حنطورا ليوصلنى الى بيت صقر . كان الصهد يصعد نحو عينى ،

ويجثم فوق صدرى . كنا يوم جمعة ، كان مظهر الشوارع يوم عطلة . فتحت الجريدة.مانشتات حمراء ثقيلة ، وصورة راقصة الأريزونا أسفل الصفحة وفخذها مرفوع لأعلى ، كان صقر لايقرأ الجرائد . كان وهو فى الابتدائية يجمعها ليعطيها لأبيه يبيع فيها العنب . كان يقول أن أباه يشترى أقفاص العنب بما يتصدق به عليه المصلون فى جامع النصر ، ليبيعها لنفس المصلين بأثمان مضاعفة ، ويوم عاتبوه وقالوا : العنب فى السوق بعشرين وانت تبيعه بخمسين يا أبو صقر أمسك بعنقود العنب بطريقه استعراضية من طرفه وقال ولايهمكم مش بايع . ويبدأ فى التهام عنقود وراء عنقود . حتى يأتى على الصناديق كلها .

قلت : حل غير موفق

قال · كان أقرب مسكين بالنسبة لهم .

قلت : وأنت ؟

قال : كان يأخذنى فى الصيف ، الى رأس البر ، كان يحمل البضاعة فوق ذراعيه بينما ألعب مع تحية بين أقدام المصيفين . كان يضربنا .

قلت : الرفض يعطى الانسان القدرة على التجاوز .

قال : شكرا للمواعظ والنصائح .. لاأريدها .

* * *

كان النهار جاثما فى الشوارع ، ووهج الشمس يلتمع فوق جلد الحصان الهزيل ، كانت السيجارة ذات طعم خانق ، ألقيتها الى الأسفلت .

كان الرجل يفرقع بسوطه فوق ظهر الحصان ، ويلعن غاضبا ، طلبت منه أن ينحرف يسارا ، شعرت بجسمى مفككا ، وبأن الدنيا ضاقت والهواء يوشك أن ينفد ، فتحت أزرار القميص،أغمضت عينى . كتب لى ذات مرة يقول « أموت بالنهار وأستيقظ بالليل ، ليلنا ، نحن السائرون نياما ، فى شوارع مدن رمادية » كان الليل إذ يتسرب الى قلبه ، يولد من جديد ، صقر آخر ، صقر حالم ونبى . كنت معه ، فى ليله الطويل ، من طفولتنا المطلة على البحر والورش ، الى أرض حلمنا ، حملنا حقيبة واحدة بملابسنا وكتب الشعر ، لأن صقر لايعرف الا إن يكون شاعرا أو سلة مهملات ، وأتينا الى القاهرة . وقف صقر بقامته المديدة فوق بلاط الردهة الواسعة فى باب الحديد ، أشار الى صورة (جمال) المعلقة الى الجدار . قال دون أن ينظر الىّ « هذا الرجل قتلنى » .

سألته : قتلك ؟

قال : قتلنى ومع ذلك أحبه .. نحن شعب يعشق قاتليه ، ذبحنا الرجل برحيله المتسرع ... ماكان ينبغى أن يرحل ..

قلت : كان يجب أن يختفى ، كان محتما عليه لو عاش أن يسير فى سكة هبوط .

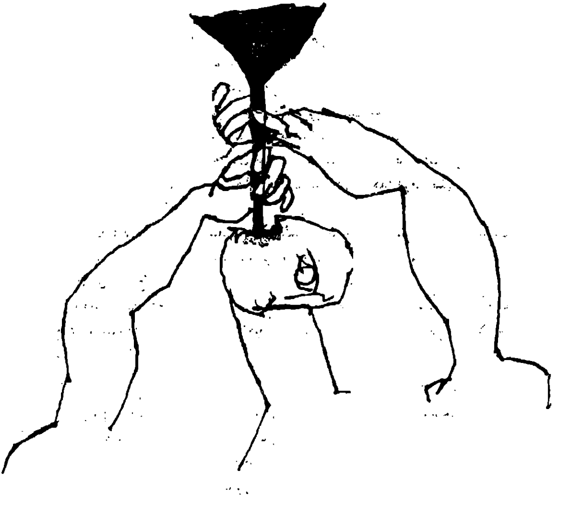
صرخ : طظ فى التاريخ .

كنا معا ، وسط شعاب القاهرة . قال صقر « ضع يدك فى يدى » خاف أن يتوه أحدنا من الآخر، قال ان المصابيح ذات ضوء مظلم ، وأن لاسماء ولانجوم ولا أقمار ولا مُطر ولا رجال ولا نساء ولا نهار ولا ليل ولا حب ولا أحلام .

كانت الشوارع تمتد الى بعيد ، تحت سماء من الدخان والغبار ، وفوق الأسفلت المصقول كانت أحذيتنا تتخبط ، الى وجهة لانعلمها . قال « نحن صغار يايحيى » وسقط من فوق الرصيف،انكفأ على وجهه ومن فوقه كانت العمائر العالية تصعد كأشباح بدائية . بكى وضم ساقيه الى صدره ، أخفى وجهه عنى ، وراح يعض ركبته ويضرب رأسه ، رغم ذلك لم تسقط دمعة واحدة . وفى ليلة سألنى لماذا تتحول الشوارع النظيفة المضاءة كلما تقدمنا نحو الأمام الى مزابل ومحاشر .. أرأيت الشوارع وهى تنقلب فوق رؤوس ساكنيها . ظل يردد سؤاله فى تجواله المحموم أربع سنوات فى شوارع القاهرة ، رافضا أى اجابة . كان يرى النيون يلتمع فى الواجهات وعلى بعد بوصات تنتصب الخرائب والمعازل والمحاشر ، كأن ذلك كان المعرفة النهائية ، والدليل الدامغ على عبث الحياة وقذارتها .

(٣)

أجلدنا حجرة بسرير واحد ، في لوكاندة بباب البحر، كانت الحجرة الوحيدة فوق السطح . كانت المرتبة دون ملاءة ، وكان البق يزحف . لم نستطع دخول الحمام ، كان طافحا ، وقف صقر أمام السور القصير ، يطل من فوق الى البيوت الدخانية ، كان كمن ينظر الى متاهة . كانت السماء سوداء مقفلة ، رأيت وجهه مظلما ، عيناه حفرتان غائرتان ، فيهما العذاب واستحالة الحب ، فيهما الفوضى والنار . لم يتكلم ، دخلت الحجرة . قلبت المرتبة . أخرجت ملابسنا وبعض الخبز والجبن . ناديته ليأكل . لم يجبني، خرجت أبحث عنه . لم أجده في السطح ولا في دورة المياه . نزلت بالبيجامة حافيا ، سألت صاحب اللوكاندة . قال إنه خرج . صعدت مرة أخرى . ارتديت ملابسي ، ونزلت أبحث عنه . لم أكن جئت الى القاهرة من قبل ، ولا أعرف فيها أحدا ، ولا أعرف كيف يمكنني البحث عن صقر وسط كل هؤلاء الناس ، وكل هذه الشوارع المفتوحة أمامي ، وسط السيارات والأضواء والروائح العفنة . نظرت في وجوه المارة وركاب الأتوبيسات والجالسين في المقاهي . كان قلبي يعتصر . شعرت بالرغبة في البكاء . لكن لا أحد هنا ليسمعني أو يكلمني ، لاشيء غير الوحدة والرعب ، أمام عمارات خرساء ، وناس مشدودين الى أهداف بعيدة مجهولة ، بوجوههم المشوهة ، وعيونهم المحدقة في الفرغ .



رجعت الى اللوكاندة منهكا . سألت عنه . قالوا انه فوق . قفزت السلالم. فتحت باب الحجرة ، رأيته ممددا فوق السرير ، مرتخيا ، ووجهه أصفر. كان نائما ، أيقظته . فتح عينيه .

ــ أين كنت ؟

ــ سأموت يايحيى .

ــ كلنا سنموت

ــ ....

ــ لن تستمر بمخاوفك الأنثويه .

ــ عاد الرجل ومعه السم .

ــ أى سم .. أى أوهام ياصقر ؟

ــ سأموت دون أن يدرى أحد .

ــ لو كنت رجلا لتجعل لموتك معنى .

ــ ....

ــ أين كنت ؟

ــ فى الكابوس

ــ أين كنت ياصقر ؟

لم يجبنى ، رفض أن يجيبنى ، حتى بعد مرور سنوات عديدة ، الى أن مات فى حجرته المطلة على الميدان ، منطويا على سره .

الآن . أسأل نفسى . هل عرفت صقر حقا ؟ وهل كان موته محتما ، هل سكت قلبه فجأة كما قال الطبيب . أشك أننى عرفت صقر ، أو أن أحدا عرفه ، فى عزلته المقيتة ، وزمنه الدائرى . فى الحصار اللذي أوقع نفسه فيه . فى هروبه المبكر الى كهولته الداخلية .. هل عرفت صقر ؟

(٤)

توقف الحنطور فى بقعة ظل بشارع جانبى . نزل الرجل . وضع العلف أمام الحصان .. راح يربت على رقبته . قال : حيوان أخرس . قلت : ولا يهمك . باعد الحصان بين ساقيه الخلفيتين . سمعت صوت البول ينزل الى الأرض الترابية . قلت للرجل : براحتك مش مستعجل . جلس الى جوار الحائط يتطلع الى الحصان وهو يأكل . أشعل سيجارة راح يمتصها فى نهم . مرت فى الشارع الرئيسى سيارة مسرعة ، ثار التراب ناحيتنا . قال :

ــ النجارين فجروا ، ماحدش عاجبهم .

ــ محدثين نعمه .

ــ خسروا البلد على الفقير .

ــ تعرف اليهودى اللى نزل دمياط أكل هو وحماره وتسلى بنكله .

ــ آه .. بطيخه .. قشر البطيخه للحمار ، وبطن البطيخة لليهودى ، ويقزقز اللب ..

... الواد ابنى يقول عايز فيديو يابا .. فتحت دماغه .. بورسعيد فسدت الدنيا . أشعلت سيجارة ، قلت كل شىء وله آخر .. أليس كذلك ياتحية ؟

لابد أنهم الآن يكونون صقر ، فى صمت حزين . بالأمس رأيت عينى تحية . كانتا عينين غريبتين ، جريحتين ، فيهما أسى وغربة . كانت تنظر الىّ ولاتراتى ، تحولت نحيه الى عينين تائهتين تنزلقان على الوجه والأشياء .

كان صقر بالنسبة لها أكبر وأجمل رجل ، كانت اذا تكلم تجلس تتفرج عليه ، حتى وهو يسخر من الدبلوم

الذى لاتستطيع الحصول عليه ، كانت تبتسم وتقول أنها تذاكر ، ولكنها تنسى كل شىء أمام الورقة . كانت تحب صقر دون أن تفهمه ، بحزنه وتعقيداته ، بصمته الطويل ، وضجره .
كنت أمر عليها فى محل الحلويات أسألها عن صقر ، فتصر على اعطائى قطعة هريسه ، كما لو كانت تهرب الىّ رسالة غرام .

هبت نسمة هواء . فتحت صدرى . لاشىء . سماء صلبه تطوى المدينة تحتها . تكويها بالنار . انها الآن على البحر ، للأبد .. مفتوحة الفخذين ، شبقة وفاجره . بشاطىء رأس البر ، تعرض جسمها أمام عيون الريفيين الجياع . مثلما عرضته على صقر ، ذات يوم فى مراهقته المضطربة .

يوم ترك بيتهم دون أن يعلم أحد ، وهرب فى قطار الى القاهرة ، وعندما وصل القطار الى محطة المنصوره ، أرعب صقر الضوء والزحمة والليل ، شعر بصغر سنة فى الليل الشاسع . نزل فى المحطة ، بدلا من أن يعود الى دمياط . عاد الى رأس البر . ذلك الماخور الموسمى كما أسماه فيما بعد ، وهناك ، قابلها .. « ناهد بدر » بعد يومين من النوم فى الجامع وفوق الرصيف . قال لى مرارا . أن الرجل ظهر له لأول مرة فى شارع جانبى على النيل . رجل ذو قناع من خزف ، والبحر يزمجر ، وعيناه زجاجيتان ، والحائط خلفى ، وجبل الملح يضغطنى ، وبيده الخشبية يحمل باقة ورود غريبة . راح يقدمها له . بعد الذبح . بعد أن امتدت ذراع مشويه بالشمس . لا لتقبل .. ولا لتحتضن . امتدت ذراع بلون الرنجه . جزت رقبتى . قلت :
ــ كنت تحلم
ــ عيناى فى الثلج
ــ هذه هى كوابيسك ياصقر .
ــ سقطت رأسى .. تحت العجلات والستائر . فى غابة اللحم المعطر .
حملته فوق ذراعى . وضعته على السرير . خلعت حذائه . فتحت أزرار قميصه . عملت له كمادات بالثلج . ظل يهذى طيلة الليل . فى حجرتنا بدار السلام .

(٥)

اذا سألنى أحد عن صقر ، فى جملة واحدة . لقلت إنه أكثر من قابلتهم احساسا بالخيانة ، رغم تجربته القصيرة ، وجنوحه الشعرى . ولقلت أيضا أنه لم ينتحر ، صقر قتل فى أغسطس . دون أن يترك لى ورقة . بيد ان وقته كان ضيقا ، بينما قدماه تحملانه نحو قدره المحتوم .. نحو رجل أو مسخ ، ذى قناع من خزف ويد خشبية وورود سامه ، أقول إن قتلته جميعا على قيد الحياة . زاولوا قتله على امتداد عمره الصغير ، فى بيتهم ، فى الورشه والجامع والشارع والجامعة . فى ذلك الزمن الشاسع المضطرب ، الذى علق فيه مصير الانسان ــ والى الآن ــ على أشياء تافهة سخيفة ، ظل يؤكد لى أن لاتاريخ ولا عقل ، وأن الجنون يحكم العالم . وأن الشر أساسى ، قال ان أمه زفت الى أبيه على عربة كارو ، من قرية تبعد عشرة كيلو ، وأنها بكت يومها بحرقة لأن « الكوشه » تساقطت فى الطريق ، حتى أنها عندما وصلت الى البيت لم يكن قد بقى منها شىء .
قال ان فى نفس ذلك العصر كان الطلبة والعمال ينادون بالخبز والحرية ، قال ان مايروعه ، أن تذهب كل هذه الدماء هباء . وأن كل هذا البكاء لامعنى له .
أقول : انه لم ينتحر . كانت ناهد قالت له فى ندوة بالكلية أمام أكثر من عشرين طالب وطالبة ، بعد أن ألقى قصيدة
ــ انت انسان محروم .. عواطفك مشوهة
فى حين أن حبه كان عاليا وَحميما ، وكان يتوجه به اليها ، قالت : انت محروم . انشرخ وجهه وانطفأ . هاجمته كوابيسه وورده السامه ، هاجمته الفلقه ، والخشب فوق ذراعيه ، هاجمه كل شىء فى دوامة واسعة بغيضه .

ترك صقر القاعة وخرج منقبض الوجه . فى الليل بحجرتنا بدار السلام عاوده المسخ ـــ بقسوة وعنف . هاجمه كما لم يهاجمه . لم ننم ليلتها . جلست الى جواره فى السرير . وضعت ذراعى على كتفه . قلت : نهرب ؟ كان يفهمنى . ابتسم . لأنه صاحب هذه الشفرة . منذ كنا أطفالا فى الورش .

(٦)

أول مرة التقينا ، كنا تحت البنك ، فى ذلك الصيف البعيد المطبوع فى الذاكرة كأنه الأمس . وقت أن حلمنا بالهرب فى السفن الشراعية المبحرة نحو بلاد بعيدة . حيث كل شىء جميل كالتصاوير . كنا علقنا فى الفلقة ، وارتمينا منهكين تحت البنك ، بينما المدقات تهد العالم فوق رؤوسنا . همس صقر فى أذنى « سأهرب » . شفرة سحرية الخطف . لها قلبى أشرت برأسى موافقا . كان يبكى فى صمت ، وأقدامنا الحافية محمرة . همست له « متى ؟ » لان الأسطى ناداه ليأتى له بغذائه من البيت . لم أعرف منه متى ؟ كنا صممنا على الهرب دون أن يعرف أحد . كنا نقول دائما ، ونحن نحمل الخشب على أذرعنا ، أننا سنهرب فى الغد ، ويأتى الغد ولانهرب ، بل نذهب الى المدرسة نصف النهار الأول ، وفى النصف الثانى نذهب الى الورشة ، وورشة الأسطى « رجب ». وفى أجازة الصيف الطويلة نعمل فى الورشة ، وفى بيت الأسطى ، وكذلك فى يوم الجمعة لانرتاح فى بيوتنا ، لان زوجة الاسطى تحتاج الى خضار وابنها يبكى دائما ولايسكت الا اذا حمله أحد ، وصقر اذ يرى الأولاد الذين لايعملون مثلنا ، لا بعد الظهر ولا فى اجازة الصيف ، يلقى الخشب على الأرض ويزعق « ملعون أبو الشغل » . كان الأولاد يقولون للأستاذ فى المدرسة ، أننا نشتغل بعد الظهر فيشتمنا الأستاذ ويقول ... روحوا اشتغلوا وسيبوا التعليم لأصحابه ، لأننى وصقر كنا خائبين ، وفى يوم ، مات صقر من الضرب ، علق فى الفلقة ، وكسر الأسطى رجب ثلاث خشبات زان فوق قدمى صقر ، وأنا كنت مرعوبا ومختفيا خلف ألواح الخشب ، وصقر كان يصرخ وينادى أمه . كنت أخشى أن تقع عين الأسطى على . حاول الأسطوات منع الأسطى رجب من ضرب « صقر » . لم يقدر عليه أحد . قال لهم : كان هيقتل ابنى . كنت أعرف أن صقر فعل ذلك ، لأن زوجة الأسطى أرادت أن تزور الجبانة يوم الجمعة . قالت لصقر : شيل الولد على كتفك واسبقنى . قال لها صقر أنه تعبان . قالت أنها ستقول للأسطى رجب أنه صار ولدا شقيا لايسمع الكلام . حمل صقر الولد على كتفيه وخرج الى الشارع . رأى الأولاد يطيرون طائراتهم . عندما شاهدوا صقر ، صرخوا فى صوت واحد : يامرة .. يامرة . اغتاظ صقر فألقى الولد على الأرض وجرى خلفهم ليؤدبهم.قال انه كان يصطاد طائراتهم بطائرته . أرادوا أن ينتقموا منه لذلك . سألته : رجليك سخنه ؟ . لم يرد علىّ ، لأنه كان يبكى . قال لنا الأسطى أن نحضر الخشب من الماكينه . مشى صقر على أطراف أصابعه لأن قدميه متورمتان ، واذ خرجنا الى الشوارع فى الهواء البارد ، لم يكلمنى صقر ، وانطلق يجرى فى الأزقة والحوارى ، لم أره بعد ذلك لمدة طويلة . سألنى الأسطى غاضبا : صقر فين ؟

قلت وقلبى يكاد يقفز من الفرح : صقر هرب

(٧)

كانت الورش أغلقت ، كذلك المدارس . كانت أمى غريبة،رأيتها تغسل الأوانى ، ودموعها تسيل فوق خديها ، حزنت وكدت أبكى .

قال لى صقر ان امه قالت له ان ابنه سيكون رئيسا بدلا منه ، وكنا نمشى فى الشوارع الخاليه من الناس . لانعرف ماذا نفعل لأن كل الدكاكين أغلقت والناس ذهبوا الى الأماكن البعيدة . قال صقر : نطلع على البحر ، لأن الكبار ، كلما حدث شىء هام طلعوا على البحر ، يمشون على الكورنيش وأمام المحافظة والاتحاد الاشتراكى . سألنى صقر

كيف مات ؟ والحقيقة ، كنا لانعرف كيف مات ؟ لاننا ظننا أن كل الناس تموت الا جمال . مشينا فى الشوارع البعيدة . كان الناس كثيرين هنا . كانوا يصرخون ويبكون ، وقفنا نرقبهم ، بينما نبكى دون أن ندرى ، لأن الصوت كان غريبا ، اذ يقولون ياناصر ياحبيب الملايين ، ويبكون فى نفس الوقت . كان صوتهم يخرج وسط بكائهم ، خلف النعش الكبير المغطى بالعلم ، والصورة الكبيرة العالية المثبتة على مقدمة النعش ، وعليها شريط أسود ، تحته جمال يضحك كأنه لم يمت . أمسك صقر بيدى . تهنا فى الزحمة . رحنا نصرخ مثل الناس . قال صقر ان جمال نائم داخل النعش . كنا نريد أن نراه . لكن الناس كانوا يتقدمون ناحية الكوبرى ، ليصلوا الى الجبانه . قال لنا رجل كبير أنه ليس بالنعش ، انما هو عند الله . سأله صقر ، لماذا هو عند الله ؟ قال الرجل الكبير وهو يمسح دموعه ، احتاجه فأخذه .

تعبت أقدامنا ولم نرد الرجوع . تقدم موكب الناس الى بحر النيل ، كان الجامع الكبير من خلفنا ، ومئذنته العالية يطلع منها صوت الآذان لرجل لايستطيع أن يؤذن من شدة البكاء ، وكان النعش ينزل الى منحدر البحر وكنا خلفه ، نتدافع لنسبق بعضنا ، لان النعش طفا فوق سطح الماء الهادىء ، والناس هبطوا وراءه ، صامتين لاينظر أحدهم الى الآخر . رأينا البحر يزدحم بالرؤوس . كلما مر الوقت اشتد الزحام . حتى لم يعد مكان لبقية الصفوف . كان كل الناس تضيع آثارهم تحت الماء فى حين ظل النعش طافيا فوق السطح .

لم يعد أحد بالشوارع . صمت المؤذن . قلت لصقر . هل مات كل الناس ؟ هز رأسه . قال لم يعد أحد سوانا . نظر مرة أخيرة الى الصورة . كان يضحك فوق نعشه . رجعنا فى الشوارع التى أتينا منها ، وكان صقر خائفا . لم نر أى أحد ، حتى ظننا أن أهلنا غرقوا أيضا . جرينا نحو بيوتنا . اذ الليل بدأ يهبط .

(٨)

كأننى أتجول فى هذه المدينة لأول مرة . من باب الخنطور ، أرى الشوارع بيضاء صامته ، فيها موت وغربه ، وعدد قليل من صبية الورش ، يلعبون القمار فوق الرصيف ، وبعض النساء أتيات من ناحية سوق الجمعة ، حاملات سلعهن الفقيره ، كان الجو مشبعا بالموت ، بطعم النهاية ، أيضا كرباج هذا الرجل يفرقع فى الهواء ، كان لاجدوى منه ، كان محزنا وسخيفا ، وزائدا بصورة لاتغتفر . أشعلت سيجاره ، ونظرت فى الجريده . صدمتنى المانشتات الحمراء ، وأفخاذ الراقصة ورشوة الملايين الخمسة. ألقيت الجريدة فوق المقعد الأمامى . كان أخى رجع مبتور الساق ، كان رجع مبتورا من الحرب ، فى حين أنهم كانوا باعوا كل السيقان المبتوره ، والأذرع والعيون والاحلام . كنا أطفالا ، وكان « فتحى » بطلا فى الحىّ . قال إنهم سيوظفونه عاملا فى مرحاض ، والكفأ فى صدر أمى ، مبتورا ، وأجهش بالبكاء ، ضرب قبضته فى الزجاج . قال عامل فى مرحاض . أشعل النار فى الكتب والمجلات . أشعل النار فى صوره مع خطيبته . أخى فتحى كان لحارا عظيما ، وكان جميلا . كان أعظم الناس ، أجمل الناس . اتكأ على ساق خشبية ، فى الليل البعيد وراح الى المستشفى الحكومى . رفض فتحى أن يموت فى بيتنا . قال لى : إن العبور يحتاج الى عبور أخر . قال اسمع يايحيى . قلت نعم . قال : العبور ناقص. قال يحتاج الى عبور آخر . أمسك يدى قال فى عينيك أرى طفولتى . قال : انتظر . سقطت يده من يدى . قال انتظر • مبتورا ، وعاملا فى مرحاض وبطلا أجهش بالبكاء . قال انتظر .. قال آخر . قال . آخر . ألقيت الجريده بالخمسة ملايين ، ثمن فتحى وصقر ، ثمن الدم المسفوح فى الرمال ، والشيخوخة المبكرة ، ثمن البلهارسيا . فرقع السوط فى الهواء . قلت للرجل : خلف السجل. بدا أنه لم يسمعنى . كررت : خلف السجل . قال غاضبا : عرفنا ياأستاذ .

كانت ورش الموبليا مغلقة ، ونفاياتها ملقاه فى الشوارع . كذلك كانت المعارض مغلقة ، وبالأمس ، بالأمس فقط ، التهى صقر . مات . فقط مات ، هكذا ببساطة ، كابتلاع حبة منوم . بقيت عدة أشياء أخرى بسيطة

ستنجز على أكمل وجه ، بعدها يغلق ملف صقر الى الأبد .

انعطف الحنطور ناحية شارع العروبة ، فى نهايته مأتم صغير ، فى طابق أرضى ، ومن المدخل ، فى بئر السلم فأرميت ، ورائحة عفنة ، بالداخل كان شاب مات بالأمس . أغرقوه بالكولونيا .. رائحة الموت لاتطاق . قال : يضعون الكولونيا للموتى ليخفوا رائحة الموت ، فلماذا نضعها نحن الاحياء . قلت : ماذا ترى ؟.. قال لاننا نموت ببطء .

ضحك ضحكة حزينة . قال : لن أحزن يوم أموت ، رغم أننى لم أعش كما ينبغى . سيكون هناك شىء باق . عزاء أخير « نور الله » . اننى اذ أموت ، أتوحد بهذا النور العالى المنبعث من وجه الله . لم يكن صقر تكلم هكذا من قبل ، كان جهزأ ، ويرى أن المآذن ليست الا خوازيق للمصلين . قال ذلك لناهد صرخت

— كوكتيل جنون ياصقر .

عزمته يومها فى جروبى . قال أنها دفعت عشرين جنيها مرة واحدة ، وسألنى : كم يقبض مستشار . قلت مستشار وتاجر سيارات .

قال : حقا

أشعل سيجاره ، ونادى صبى المقهى . طلب قهوة قال :

— اسمع يايحيى .. هذه البنت تريد شيئا طويلا ذا مقدمة مديدة .

اندلق فنجان القهوة فوق ملابسى . أمسكت قلبى ، شعرت بكل عضلات جسمى تتقلص من الضحك .

— ومن أدراك ؟

— لمحت لى

فى اليوم التالى طلبت منها أن تبتعد عن صقر . قلت أنه مريض ، ولايحتمل مأساة فوق مآسيه . تكفيه الميلو دراما التى يعيشها ليل نهار . قلت انه فقير وأن العلاقة بينهما ليست سويه ، وأن عليها أن تسأل نفسها الى اين سينتهى هذا كله . قالت : التهيت . قلت : نعم . قذفت كوب الماء فى وجهى . قالت : انت سافل.وبالأمس ، حرصت على المجىء بثوب أسود ، ضيق ، أنيق ومشقوق ، لحمها الأبيض الذى مضغوط داخله ، جسم فاجر ، أمام وجه تحية الحزين ، أجهشت بالبكاء ، خلف الشادر . كانت الدموع تصعد من أعماق سحيقه ، تصعد ، أمام وجه شفاف مكسور ، وجه تحيه ، كان كثيرا على النفس أن ترى تحية بعينيها المجروحتين وقلبها الصغير ، ذلك الوجه الحزين،وجه ناهد بدر ، ذلك الوجه الذى عذب صقر فى متاهة ، وقتله مرارا .. بورود سامة .

(٩)

توقف الحنطور أمام بيت صقر ، نزلت ، استدار الحنطور ، أثار غبارا . وقفت فوق الرصيف ، أتطلع الى النوافذ المغلقة . رائحة الصمت وشمس أغسطس ، وسط سماء معدنية ، شعرت بحلقى جافا ، وصداع خفيف فى جانب رأسى ، مشيت فى الشارع الضيق الظليل . كانت قطتان تتنازعان جسم فأرميت ، فى البيت المقابل كانت امرأة تنشر ملابس مبهرجة الألوان . كان الظل يسقط فوق وجهى . كان المدخل مظلما رطبا ، وكان يمكننى سماع أصوات قليلة خافتة من المدخل . كان صقر دخل بيتنا . رآه أمى . سألته : مالك ؟ . قال : لاشىء . قالت لى أمى فى المساء : وجه صقر وجه موت . ضحكت . لم أفهم . وقتها ماكان يمكننى أن أفهم .

كأن الموت كان يشع من وجه صقر قبل موته بزمن .. دون أن يدرى أنه يهبط اليه .

كان الباب مفتوحا ، والنساء يرتدين ملابس سوداء فضفاضه . كن جالسات فوق الحصير ، صامتات ، وكانت وجوههن بيضاء ، وكانت ثيات وجوههن حزينه ، بلون المآتم والجنازات . كانت أم صقر ينهن ، ذاهله

وخلفها فوق الجدار ، صورة صقر معلقة ، كان ينظر الى فراغ لانهائى . رأتنى تحية ، كأنما عرضا . وقفت كالمومة .. قالت « يحيى ياماما » قامت أم صقر ، صافحتى وقبلتنى بشفتين لزجتين ، وربتت على ظهرى . قالت : أخوك مات يايحيى .

انفجرت العجائز بالبكاء والعويل.قالت تحية « تعالى يايحيى » . أدخلتنى حجرة داخلية . سألتنى أعملك قهوة ولا شاى .. قلت لاداعى كانت عيناها مجهدتين ، كان شعرها ملفوفا فى ايشارب أسود.قالت ان الرجال خرجوا ليصلوا الجمعة وأنهم سيرجعون .. قلت اننى جئت لأطمئن عما اذا كانوا يريدون شيئا ، وأننى سأنصرف . قالت انها تريدنى بعد يومين لأرتب معها أوراق صقر . قلت إننى سأمر عليهم دائما . أخفت عينيها فى المنديل ، كانت دمعة منحدرة . قالت : لحظة أعمل قهوة ، وخرجت لتكمل بكاءها فى مكان آخر . شعرت بالحجرة واسعة حولى ، وسقفها عال . كانت النوافذ مغلقة ورائحة قديمة راقدة فى الحيطان والأشياء .

كانت الملابس ملقاة فوق الكنبة المقابلة . من جانب الباب لمحت أم صقر تنظر فى حجرها وذراعها ساكنان . اندفع الى فمى طعم حامض . شعرت بمعدتى تتقلب ، وبأننى على وشك التقيؤ . خرجت الى الصاله قلت سأرجع فى وقت آخر . شرعت وجوه النساء كلهن الىّ . رأيت تحيه تحمل القهوة وتنظر الىّ ، متوسلة.سمعت كلاما لم أفهمه ، وشفتا تحيه تنادياني ، قلت : فى وقت آخر .

كانت عينا تحية فى عينى ، لمحت صقرا .. يجرى فى الريح .. مفتوح الصدر والذراعين ، يصرخ بأعلى صوت .. يحيى .. يحيى .. يحيى ..

شعرت بصقر مات .. لقد مات حقا ، وشعرت أنه لايوجد سبب واحد على ظهر هذه الأرض يدعونى لأن أسلم بموته .

استندت على جدار البيت . تحت الظل القديم ، والسماء العالية ... أشعلت السيجاره الأخيرة فى جيبى .

صقر عبد الواحد
٥ أغسطس ١٩٨٤

قلت : انتهى . قالت : نعم . حملت الحقيبة . وقفت أمام شباك الدرجة الثالثة . دخلت المحطة . قالت نعم . لوت شفتها السفلى . رفعت شعرها . قالت نعم . إمتد الحديد فوقه العجلات . الصدأ والغبار . الدرجة الثالثة . فى يدى الحقيبة وتذكرة سفر . كانت نار تندلع . خرجت الى الشوارع . من زهامة العرق والزحمة . خرجت منها . قالت نعم . وأسنانها تلتمع فى ابتسامة لزجه . سوتيان وسروال ومطواه قرن غزال فى الحقيبة . الدم والليل والحديد والنار . قلت : سأرحل . كانت خلف المنضدة . وجهها متموج . عيناها شعلتان . خلف المنضدة جميلة وفاجره . خرجت من باب البار . عيناها فوق ظهرى . تخترقان ظهرى . قلت : تذكرة دمياط . فى الجو الثقيل الضاغط . بين الجدران العتيقة . الأعمدة والرخام . باب المرحاض مكسورا . عيناى كانتا هناك . بين فخذيها . أرى الغائط ساخنا . تتصاعد الأبخرة . قلت : إعطنى . قالت : اعقل ياصقر . كانت تمرغت وإنفتحت . يسيل فى يدى سائل لزج . أعتصر . قالت : بابى مستشار ياصقر . سألتها ، وقلبى يهبط كل السلالم الحلزونيه : التبى ؟ رشفت من المصاصه . قالت : نعم . وقفت فى الطابور . تحت السقف الأسود . أمام المقاطف والجلاليب والعصى . قلت : تذكره دمياط . ضغطت الجرس . انفتح الباب . سقط ضوء أصفر . فى رداء البيت . والنهدان يتطلعان . رائحة ليمون طازج . قالت : مجنون . قلت : أريدك ياناهد لا محالة .. قلت قلبى انكسر . دفنت وجهى بين نهديها .

عبثت أصابعها بشعرى . قلت أحبك . قلت : خذيني . أمى قالت : إن الله يعطى البرد على قدر الغطاء وأعطاك ياصقر طولا وعرضا لالزوم لهما . لانك ياصقر ، لست كبقية الأولاد . اذ جلست يومها أمام الورده . أربعة أيام . والمطر يهطل . أمام الورده . تنشق حمرتها من اخضرار البرعم .. وكيف هى .. فقط . مكظية وجميلة . مضيعة فى المدى . وقدماى انغرستا فى طين الأرض . أمام الورده . حتى لم يبق منى غير الرقبة . رفعونى بأيديهم صارخين . لاورود تتفتح فى الشتاء ياصقر . حملونى كالميت من أطرافى الأربع . ألقونى فوق السرير العالى . أمى راحت تمزق ثيابها وتصرخ . نحن فقراء ياصقر .. ستقتلنى ياصقر . قلبى حفظتها الفرس فيه سكين . تدفق الدم على جانبيه . اذ رأيت أمى تتحول الى دمعة كبيرة . تسيل فوق البلاط . وأنا حشرة تختفى فى شقوق بيتنا . قالت : لاأذكر أول مرة التقينا . قلت كنا فى الماخور الموحمى . امتدت ذراعك . جززت رقبتى بسكين . والدم اختلط بالملح . كانت ذراعاك بلون الرنجه . وصدرك كان مكشوفا. سألت وحلقى مسدود : التى كل شىء ياناهد ؟ . قالت : نعم.ضربت الحديد بقبضتى . تحت السقف الزجاج ، فوق الرصيف الممتد ، كنت بين جموع الناس أجرى . حقيبتى فى يدى ، بينهم بالجلاليب ، والفئوس والقشف والأسود والعيون المرهَقة والتذاكر والخوف ، والطين والصفير والملاحظ والرعب تحت المساء الهابط . قلت : كان جسمك برائحة البحر . تحت بشرتك ملوحة بالشمس . وأكياس الملح فوق كتفى . كنت هربت من بيتنا . نمت فوق الرصيف وفى الجامع وخلف العشش . حملت الحقيبة . باقى نصف ساعة على القيام .. وصول ٥ر١٢ . والمدينة المنسيه أمام البحر . نائمة بين دكاكينها . نائمة فى دمها الراكد . قالت نعم التى . التى من قبل أن نلتقى . قالت : أنت انسان محروم ... عواطفك مشوهة . كانت عيونهم تحفر وجهى . فى القاعة الصغيرة وأنا تحت عيونهم . آثم ومدان إلى النهاية . بدائى ومجرم ، كانت عيونهم تحرقنى . كانوا فوق . يشعون براءة ، كأن وجهى أصابه البرص . فجأة . تحت عيونهم . محروم ياصقر . ويحيى هناك . صامت ومكسور . المعركة معركتى . لايمكنه التدخل . ليته تكلم . كان ينظر الىّ . تكلم . بوجهه الحزين . كنت دفنت وجهى بين نهديها . وأصابعها فى شعرى . وموسيقى موزارت من الاسطوانة . قلت أحبك . قال يحيى : ليس حبا ياصقر . حملت الحقيبة. سوتيان ومطواه وسروال . دم وليل وسفر . جلست أمامى فى « ريش » قلت : تركت كل شىء وأتيت . لم يعد معى ما أنفق منه . أتيت لنصفى كل الخلافات . أريدك معى دائما . لاأعرف ان كان حبا ؟ طَلبت عصير برتقال . وضعت المصاصه بين شفتيها الثقيلتين. باللون الأحمر القاتم. وعيناها كانتا تنظران إلىّ هكذا . نظرة مكشوفة وعاريه : قالت أنت تريد شيئا آخر . قلت ماذا . سقطت عيناها الى أسفل . كانت تمص.تحيط شفتاها بالمصاصه ، فى التذاذ وحلم . قلت ماذا ؟ ضحكت ضحكة ممطوطة .. دائرية ، متوهة . قالت هذا . سألت التى ؟ قالت لاأعرف أول مرة التقينا . قلت : فى رأس البر . كنت فى ثانوى . هربت من بيتنا . نمت فوق الرصيف وفى الجامع وخلف العشش .. هربت من الدكان . كان أسوأ شىء أن أقف بين الخشب والمسامير فى أجازة الصيف . وأمامى دائما المعلم رجب . قالت : نعم . كانت ذراعاها بلون الرنجة . كان صدرها مكشوفا . طازجا وجديدا . وكان البحر .. البحر ياصقر . الـ .. ب .. حـ .. ر .. ر ... ر انفتاح نوافذ صدرك على شلالات النسيم المعطر .. على رائحة النساء الهائجات .. المحفوفات بأسرار المشابك والسوتيانات . الدبابيس والسراويل الحريريه ، والقوارير الغامضه . فى عالمهن البعيد أمام البحر . المغلق أبدا ياصقر فى فيلاتهن المضاءة بأنوار سحرية . فى شوارعهن الخرساء ، على رصيفها الورود والسيارات ذات الستائر وألوان الطيف .. النساء ياصقر ، عرقهن المالح الطعم وهضابهن الأسفنجية . غارقات فى الساتان . ولهيب الرغبة . ورجالهن الصلع ذوو البطون المدلاة فوق الأحزمة ، لسن نساءك ياصقر . لسن نساءك .. وسيهلك فى غمده لامحاله . لك الرمال والملح ، ولهم جنة اللحم المعطر فى غرف النوم . فى المصايف المواخير . وأنت هارب من الأخشاب والمسامير . تخرج من الموج المتكسر على ساعدك . فى فمك الرمل . يبدك الريح تحت سماء المتوسط الجافلة العارية . محروقاً فى قلبك وجلدك . فأنت أخيرا لست الا صبى بقال تقضى فى المخازن أكثر مما تقضى أمام الفتارين . حيث أنت فى الرطوبة العفنة والشوارع الخلفية وحجرات النوم ، تذوق لأول مرة فى عمرك ، طعم أن يكون اليون فى الامام . هناك . فى حين أنك فى الخلف . وجهك مظلم

ووروحك مشروخة . تعبىء أكياس الملح من الاجولة الكبيرة ، لتحمل فى نهاية الليل حصتك الى عالم الفتارين . لتنهى عمل اليوم . هربت من المسامير . سقطت فى الملح .. آخر الليل ترتمى منهكا بين الأجولة المنتصبة . معذبا بكونك لاشىء . وتنام أو يغمى عليك الى الصباح . تستيقظ كفسيخة مجففة فى الملح والشمس . لسن نساءك . ليس بحرك ياصقر . وأمك الآن فى الشباك . عيونها نوافذ مظلمة . وقلبها منخطف وراء روائحك فى الملابس . فى حين أنك تعدو وراء الوهم . كنت هنا ، أسفل المصباح المطفأ ، على كتفى حصة الملح . وهى كانت هناك . فى النور المنبعث من لامكان ، تائهة فى ثورة شعرها . حافية فوق رطوبة الرمل . ذراعها مشويان بالشمس . بلون الزنجبيل . لم يكن أحد غيرى . عيناها فوق صدرى . على وجهى . كأنها تسأل من أنا . وفى أى عصر التقينا ، وفى أى ضوء تعالقنا ، كأننا نتساءل فى الحلم ، والليل الشفاف ونجومه البلورية فى متناول اليد . اسمى صقر .. صقر عبد .. الواحد . أحمل الملح .. لست من هنا .. من دمياط .. أمى اسمها فوزية .. هربت من ضيق الورش والخشب . أتيت لأرى البحر .. أغير حياتى .. كأننى كنت أبحث عنك . كنت مختفيه خلف الستائر فى الفيلات النائمة على رصيف الزهور ، ألم ترى رجلا اسمه صقر فى حلمك . اننى صقر . من المدينة القريبة المطلة على البحر . أكتب الشعر ، رأيتك تشترين عطورا باريسيه من المحل الذى اعمل به . ذوقك رائع . يومها . رأيت ذراعا مشويا بالشمس يرتفع . هو ذراعك . وبدلا من أن تعانق . برزت سكين فى قبضة اليد . وأنا مستسلم . حززت النصل على رقبتى . انحززت ، سقطت رأسى ، عيناى تجمدتا ، كعينى سمكة فى الثلج ، رأيت دمى المسفوح على الرمل . ورأسى فى الملح . بعيدا عن قامتى المديدة التى يتعرش عليها بيت ، كنت منهكا ، وساقطا تحت الاطارات الملونه بدمى ، تحت السيارات النادرة . من عصور السوبر ماركت ، والدولار الحاد النصل . كنت منسيا أمام البحر .. الوحش الرابض فى الظلام . وأنت اختفيت . تبخرت من العالم . سألت : انتهى . قلت : نعم . بحثت عنك ، فى الشوارع والدروب والأزقة والوجوه ، خلف الستائر والصخور والأمواج والظل والصمت . فى الحارات والعشش ، خلف الصفيح والاسمنت . ضربتنى الشمس . دوختنى الليل . وقفت فى الظل أسأل نفسى . هل كان حلما ؟ .. ورأيته . أول مرة . فى الشارع المظلم على النيل . كان كيس الملح تضخم فوق كتفى . صار جبلا . كنت أتساءل . تحت مصابيح مطفأة . رأيته آتياً والبحر خلفه. وجهه قناع من خزف أصفر . يداه خشبيتان . بينهما باقة ورود غريبه . وورود متوحشه . كان الجدار خلفى .. والبحر رابض . وكيس الملح يتضخم . امتدت يداه الخشبيتان . نادانى باسمى .. خذ ورودك ياصقر . كان جسمى يتداعى . ورائحة زنخة تفوح من يديه . قلت : لا . اقترب منى . ورود لك ياصقر لك وحدك . قلت لا . كان الجدار صلبا . وكيس الملح جبلا فوق كتفى .. صرخت لا ... لا .. ألقيت كيس الملح فى وجهه . سمعت ضحكته .. ورودك ياصقر . قلت : انتهى قالت نعم .. من قبل أن نبدأ . حملت الحقيبة . مشيت فوق الرصيف . اندفعت مع جموع الناس الى الدرجة الثالثة . وصول ١٢٫٥ ليلا . ستكون أمى نامت . مغلقة على حزنها .. وتحية منتظرة فى حجرتى .. ترتب لى أوراق . ترهف السمع .. لعل الخطوة القادمة تكون خطوتى .. تبتعد الخطوات على الأسفلت .. ولاأحد . انشق الباب سقط ضوء أصفر فوق وجهى كانت فى رداء البيت . نهداها مفتوحان خلف الثوب الشفاف . قالت من ؟ قلت صقر . قالت مجنون . قلت : هل يوجد أحد ؟ قالت سيرجعون بعد ساعة . قلت لم أستطع أن أتحدث اليك وسط الطلبة .. أخذتنى من يدى . قالت : مجنون ياصقر .. لكنى أحبك . لفت ذراعيها حول رقبتى . قالت من يحبك يسير معك نحو كارثة محققة . قلت أحبك . انحنت علىّ ، وأنا فى المقعد الواطىء . قبلتنى فى عينى . قالت : طفل صعب . قلت : أريدك . كانت تمرغت ، وكنت مرغت وجهى بين نهديها . قال يحيى : ليس حبا . أنت لاتحب غير البرجوازيات . ياصقر . انطلقت صفاره . رن جرس . ووجهى خلف الزجاج . بالدرجة الثالثة فوق رأسى الحقيبة . استسلمت للضرب الضاغط . ضرب الحديد فى الحديد . انتزع جسمى فى المقعد مع أجسام الناس . أخذتنى نوبة السفر . كان القطار مشتبكا بجسمى بالليل بالحديد بالمسافرين بالاحلام بالهزائم . بالرعب بالأشياء . دوامة واحدة . تنطلق الى نقطة مجهولة فى طريق مزين باللافتات . شبرا .. بنها .. قويسنا .. سألت وقلبى يهبط وحيدا . انتهى ؟ قالت : نعم . لايمكننا أن نلتقى ياصقر . قال : جدى صقر يتعرش

عليه يبت . وخائب كالنساء . قالت أمي بعد موت أبي . سيبك من موضوع التعليم . شوفلك شغلانة ..
تساعدنا على المعيشه . قال جدى . خائب كالنساء .. قالوا : تبول فى الاناء . وسأل عن أمي والاولاد ثم مات .
فى نفس اللحظة التى دخلوا فيها بالغذاء . والردهة النظيفة خافتة النور . خالية من أى أحد . لان أحداً لايأتى فى
الظهيره . كنت واقفا خلف الضلفة المواربة . جاءت الممرضة . قالت : مافيش زياره ياشاطر . جلست فوق السلم
العالى وأمامى كانت الأشجار قصيرة ومقصوصه .. فى طابور طويل الى الباب الحديدى . قالت أمي إنها ستشترى
برتقالاً . لأن باب محجوب عن كل شيء . والدكتور قال إن عنده صفراء . وسمح له بالبرتقال الى جانب وجبة
المستشفى . كانت أمي لاتتكلم أبى قبل أن يمرض لأنه لايعطيها أى نقود . واذا كف عن الجلوس أمام الجامع ، ذهب
ليبيع الدبابيس والأمشاط للمصيفين فى رأس البر . كان يجعل أمي تبكى دائما . كان جدى يقول إن أبى مريض .
ولايقدر على العمل . فى ركن فيه ظل . كان تمثال وحيد تعبث تحته القطط . تمثال الرئيس . مددت أصبعى الى أنفه
الغليظ . ارتج قلبى من الضحك . كانت الأبله،مديحه تقول إن بابا جمال يكتب جوابات للأولاد الذين يكتبون له .
قالت ماما : بابا عايز يشوفك . خلعت المريله وارتديت الشورت الأزرق والقميص الأبيض ، كان خالى عبد الستار
اشتراهما لى فى العيد .. وماما سرحت شعرى . قالت ماما لجدى أن ينتبه للبيت وتحيه الى أن ترجع . سألتها : متى



سيرجع بابا .. قالت : لاأعرف . تركت يدى فى يد أمى التى سال العرق على رقبتها . جلست على السلم الرطب النظيف . تركت كيس البرتقال جوارها . قالت إنه لايستحق شيئاً. قالت تأكل برتقاله ياصقر قلت لا . لأننى حزنت . كانت ماما متعبة . وبابا لايحب أن يعمل ، واذا تكلمت ماما ضربها . رأيت العرق يسيل على خدها . كانت تمسح وجهها بمنديل ومع ذلك تعود الدموع تنزل من عينيها . قالت أمى : فضحتنا فى وسط الناس.قالت بكره تبقى دكتور ياصقر . وصوتها لم يكن صوتها . تدحرجت برتقاله منها لبعيد قامت لتأتى بها . مسحت الممرضة دموعها بمنديل . لم تقل شيئا . أمى نظرت اليها ولم تتكلم . جرت فى الردهة المظلمة الطويله . قال التمورجى .. لاحول ولاقوة إلا بالله . دفع أمى فى صدرها . انفجر كيس البرتقال . جرت حبات البرتقال على بلاط الردهة كأنها تتسابق . كان المرضى يطلون من الأبواب . وأمى محجوزة لاتستطيع الدخول . وامرأة لاأعرفها أخذتنى فى حضنها وقالت ماتزعلش ياحبيبى . وأمى لم أعد أراها لأنها اختفت فى الزحمة . والدكاترة يروحون ويجيئون فى الغرف والطرقات . سمعت أمى تصرخ . رأيت خالى عبد الستار خارجا من الحجره التى فى آخر الطرقه . أخذنى من يدى ومشينا فى الحديقة تحت الشمس . دفنت وجهى فى صدرها . سألت : هل يمكن لهذه اللحظة أن تستمر . قالت : ماذا تريد . قلت : لاأعرف . تخللت أصابعها شعرى . سألتها : لماذا تفر كل الأشياء الجميلة من بين يدى . قالت : أنت طفل صعب ياصقر . جلست خلف المنضدة . طلبت عصير برتقال . وضعت المصاصه بين شفتيها . قالت : جاءلى عريس . قلت : مبروك . قالت : لايمكننى الارتباط بك ياصقر . كنا داخل صندوق زجاجى . دخان السجائر يتصاعد . قلت : تركت كل شىء وجئت لنصفى الخلافات قالت : لن نلتقى . لتكن مخلصا لوضعك . سألتها : من ؟ قالت : معيد وشركة سياحة . قلت : أحبك . وضعت المصاصة بين شفتيها . سألتها : انتهى كل شىء . قالت نعم . قال يحيى : حتى لو كنت شكسبير عصرك .. ستظل ابن عبد الواحد . حملت الحقيبة . بها سروال وسوتيان ومطواه قرن غزال . قالت أنت فتشتنى. قلت : نعم . سأخذ روائحك معى أينا رحلت . قالت : مريض. وقفت فى طابور الدرجة الثالثة . باقى نصف ساعة ٢٢٫٥ وصول . وجهى ينعكس فى الزجاج.مظلم ومتعب . توقف القطار فى المحطة النائمة . حملت الحقيبة . سألتها للمرة الأخيرة وقلبى يدوسه الماره . انتهى كل شىء ؟ .. قالت : نعم .

تحيه عبد الواحد
١١ أغسطس ١٩٨٤

صحوت من النوم ساعة الفجر . غسلت رأسى . أيقظت جدى ليصلى الفجر . كانت أمى صاحيه ، تجلس فى الصاله فوق الحصير . الى جوار الراديو المفتوح على اذاعة القرآن . سألتنى . مش هتروحى المحل النهاردة . كنت أعرف أنها ستسألنى . قلت : بعد التالت . كانت حجرة صقر مغلقة لم يمسسها أحد . فتحت الباب والنافذة ليتجدد الهواء . كانت كتبه وأوراقه مبعثرة . نادتنى أمى من الصاله . قالت : سيبى كل حاجة زى ماهيه . قلت أن الحجرة متسخة ولى حاجة للتنظيف . قال جدى : اضبرى شويه يانحيه . أغلقت النافذة وباب الحجرة . جلست فى الصالة جوار أمى . قالت:صقر ده مش أخوكى ؟ قلت : صقر أخى .. صقر أخى . كانت الأقدام بدأت تخف فى الشوارع ، وأنا جالسة فى حجرته ، نظفتها عدة مرات ، ورصصت الكتب بالطريقة التى يحبها . كان عندى شعور أنه سيرجع الليله . فتحت النافذة . وقفت أنتظر . كان العساكر ينظرون الىّ ، وكذلك الماره ، كانوا يضحكون ويقولون كلاما قبيحا . رأيته قادما من أول الشارع . حاملا الحقيبه . كان غاب فى مصر أكثر من شهر ، وكان قال لى إنه ذاهب لناهد ليصفى خلافاته معها . اقترب من النافذة . كان وجهه أصفر ومتعبا وفى شعره تراب وملابسه

متـــخة . سألني: واقفه ليه ياتحيه ؟ قلت : أدخل ؟ استدرت لأفتح الباب وقلبي يتقافز من الفرح . كان شعرى مغسولا وملفوفا فى الايشارب الذى أهداه لى . دخل حجرته . ألقى الحقيبه ، استلقى فوق السرير بملابسه وحذائه .. تنهد .. آه قلت : مالك ؟ قال : اطفى النور . قلت : والعشا ؟ قالت أمي : صقر فين ياولاد ؟ قلت نايم . قالت أمي لسه نايم ؟ . كان جدى فى الصاله يشعل الجوزه ، وهى تصرخ صقر وتصرخ . كانت الشنطة معلقة بكتفى . قال : آه. قلت مالك ؟ قال اطفى النور . نظرت الى أمي وهى شارده . قالت : صقر فين ؟ كنت ارتديت ملابسى ، وحملت الشنطه ، وتأهبت للخروج ، قالت : تعالى نصحى صقر . قلت : والعشا ؟ قال : انت عملت عشا ياتحيه . قلت : كان جاهزا. نظر الى بعينين فيهما تعب . كنا نجرى على شاطىء الجربى ، وكان أبى يصرخ : ياولاد الكلب ، وكنا نجرى . ونتخبط فى أرجل الناس ، وآخر الليل بعد أن ينتهى أبى من بيع الدبابيس والسجائر والحلوى . يأخذنا ونحن نائمان فى عربة أجرة الى دمياط . قلت : مالك ياصقر . قال : انتهى . أشعلت الموقد . وضعت فنطاس الماء فوقه . فتحت الراديو على أغنية نجاة .. حمل الزهور الىّ كيف أرده . وقفت بالباب أنظر اليه . قال : بحبك ياتحيه . قلت : تتجوزنى ؟ ضحك . استلقى فوق السرير وضحك ضحكا عاليا رن كالأجراس. قال : اتجوزك انت ؟ قلت : يعنى أنا أرضى . جرى ورائى ، والأرض مفتوحة لاتنتهى . وأبى يحمل البضاعة فوق ذراعيه . يصرخ : ياولاد الكلب . انكفأت على الأرض . وقف صقر . انحنى فوق . قال : مالك ياتحيه ؟ قلت : مافيش حاجه . أمسكه أبى من رقبته . ضربه بقبضته فى ظهره ، وضربه بقدمه . سقطت البضاعة منه على الأرض . أمسكنا وراح يخبطنا فى بعضنا ويصرخ . راح أكل عيشى ياولاد الحرام .. كله راح ، وكان يدوس علب السجائر بقدميه . تجمع المصيفون حولنا . قال أحدهم . حرام عليك ياراجل انت . صرخ فيه صقر : مالكش دعوى يابن الكلب ، وجرى ليبحث عن طوبه يقذف الرجل بها . انحنى أبى يجمع البضاعة . وأنا رحت أجمع اللبان والدبابيس والأمشاط . اقترب صقر من أبى ، وكان الناس انصرفوا . قال : ماتزعلش . قلت مالك ياصقر . قال : انتهى . قلت : عملت ايه مع ناهد ؟. صمت فجأة . ووجهه تعقد ، وبان فيه كسور وخطوط . تنهد وأخفى وجهه تحت المخده . قالت

نجاة : حمل الزهور الىّ .. كيف أرده . قالت أمي : صقر فين ياولاد ؟ قلت : نائم . كنت ارتديت ملابسى . قالت أمي : لسه نايم ؟ — كان جدى فى الصاله . أمام الموقد . يشعل الجوزه . قلت : أنا همشى . قامت أمي من مكانها قالت : تعالى نصحى صقر . فتحت الحجره . كنت خلفها ، وهى تقذف بكل جسمها الى الداخل ، مرة واحدة ، وتصرخ .. صقر ، تصرخ صقر ، صقر وتصرخ . قال : أبوها مستشار وتاجر سيارات وعشة فى رأس البر وعريس معيد ومقاول وسياحه وعضو فى الوطنى الديمقراطى ، ونجم الفتاحى صاعد ، وأنا صقر عبد الواحد ، حتى لو كنت شكسبير عصرى وأنا لاشىء . قلت : طظ فى المستشار . رنت ضحكته فى الحجرة كالأجراس . قال : أتجوزك ياتحيه ؟ استلقى فوق السرير. جلست أمامه فوق المقعد . شددت رجليه ناحيتى . خلعت حذاءه وجوربه . نظر فى عينى . قال بتحيه . قلت : انت فايق ياصقر . شدنى من ذراعى . قال بتحيه . قلت : أيوه استريحت . سيب ذراعى . قال : قوى . قلت : ماأعرفش . قال : هقوله . قلت بسرعة . لاياصقر لما آخد الدبلوم . قال ياعفريته . قال : يحيى انسان وصديق وفى ، وكان اتخرج واشتغل فى دمياط . مدرس انجليزى ممتاز . حملت الجورب والحذاء خارج الحجرة . و‌ ‌حت الطشت الألمونيوم فى وسط الحجرة . فككت أزرار قميصه . طلبت منه أن يقعد تحت . خلع قميصه وجرى نحو ا‌ ‌حر ، نحو الموج العالى ، وأنا كنت واقفة على الشاطىء . خائفة من أن يتوه منى ، وكان أبى يجلس جوار ا‌ ‌شه . يرتب البضاعة ناديت .. صقر ... صقر . لم يجب . جريت نحو البحر . خفت من الموج والزحمه . رجعت . جلست أنتظر . كانت الشمس مستديره حمراء . كانت تنزل البحر . كنت أنتظر . والشمس تهبط . غاب صقر قلت لأبى صقر فى البحر . صرخ : ابن كلب . جرى فى الزحمة وأنا جالسة جوار البضاعة . أفتش فى زحمة الناس . ولا أراهما . غاب أبى ، وغاب صقر ، وأنا وحدى . تحت جدار العشه ، والموج يعلو ويهبط . وضعت البضاعة فوق ركبتى . ناديت .. صقر .. صقر . قال : بتحيه . قلت : بتحيه ؟ ناديت . جاء ناس وناس وناس وأنا أفتش بين أجسامهم . قالت : أخوك مات ياتحيه . قلت : القهوة . صرخت : مات . وأنا أبحث فى الليل

الهابط . بين أجسام الناس العراه . صرخت صقر ، وصرخت . اقترب منى ، ويده فى يدى . قال : انتهى . والموج يهبط ، ينحسر . علبة سجاير ياشاطره . باكو لبان . مشط كبريت . معاكى فكه . لسه بربزه . لأ كفاية . حملت البضاعة فوق رأسى . مشيت أفتش وسط الشماسى والمراجيح والجرادل . كان الأولاد يبنون بيوتا من رمل . يأتى الموج يأخذها . قالت أمى : صقر فين ياولاد . قلت : أيوه .. استريحت . رأيت يحيى يهبط نحو السوق ناديته . لم يسمعنى . قالت : أخوكى صحيح انتحر ؟ قال : انتهى . كنت أتقدم نحو البحر ، والبضاعة فوق رأسى . سجائر ولبان وحلوى دبابيس معجون أسنان وأمشاط كبريت . ناديت والماء يرتفع . الى ركبتى .. قال يحيى : دائما حزينه يانحيه ، والموج يعلو ، الى صدرى الى رقبتى ، والليل يهبط فى الماء ، فى وجوه الناس . فوق الحيطان والأعمدة والرمل .. يعلو ويعلو . تأخذنى الدوامات السفليه . صرخت : صقر . أخذتنى الموجه فى فتحة مظلمة . أخذت البضاعة .. تناثرت الأشياء فى الماء . صرخت صقر . قال : انتهى. قلت أنا همشى . قامت أمى من مكانها . كانت تكلم جدى عن الناس الذين كانت عندهم بالأمس . قالت أنها عملت حلويات من كل صنف ولم يعطوها سوى خمسة جنيه . قلت : والعشا . قال : عملت عشا يانحيه ؟ قلت : كان جاهز . حملت قطاس الماء الساخن الى الحجره . وضعت الطشت فى الوسط . جلس أمامى . وضعت الصابونة فوق رأسه وسكبت الماء الساخن . سال الماء من رأسه محملا بالصابون والتراب . نظفت الرغوة بيدى من وجهه . نظر فى عينى . سألنى : بتحبيه يانحيه ؟ . ضغطت رأسه لأسفل لأصب الماء . قلت : انت فايق . قال : يحيى يعرف ؟ قلت : ماأعرفش . قال : لازم يعرف . قلت : معقول يتجوزنى أنا ياصقر . أزاح يدى . رفع رأسه . ضرب قبضته فى الخشب . قال : انت مجنونة . قال : انت مجنونة يانحيه . بكى . سالت دموعه . خرج صوته باكيا غاضبا . بكى وقال : انتِ أجمل البنات ، وبكى . وكان جالسا . دموعه ، ووجهه ملطخ بالصابون والماء . رفع ذراعه . غطى وجهه بكفه . بأصابعه ودموعه تنزل . ثم لايكف ، وكان جسمه العالى قد تهاوى وصغر وراء القطاس . قال : يامجنونه . قالت : حمل الزهور الىّ .. كيف أرده . قذف الصابونه تجاه الراديو . أخطأته . قلت : انت فايق ياصقر ؟ . قال : أبوها مستشار ، وتاجر سيارات وعشه فى رأس البر وعريس معيد وسياحة على الآخر وعضو فى الوطنى الديمقراطى . قال : كل هذا لايهم . أخذت ماتريده . أخذت أهم شيء بالنسبة لها . قال : أخبارك أيه فى المحل ؟ قلت الشغل من ٨ : ٢ أبيع مشبك ، وأبيع مشبك ، وأرجع أبيع مشبك . قال : والمعلم ؟ قلت : جيوبه انفجرت فاضطر الى أن يتاجر فى الفيديو وقمصان النوم واللبان . يدير شبكة تهريب من النساء على خط بورسعيد والحكومة كلها فى جيبه . قال : والدبلوم ؟ قلت : ربنا يستر . قال : مش عارف مخك تخنين لمين ؟ . ضربته فى رأسه . قلت كفاية واحد فالح . قال : أعترف انى فالح . صببت قطاس الماء كله فوق رأسه . نادتنى أمى من الصاله . قالت : سيبى كل حاجه زى ماهيه . قلت أن الحجرة متسخة وفى حاجة للتنظيف . قال جدى . اصبرى شويه يانحيه . قمت فتحت حجرتنا . رتبتها . حملت الملابس المتسخه . وضعتها فى الغساله . قلت لأمى انى سأغسل . لم ترد علىّ كانت تنظر فى صورة صقر مع يحيى المعلقة فوق الجدار . قلت ارحمى نفسك . مسحت دمعة بمنديلها . دخلت حجرة صقر وأغلقتها خلفها.أوقفت الغساله . سمعت أمى تتكلم بمفردها فى حجرة صقر . أشار لى جدى أن أدخل اليها . نظفت يدى . فتحت الباب . كانت تضع قميص صقر تحت أنفها . أجهشت بالبكاء . أخرجتها من الحجره بعد أن خلصت القميص من يدها . طلبت منها أن تساعدنى فى الغسيل . قال لجدى إنه سيصلى ويرجع . أعطيته القسط وطلبت منه أن يشترى لبان بعد أن يصلى . قلت لها أن تخلع جلبابها لأغسله . دفعتنى فى صدرى . قالت . صقر ده مش أخوكى ؟ قلت : ليه ؟ قالت : اقفل الغساله . جلست فوق مقعد الحمام الواطىء .. قلت صقر أخى .. صقر أخى . بكى ، أخفى وجهه فى كفة قال : ياأجمل البنات .. رفع ذراعه القوى .. ذراع الرجل . فوق .. غاضبا وفى عينيه نار . صفع أمى على وجهها .. فوق والنار تشتعل . صرخ .. مش أمى ولا أعرفك . قلت : صقر رفسنى برجله فى بطنى ، صرخت وارتميت ، جمع كل مااشترته أمى من بورسعيد ، قمصان نوم وكلاسين وتفاح وأرواب . وضع كل شيء فى كومه واحده وصب عليه الجاز . صرخت أمى مش حاجتنا يابن الحرام . قال : بتهربى ؟ عملت أيه مع العساكر فى

الجمرك ؟ قالت : ارحم أمك ياصقر . ألقى عود كبريت مشتعل . ارتفعت النار الى السقف . خرجت أمي الى الشارع . تنادى الناس ليلحقوا المجنون . قالت أنها مازالت تنفق عليه ومع ذلك يضربها ، ويحرق البيت . خرج صقر وغاب شهورا عديدة . قال : انت مجنونة . وضع وجهه فى كفه . قالت نجاة : حمل الزهور الىّ كيف أرده ؟ .: قال أى ورود ياتحيه .. أى ورود ؟ قال : كأن الأشياء ليست حقيقية ، وكأن الكائنات مسوخ . قال : كأن كل الورود سامه .. وكل الحب مستحيل . قلت : مالك ياصقر ؟ قال يحيى رجل .. رجل حقيقى .. يتحرك وسط عالم حقيقى .. يتحرك مع مجاميع تؤمن به وتحبه . يدير المعارك فى مجلات الحائط ... ينتمى لحزب ، يشتم المباحث ويتهم الآخرين بالتهاون . قال : انه رجل ياتحيه ، وأنا لاشىء . رجل يؤمن بأشياء ويريد تغيير العالم . وأنا ؟ من أنا ؟ .. لاشىء . قال : مرة قرأت قصة ، لاأذكرها ، كان رجل يدخل عالما غريبا عليه ، ويكتشف أن كل البيوت واجهات فقط . لاشىء خلفها غير صحراء وموت . قلت : مالك ياصقر ؟ قال : ياأجمل البنات ، وبكى . جلست فوق مقعد الحمام الواطىء .. قلت : صقر أخى .. سألتنى أمى : صقر فين ؟ قلت : نايم . قالت : لسه نايم ؟ كانت الشنطه معلقة بكتفى ، وموعد العمل اقترب . قلت : أنا همشى : قالت : تعالى نصحى صقر . قال : اعملى شاى ياتحيه . دخل هو ويحيى حجرته . سمعته يكلم يحيى : نحن فقراء يايحيى . فقراء . تحيه أختى تعمل فى محل حلويات .. تخيل الى وقت قريب لم تعرف كيف تعد جنيه فكه . قال يحيى : الفقر سلاح ذو حدين اما أن يشوه الناس أو أن يعلمهم القدرة على المقاومة فى أنبل صورها . دخلت بالشاى ، قدمته ليحيى .. ثم صقر .. قال يحيى : ازيك ياتحيه ؟ عامله ايه فى المدرسة ؟ قلت : بنحاول . جلست فى المقعد المقابل . كان يحيى يرتدى قميصا خفيفا وحذاء من القماش ، وكان ينظر الىّ ، كأنه يرانى لأول مرة ، خرجت صففت شعرى وطرحته على ظهرى . أخذت صينية الكعك ودخلت قدمتها الى يحيى . نظر الىّ ، ثم نظر الى الصينيه ، ابتسم . قلت : شوف بعرف أعمل كحك ولا أيه ؟ . سألنى : بتحيه ، رفع يده . أخفى وجهه ، ودموعه تنزل ، وجسمه تهاوى ، بكى . قال : يحيى يعرف ؟ قال : انت مجنونه . وضعت الصينية أمام يحيى . ضحك صقر . قال يحيى : أرجح من النظرة الأولى أنه جميل . قال صقر : يلزمك نظارة . راح يحيى يقلب فى مجله عليها صورة ياسر عرفات يحمل طفلا . ومن تحته عبارة .. ثورة حتى النصر أشعل صقر سيجاره وراح يرتشف من كوب الشاى . قال يحيى : لاأحد يعرف لمصلحة من كل حمامات الدم هذه ؟ قال صقر : تحيه عايزه تعرف رأيك فى الكعك . قال يحيى كأنه لم يسمعه : رفاق الأمس فى النضال ضد اسرائيل والكتائب هم أعداء اليوم . قال صقر : هل يبدو ذلك غريبا ؟ قال يحيى : كانت رفقة السلاح بين أمل والفلسطينيين على أرض طائفية ولذلك باءت بالفشل . قال صقر : جان جنيه قال ان الفلسطينيين على حق لأنه يحبهم . قلت ليحيى : اشرب الشاى . قلت : والكعك . ضحك . نظر صقر فى عينى . سألنى : بتحيه ؟ قال : انتهى . قال يحيى : عاشت ايديك ياتحيه . أخرجت الصينية . نظرت فى المرآة . استلقيت فوق السرير . نظرت مرة أخرى فى المرآة . دخلت حجرة صقر . جلست فى المقعد المقابل . أمام يحيى . كان صقر ينظر الى . رأيت فى عينيه حزنا . صمت . قال يحيى : هل رأيت الذهول على وجوه الناس والخيانة الصريحة تقدم لهم كبطولة . كان ذلك تمهيدا جيدا لنافورة الدم فى صابرا وشاتيلا وبقية المخيمات . قال صقر بعد أن استلقى على سريره : اننا نعيش عصرا كاملا من الخيانة أو قل الوضاعة . قال يحيى : من يخون من ؟ قال صقر بحدة : الناس فى هذه البلاد بحر عجيب ، بحر من البشر ، منفلت . يشيعون ناصر بالروح والدم ويستقبلون نيكسون كبطل ويموتون فى الحرب ويصفقون لكامب ديفيد ويكسرون القاهرة فى انتفاضة الجياع . لاتلمنى هكذا سماها الغرب . سألنى يحيى : أيه رأيك فى كلام صقر ؟ قلت : كويس . ضحك وقال : أختك معلك . نادتنى أمى ، قالت : صقر فين ؟ قال صقر : لم أعد أراهن على شىء . سألتنى فين ؟ قال : رجل .. كل أشيائه حقيقية ، وفى الكلية كان يفعل أشياء هامة .. هامة ياتحيه ، فى المعرض ، وفيلم عن المذابح فى المخيمات يعرضه ويعلق عليه ، والبنات البرجوازيات يصفقن له ياتحيه . وأنا كنت فى الظل . فى النور الكاذب ، فى الأشياء الوهمية والضجر . قلت مالك ياصقر .. قال : ألوك حزنا قديما ألوك صمتا وموتا ولحظات تفر . قلت مالك ياصقر . قال انتهى . قلت أنا همشى . قامت أمى من مكانها . قالت : تعالى نصحى صقر . فتحت الحجرة .كنت خلفها ، وهى تنقذف بكل جسمها وتصرخ .. صقر.سألته عملت ايه مع

ناهد ؟ نشف رأسه بالفوطه وراح ينظر فى المرآه . استدار غاضبا . قال : سيبى الشنطه . صمت لحظة قال : ماتزعليش ياتحيه أنا تعبان شويه . أخرجت الطشت والفنطاس . ناداني صقر . قال : علاقتى بناهد انتهت . قال عايز أنام يومين . تمدد فوق السرير . سألنى : فين أمك ؟ قلت : نائمة . سألتى أمى : صقر فين ؟ كنت خلفها . فتحت باب الحجرة بهدوء أطلت برأسها . انقذف كل جسمها فجأة داخل الحجرة ، وأنا كنت فى الخلف . أحمل حقيبتى ، وخلفى كان جدى جالسا فى الصالة . صرخت أمى . صقر . كنت لم أر شيئا . كان الجو ثقيلا والهواء مكتوما داخل الشقه . صرخت .. صقر .. صقر وصرخت صقر وصرخت وأنا كنت واقفه أمامه . قلت اخلع قميصك .. وضعت الطشت فى الوسط . كان الماء ساخنا ، خلع قميصه وجرى نحو البحر ، نحو الموج العالى ، والشمس مستديرة وحمراء ، تنزل فى الماء البعيد. تقدمت خطوة.. بين الجدران الأربعة.. نحو صقر الممدد.. بقامته الفارغة، كأنه يبتسم.. طويلا.. مفتوح الصدر.. صلبا كالصخرة .. صقر أخى ، أزرق وفى قبضته باقة ورود .. باقة ورود فى يده .. وأنا فى الخلف.تقدمت خطوة طويلة .. طويلة ، نحو صقر أخى .

ناهد بدر
١٨ أغسطس ١٩٨٤

ارتديت ملابسى . وقفت أنتظر فى الشرفه . ناديت أخى سامى . قال إنه يجهز العربه . سألتنى أمى الى أين ؟ قلت بيت صقر . كأننى قلت بيت الموت . أعرف أنها تبغضه . لكن الموت منعها من الصراخ فى وجهى . ناديت سامى . أخرج العربه من الجراج . توقف أمام العشه . قالت أمى وهى تكتم غضبها إن لاداعى لهذه الزيارة ، وأن الزيارة الأولى تكفى . حملت الحقيبة . ونزلت الدرج بسرعة . فتح سامى باب العربه . ارتميت منهكة فى الداخل . صدمتنى رائحة الجلد ودخان السجائر . طلبت من سامى أن يقود بسرعة . كنت أشعر كما لو كانت جدران البيوت تضغط فوق صدرى . سألنى سامى الى أين ؟ قلت « بيت صقر » أوقف العربه ونظر الىّ برهة . قال « مجنونه ».وقاد السيارة نحو شارع النيل . فتحت زرار البلوزة العلوى . دخل الهواء الى صدرى . تنفست . منذ جئنا رأس البر لم أنزل البحر . المجارى لاتطاق . قلت لسامى ان يعذرنى . قلت إننى أردت هذه الزيارة لتصفية مسألة بسيطة عالقة. عينا تحيه كانتا فى عينى. عينان واسعتان ، مفتوحتان . تنظران الىّ. تعريانى . تتهماننى وأنا جالسه وسط النساء لابسات الأسود ، كأنها تقول اننى قاتلة صقر وأننى أقتل القتيل وأمشى فى جنازته ، حتى ام صقر . أفاقت من غيبوبتها ودققت فى ملامحى كما لو كانت تتساءل أين رأت هذا الوجه .. أين ؟ . شعرت بأربع عيون تخترم جسمى . عيون هى عيون صقر ، من كل الجهات مصوبة نحوى . أول مرة أشعر بالموت . وأشعر أن صقر كان سائرا اليه ، بأرجله القوية المشعرة ، وصدره الصلب.بيديه الصخريتين اللتين تركتا حفرا فى جسمى . كان الموت جاثما فى هذا البيت الفقير المكتوم الأرضى ، المترب ليل نهار ، وعينا تحيه تنهشان وجهى . أردت أن أفر من هذا الكابوس . كانت أجسام النساء ، المتلاصقة تمنعنى ، وعيون تحية ترقبنى . أنهم لايعرفونه .. لاأحد يعرفه كما عرفته . صقر مجنون . طلب منى أن ينام بين فخذى.ليلة بطولها . جرنى من شعرى فوق البلاط . طاردنى فى كل مكان حتى التواليت وغرفة نومى . فضحنى بقصائده فى الجامعة . سرق ملابسى الداخلية ملوثة وعرضها على أصدقائه فى المقاهى وكتب فيها شعرا . أراد صقر أن يقتلنى لأننى لم أحبه . ماكنت أستطيع حب مجرم . قال إننى لست الا نحلة شبقه تفتش عن أقوى الذكور . احتملته . طلبنى فى التليفون بعد منتصف الليل قال إنه يريد رؤيتى فورا . صرخت لايمكن وقفلت السكة فى وجهه ، من يومها أعلن الحرب علىّ . ماكنت أتصور أن يتحول الى مجرم سفاح . كان يعاقبنى على أخطاء وهمية . وكنت أحتمله . لسبب بسيط هو أن صقر تسلل الى دمى . كانت حياتى لوحة من الزجاج الملون .

ضربٌ صقر قبضته فيها تناثرت شظايا . قال انه قابلني أول مرة فى رأس البر ، وأنني فى هذه المرة خدعته ، وقابلت حبه بالذبح . قال إنني قتلته مرارا، وأنه لم يعد سوى شبح . قلت : لم نذهب لرأس البر منذ عامين ياصقر . كذبني . قال ان ذكرى اللقاء فى قلبه جرح لايندمل .

أول مرة رأيته فى الجامعة الامريكية ، فى حفلة لأوركسترا برلين . هو الذى كلمني أولا . طلب مني « البنفلت ».قال إنه يشعر بموسيقى هايدن تتفجر كعروق من ذهب خالص ، وأنه لايحب الموسيقى الألمانية الحديثة لأنها موسيقى شكلية ، فاقدة الروح . وسألني عما اذا كنت أوافقه . قلت انني لست مستمعة جيدة ، وأنني أحب الموسيقى التى ترتاح لها أذنى .

قال بتهكم :

ــ موسيقى النوم

لم أفهم ماذا يقصد التفت اليه . قلت .

ــ مش فاهمة .

كأنه فوجىء بسؤالى . اضطرب وجهه . صمت برهة . قال .

ــ الموسيقى الهادئة .

كان وجهه حزينا . كان كالولد الذى كبر فجأة دون أن يدرى . الذى يرى صقر أول مرة يخاف أن يلمسه . ان جسمه فيه شىء خطر . شىء مغناطيسى . شىء جعلنى أستلقى فوق صدره . أسمع ضربات قلبه ، وتنفسه . كان جسمي يذوب بين يديه . وأتركه يفعل مايشاء دون أن أدرى . كأننى دخلت الى عالم آخر ، تحكمه قوانين سرية لايعرفها سواه .

سألنى عن اسمى . قلت : ناهد .

قال لى بعد ذلك بعدة أشهر أن اسمى بالمقلوب هو (دهان) وأن فى هذا تلخيص بديع لى وللطبقة التى أنتمى اليها . نحته فى اللحظات التى يرتفع فيها اللحن الى الذروة ينقبض وجهه وترتعش يداه . لم أره يصفق مرة واحدة . حتى ظننت أن العزف لايعجبه .. فى فترة الاستراحة خرج ليدخن . شعرت بالارتياح . كما لو كان كابوس ثقيل انزاح من فوق صدرى . وبالرغم من ذلك شعرت بالفراغ . كانت أول خبراتى عنه أن حضوره حضور قوى مقلق ، وأنه يترك فراغا لايمتلىء . أنه يشيع الاضطرابات أينما حل . بقصد أو بدون قصد . عاد قبل انتهاء الاستراحة . ووقف أمامى غاضبا ومشتعلا . قال : ألم نلتق من قبل ؟ قلت : لا . قال : انت كدابه . قلت : انت مجرم. حملت حقيبتى وجريت بين المقاعد . فيما كان رواد الحفل ينظرون الىّ فى ذهول . كنت خائفة من أن يتعقبنى . خرجت الى الشوارع . جريت فى شوارع جانبية . نظرت خلفى . تنفست . أغلقت باب حجرتى خلفى . ونمت مريضة . كان العرق يسيل من جسمى بغزارة ، وكان الليل يتكاثف . طبقات فوق طبقات ، وكان النوم بركة أسقط فيها بكل جسمى . أنام نوما طويلا صامتا ومغلقا نوما أبيض كفقدان الذاكرة . كأن كل الصور والهواجس والأحلام قد إمحت . شعرت كأننى لن أخرج من هذا النوم أبدا ، كنت مسلوبة ومشلولة القدرة ، وفى لحظات اليقظة الفجائية ، كنت ألمح عينيه بحرين متلاطمين أسودين . عينان مصوبتان الى صدرى . عينان تغرقانى ، تحيطان بى . كنت أصرخ وأصرخ ولا يسمعنى أحد ، فى ليل طويل ، حالك ، وكان جسمى غائرا فى الفراش ، مهدودا ومستسلما فى ضعف لذيذ . كان صقر قد اقتحمنى . كان كسر الزجاج ، ودخل بين الانقاض طويلا .. عاليا ، ومشعر الصدر . كنت سقطت فى وحلة ، وكنت هشة وفارغة . حاولت أن أذكر ، هل رأيته من قبل ؟ هل رآنى . قال : انه كان يحمل الملح فوق كتفه ، وأننى تقدمت وذبحته وأن رأسه سقطت وعينيه تجمدتا كعينى سمكة فى الثلج . هل قتلت صقر فى أى عصر آخر . من قتل صقر ؟ ... حملونى الى طبيب أوصى بالراحة وتغيير الجو . كانت رائحته ، رائحة الذكر ، عالقة فى أنفى ، وكنت أراه فى الحلم يرفع يدا بأصابع خمس ، أصابع كاملة الاستدارة ، تهبط اليد من العلو الى نهدى العاريين ، تقبض عليهما . حتى يصفيا كل مابهما ، وكنت أسأله ماذا تفعل

ياصقر ، يقول أحبك . أوقف سامي السيارة أمام محل مرطبات . قال إنه سيشترى علبتي عصير ويعود . نظرت فى المرآة ، رأيت وجهى ، صار وجه امرأة تقلبت فى نار الرجال . كان صقر مجموعة رجال وأطفال معا . كان يتجسد كل يوم فى صورة مختلفة ، حتى انني لم أكن أعرف أعامله وكيف أرضيه . والغريب أنى كنت حريصة على صقر ، رغم أننى لم أحبه فى أى يوم ، ولا فكرت فيه ضمن مستقبلى . كان خليطا عجيبا من السوقيه الرخيصة والنبل الارستقراطى . وكان يحب أن ينام بين نهدى . وكان يقول دعينى أشرب من النهر الجارى بينهما . كنت أتركه يفعل وكنت أضمه وأضمه . كان يهبط على كالليل فلا أرى غير التماع عينيه . وفى الجامعة كان يحرص أنْ يجعلنى أرى علامات أظافرى فى جسده . ويهددنى بأن يريها للزملاء . قلت : افعل ماشئت . جرى ورائى فى الردهة المظلمة بالكلية . رفع ردائى . قال فخذاك يضيئان فى الظلام .

وقفت وسألته :

ــ ماذا تريد منى ياصقر

صمت ، نظر فى عينى . كأنما ينوى تقرير مصيرى .

ــ بيننا حرب لاتنتهى

صرخت فى وجهه الرخامى

ــ حرب .. انت مجنون .. أى حرب ؟

قال بحزن وغضب

ــ حرب عمرها آلاف السنين بين أولاد الفقراء وأولاد الأغنياء .

ــ ومادورى أنا ؟

ــ ذبحتنى

ــ أنا ذبحتك ؟

ــ انتهكت حبى .

ــ أنت مريض

ــ سأعلمك ماهى قدرات المريض

ــ ابعد عنى

ــ ألا أمتعك ؟

ــ مريض

ــ قولى لسيادة المستشار إنك انجبت فتاة شهيه .

قذفت الكتب فى وجهه . صرخت . تجمع الطلبة حولنا . انحنى على الأرض يجمع الكتب . قال أمام الطلبة .

ــ الخائفين الفئران ؟

ــ ومن هم أقل من الفئران .

ألقى الكتب من فوق السلم ، ابتسم بسمة خفيفة ساخره ، وشق طريقه وسط الطلبة . كانت عيونهم مصوبة نحوى . تتهمنى وتسخر منى ، حتى طلبة الجماعات الدينية . قال لهم صقر عنى شيوعية ، وحذرهم منى . عندما قابلنى نصحنى أن أحترس . قال إنهم يحملون مطاوى قرن غزال ، وأنهم أعلنوا الجهاد المقدس ضد النساء المتبرجات والشيوعية . قلت له لكننى لست شيوعية . قال لن يصدقوك . ألم توقعى على ورقة المطالبة بعودة الكافيتريا التى أغلقوها . كل من يطالب بكافيتريا فى الجامعة شيوعى ملحد . قابلنى يحيى فى البوفيه . كان لايكلمنى الا نادرا . قلت تفضل . قال :

ــ ابتعدى عن صقر ياناهد . انه مريض ولايحتمل مأساة فوق مآسيه .

ــ من قال لك اننى أريد أن أرى وجهه .

قال كأنه لم يسمعنى .
ــ هذه علاقة مريضة ومحكوم عليها بالفشل .
جلست أمامه على المنضدة . قال :
ــ عليك أن تسألى نفسك الى أين سينتهى هذا كله .
قلت : انتهيت
قال : نعم
قذفت كوب الماء فى وجهه . قلت سافل انت وصاحبك . جريت الى الباب لأخرج قبل أن يفيق . إنه مجنون كصاحبه ، يمكنه أن يفعل أى شىء . كان قلبى بدأ يسقط فى منحدر سحيق . جاء سامى بعلبتى عصير برتقال . أخذت علبة . شعرت بها رطبة بين يدى . وضعت المصاصه فى فمى . كان يتهكم كلما رآنى أتعامل مع هذه الأشياء . يقول :
ــ تجيدين التعامل مع مزايا الانفتاح .
وكنت أقول
ــ ليس لى فى السياسة ياصقر .
حاولت الاقتراب منه لأفهم سر الخلاف بيننا . لأفهم سر التوتر الذى ساد علاقتنا . قلت : لنحدد الخلاف ياصقر .
ــ الخلاف .. أننا نسير فى طريقين لايلتقيان
ــ يمكن لأشياء أخرى أن تجمعنا .
ــ تقصدين الجنس .. نعم أوافقك ، بشرط أن أظل ذكرا وأنت أنثى .
ــ لاأفهم
ــ الرجال الفقراء أمثالى ، يتصورون أن بامكانهم الانتقام بحرابهم التى بين أفخاذهم .
ــ سأمنعك .
ــ لاتستطيعين .
ــ لماذا ؟
ــ أشياؤك تحت يدى
ــ تبتزنى ياصقر ؟
ــ بل أحاول أن يكون لى بعض الأسلحة .
ــ ألا تؤمن بالضمير ؟
ــ أى ضمير ؟
ــ الله
ــ أننا نتعامل مع الهين مختلفين .
ــ الله حقيقة واحدة مطلقة .
ــ لكن نظرة الناس اليه ليست واحدة .
ــ ماذا تريد ؟
ــ لا أعرف
ــ تحبنى ؟
ــ أكرهك وأحبك .
ــ مشكلتى فى نظرك أننى غنيه .

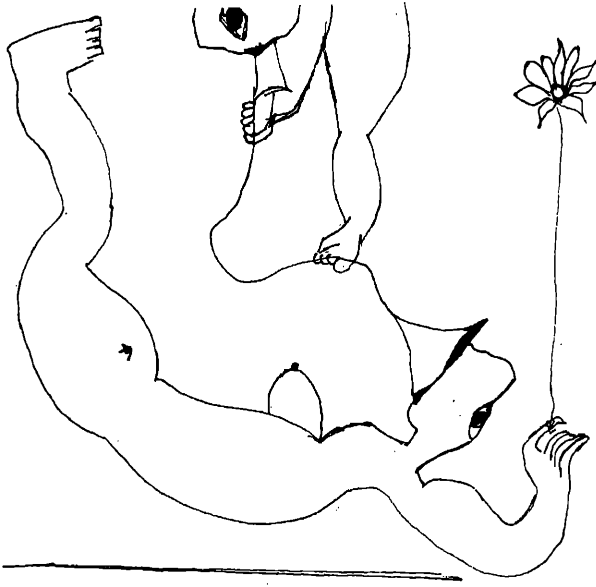
ـ مشكلتك أنني صقر .
ـ بابا تعب فى حياته .
ـ ....
ـ كان يحكم ببراءة تاجر المخدرات لأسباب فى الشكل ويخرج يتشعلق فى أتوبيس ، بينما يخرج تاجر المخدرات فى مرسيدس أحدث طراز .
ـ ....
ـ بابا باع ميراثه فى الشرقيه وافتتح تجاره باسم أمى .
ـ ....
ـ لسنا كما تتصور ياصقر
ـ أمى تخدم فى المنازل ... تصنع الكعك والحلوى مقابل قروش ، كان أبى مجنونا ، يسرح ببضاعته على ذراعيه فى مواسم الصيف .
ـ أين الخلل ؟

فتحت الباب . رأيته واقفا . طويلا ووحيدا . كنت برداء البيت . قلت يامجنون . كان كل من بالبيت قد خرج . قلت سيرجعون بعد ساعة . قال دعينى أشرب من النهر . غرست أصابعى فى شعره . قال خذينى . ضممته الى صدرى . شعرت بالليل يهبط ضاغطا . تنهد .. قال : آه . كان عندما يبلغ به الالم منتهاه ، يصرخ : آه . كذلك عندما يبلغ ذروة الوجد . كنت أحلله . أشم جسده المالح . جسده الغاضب ، طعم عرقه . وكان قلبى ينخلع ، فى اللحظة المسروقه التى نلتقى فيها . لم يكن صقر أول تجربه . وان كان هو الأول بالنسبة لى . كان فريدا كالعملة النادرة . أجبرنى على تجاوز سنى وخبراتى . كنت استسلم له . سألنى : من قبلك أول مرة ؟

ـ ابن عمى
ـ كان يحبك ؟
ـ كان يعبد جسمى
ـ كيف ؟
ـ كان يطلب منى أن أتعرى بينما يركع ويقبلنى
ـ وأنت ؟
ـ كره الحياه هنا وهاجر الى أمريكا .
ـ أحبته ؟
ـ لا أعرف
ـ ما اسمه ؟
ـ أكسم
ـ اسم شيك .
ـ جائز
ـ هل عمل فى مصر ؟
ـ أبدا . كان طالبا فاشلاً فى الجامعة الأمريكية .
ـ كنا نأخذ فطيرا فى الابتدائية ويقولون اله معونة من أمريكا .
ـ بابا قال ان جمال خرب البلد وقعد على تلها .
ـ هل لها تل ؟
ـ لا أعرف جغرافيا .

ـ تعرفين الصلاة لجسمك فقط ؟
ـ أنت مجنون ياصقر

ألقيت علبة العصير الفارغة من النافذة . استسلمت لنسيم الطريق الزراعي . كان سامي يضع المصاصه في فمه ويقود ، ويرقص على أغنية ديناروس . طلبت منه أن يلقى المصاصه حتى لايعمل كارثه . قال إنه مستريح هكذا . كان صقر يكره المصاصه ، ويقول أنها ايحاء جنسي فاضح ، ويتهمني بالشذوذ. كنت أعرف أنه يحب يحيى ، ويأخذ كلامه كمسلمات . قلت له إن يحيى سيفسد رأسه بكلام فارغ . قال إن يحيى انسان . قلت : مغرور جدا . قال : بالنسبة لأمثالك فقط ، إن غروره سلاح ، إنني أحب يحيى وأحسده،ليتني كنت مثله . سألته : وماذا يمنعك . أمسك ذراعي بقبضته قال : أنت.وضحك كما لو كان يبكي ، ضحكا عاليا فارغا . قلت : الغيرة ستأكل قلبك .. قال : ليس قبل أن أغرس الحربه في طينك ، وأعلمك ماهي المصاصه الحقيقية . وفي مرة ، نادى يحيى ليشرب الشاى معنا . قال : نسكن في حجرة واحدة ولا نلتقى الا نادرا.جاء يحيى حاملا مجموعة من الكتب والمجلات . قال إنه مشغول باعداد عدد خاص عن جنوب أفريقيا ، وإنه يبحث عن صورة مناسبة للزعيم الأفريقي « نيلسون مانديلا »



قال صقر : تحت يدى صور لنجوى فؤاد . قال يحيى :
ــ وقتها لم يحن بعد
ــ واذا كانت مع كيسنجر ؟
ــ الامر يتوقف على المكان والتوقيت .
قلت : انني سأنصرف
قال صقر : ليس قبل أن تعرف حكاية المصاصه من يحيى
قال يحيى : أية مصاصة ؟
قال صقر : أنت تعرف
نظر اليّ يحيى ببرود . ووضع كتبه فوق المنضدة . قال :
ــ لا أريد أن أقول كلاما فجا ياصقر .. عندما يتعلق الأمر بالناس والوطن فالمسألة لاتحتمل الضحك .
ــ لا أقصد الاثارة كل هذه المشاكل ...
ــ ماذا تريد أن أقول ؟
ــ ماتراه صحيحا بشأن التقليد الوافد .. والذى يتلخص فى امتصاص المشروبات الغازيه عبر مصاصة ..
قلت : صقر يريد أن يضحك .
قال يحيى : اسمع ياصقر ، لاأريد أن أقول إن المثقفين هم أقرب الناس للخيانه ، لقدرتهم العظيمة على التبرير ، أريد أن أقول إنه فى الوقت الذى تبيع فيه مصر استقلالها الوطنى لأجل : أكوام من السوتيانات والألبسه وعلب العصير وأفلام الجنس والفيديوهات والجوارب الحريرى الى آخر القائمة ، أقول فى نفس هذا الوقت تبحث عن المثقفين .. لاتجد أحد . لاتجد غير الغرق فى هموم الذات ، والطموحات الصغيرة ، وعبادة السلع والجنس . وتجد الفن عنفا وعريا أو طقوسا سحريه ، لاتعرف لمن ؟
اذهب الى بورسعيد .. الناس هناك يسكنون فى أعشاش كالمقابر دون ماء ولا هواء ولامجارى ... ستجد فى نفس الوقت ، الفيديو والتليفزيون الملون والاناناس . وأهم من ذلك ستجد الناس قد تحولوا الى مرتشين وقوادين .
وضع صقر يده خلف رأسه . أغمض عينيه ، كان مضطربا وقلقا . قال يحيى :
ــ أنا مضطر أمشى
مد يده نحو صقر ليصافحه ، مد صقر يده بتثاقل ، قال فى صوت خفيض
ــ ومع ذلك .. أحبك
وضربه فى صدره ضربة خفيفة بقبضته . قال :
ــ شكرا على الخطبة العصماء ..
بعدها قلت لصقر ، إن صاحبه سيدخل السجن بسبب أفكاره . قال :
ــ تعددت الأسباب والسجن واحد .
ــ كوكتيل جنون ياصقر
ــ أريد أن أصلى
ــ كافر
ــ اعطنى فرصه لأبرهن على ايمانى العميق
سألت نفسى . هل أحب صقر ؟ لا . لا أحب صقر ولا أكرهه . اذاً لماذا علاقتى به . لماذا دورانى المحموم حوله . كأنه اله ولنى أعبده . اله ذو أرجل وأصابع وشعر . ان جسمى يتهاوى أمامه ، يتهاوى وينفتح ، دون خجل بل وبرغبة معلنة . أجدنى أكشف جسمى ، تحت عينيه الصقريتين ، تحت تنفسه الحيوانى ورائحته الطاغية . كان يصعد السلم ، يمشى فى الردهة .خطواته دهس ، كأنه يدوس كائنات خفيه يسحقها . وكان قلبى يخفق ، يكاد

ينخلع ، وجسمي ينفك بين ذراعيه ، كان يضيء النور ، يصر على الضوء ، وكنت أغمض عيني بينما يفحصني . وكنت تلويت تحت ليله . انقلبت معدتي في فمي . تقيأت على صدره ، سائلا أصفر عنيفا. راح يمسح القيء في صدره ، في شعر صدره النامي ، وكان يضحك ضحكة جوفاء . قلت : يامجنون . كان يأخذني من يدي الى دهاليز سحريه ، وكنت أخاف وأرتعد ، أرى أصابعه الحجريه صاعدة هابطة في الظلام ، تنغرس في اللحم ، يسيل عرقه مالحا لزجا ، كان غاب كثيرا ، وكنت فزعت لغيابه . كانت الطرقات كلها خاليه منه ، وكنت مجنونة لا أنام الليل ، كان غاب عني . سألت عنه أصدقائه . لا أحد يعرف عنه شيئا. قال أحدهم : لايعرف أحد أين اختبأ ذئب البوادى . وكنت أفتش عنه وسط البلد ، في ريش والأتيليه ، في الشوارع الجانبيه . والمقاهى القديمة . أين راح . ذهبت الى باب البحر ، ادخل شوارع أخرج من شوارع . كنت أموت ، سألت يحيى ، قال لى أن أبتعد بدلا من أن يصفعني. قال: في غرفته وأعطانى العنوان. كان الهواء الخماسينى ساخنا محملا بالتراب. شعرت بجو القاهرة ضاغطا والاسفلت يتوهج . كان العرق يسيل لزجا على جسمى ، وكان ذا رائحة كريهة . قال صقر إنه يعشق رائحتى ، وأنه يشمها من بعيد فيهتاج ، حملت الحقيبة والكتب وأوقفت تاكسى أمام الجامعة . وجدتنى أقول « دار السلام ». يحلق في السائق برهة ، واشترط « اثنين جنيه » وافقت . أعاد بحلقته في . دخل الهواء من النافذة حارا . فتحت زرار البلوزه العلوى. سألت نفسى : الى أين ؟ ماذا فعل بى صقر عبد الواحد . من أنا ؟ وماجدوى مأفعله .... أى خيوط ربطت مصيرى بمصيره . كان يأخذنى من يدى الى الأحياء المتداعيه في السيده ، والقلعة ، وباب الشعرية ، وباب البحر ويصر على تناول الشاى فى أحد المقاهى الرثه ، وكان يدعو الآخرين للجلوس معنا ، ويقدمنى على أننى أخته . كان العالم يدور بى ، وأوشك على التقيؤ . قلت وماذا بعد ؟ يقول عليك أن تسألى نفسك من سرق حق هؤلاء فى الحياة ، ويشير الى الأطفال العراه وهم يبولون ويتبرزون فى وسط الشارع . يقول كانت طفولتى كطفولتهم مارأيك ؟ هل تقدمين على تقبيلى مرة أخرى ؟ وكان يتجهم ويقطع مسافات طويله صامتا قاسيا ، يرقب بعينين من نار ، أزقة ودروبا لاتنتهى . ترتفع فوق قمم الزباله . كان السائق ينظر اليّ مندهشا فى المرآة . طلبت منه أن يتوقف أمام محل فاكهة . نزلت اشتريت برقوقاً ومشمشا وعلبتى مانجو، فتشت عن العنوان.

كان يقول إنه يسكن في حي يسمونه الصين الشعبية ، وأنه يرى أن هذه التسمية خطأ ، لأن الصين الشعبية وان كانت بحرا من البشر الا أنها ليست بلا ماء ولا مجارى ، قال ان الحكومة مازالت تعتبر هذا الحى أرضا زراعية . رغم أنه لم ير فيه بوصه واحدة خضراء . نزلت في شارع ترابى منحدر وضيق . كان التراب يصعد الى صدرى . سألت صبيا عن العنوان. تركنى وجرى ، تقدمت الى الأمام. أنظر الى أرقام البيوت الصامتة كالمقابر ، بينما أسراب البط والفراخ تجرى أمامى فى أرض قذره . فكرت أن أرجع . نظرت خلفى . وجدتنى قطعت شوطا طويلا . توقفت أمام الرقم ٩٧ . كان الباب الحديدى مغلقا . سألتنى امرأة بدينه . عايزة حد هنا ؟ قلت : صقر عبد الواحد . فتحت البوابه الحديدية . سألتنى : قريبته ؟ قلت : بنت عمه . قالت : إنه مريض لايخرج . حملت عنى حقيبة الفاكهة وأعطتها لصبى . قالت وصلها للأستاذ صقر . كان السلم ضيقا حلزونيا . وكانت رائحة الطبخ تتصاعد مختلطة برائحة المجارى ، وكان الهواء يضغط صدرى . شعرت بالسلالم لاتنتهى ، والطفل أمامى يصعد قفزا ، كانت نساء وأطفال يطلون عليّ من الأبواب المفتوحة ولايتكلمون. صعد الطفل فوق السطح . كانت حجرة منفردة مغلقة ، تضرب الشمس حيطانها . ترك الكيس قال : هي دى الأوده ، نزل سريعا . دققت الباب . انفتح من تلقاء نفسه . انفتح ورأيته فى عرينه ، صقر عبد الواحد ممدداً فى سريره، عاريا يتصبب عرقا . كانت رأسه ملفوفه فى فوطه ، وفى وسط الحجرة كومة من الزباله والكتب وزجاجات البراندى وعلى الجدار قرأت خط صقر « هذا هو عصر الصدى فأعبدوا االعهر» وعلامة استفهام كبيرة . اقتربت منه . جلست على حافة السرير . وضعت يدى فوق صدره العارى . كان ضعيفا واهنا وأصفر. قلت : صقر . قال دون أن يفتح عينيه .. هل رأيتنى فى حلمك .. اسمى صقر .. صقر عبد الواحد. لست من هنا . جئت فى الحلم .. كل مرة ، وراء الاعشاش ، خلف البحر. وكنت أقف تحت الملح .. جبلا ، وأبحث ، هل رأيتنى . صقر عبد ... وجريت ، أمسك الريح .. ذبحت ، سقطت رأسى ... عينان فى الثلج . كان

محموما ، وكان جسمه واهنا مرتخيا ، رفعت ذراعه . صرخت : صقر . قال : اسمى صقر .. أمى من القرى ... الكوشه كانت تسقط من العربة طيلة الطريق ... يحيى .. يحيى .. رجل ، يحيى رجل .. ضربت قبضتى فى صدره .. سألته أين أنت ؟ سألنى .. هل رأيت رجلا اسمه صقر فى حلمك ؟ صرخت لا .. لم أره .. دفعت الباب بقدمى .. هربت من قبره .. كان صقر مات .. كان انتهى فوق سريره .. محموما أصفر يهذى .. صقر الذى أعرفه يدهس ، ويدوس ويشعل الحرائق ، يثير الفتن والاضطرابات أينما ارتحل ، ويعتصر نهود البنات بأصابعه الصخرية لآخر قطرة . سألنى : انتهى ؟ قلت : نعم من قبل أن نبدأ . قال : يولد الانسان ومعه أسباب موته . قلت انتهى . كنا آخر مرة فى ريش ، يكاد يقبل قدمى والمصاصه التى يكرهها فى فمى .. لم يعد يكرهها . لقد كل أسلحته .. كل سحره سألنى : انتهى ؟ قلت : انتهى . فجاءنى عريس معيد ويعمل فى شركة سياحة .. رجل أعمال صغير قال : أريدك . قلت : انتهى . كان يبكى ويشعل السجائر . قال . جئت لنصلح خلافاتنا . قال : أحبك ياناهد . قلت : انتهى . كان صقر انتهى .. وكنت تحررت منه .. خرجت من دواماته .

* * *

كأننى كنت منومة كل هذا الوقت . قلت لسامى . سنرجع رأس البر أوقف العربه . نظر الىّ مندهشا . قلت : كنت منومه . قال : وأفقت ؟ قلت : صقر انتهى . لم يعد منه شىء . فقط أربع عيون صقريه .. متحفزة فى بيته المظلم ... بيت عنكبوت .. ماذا أريد من تحية .. لاشىء .. سنرجع الى رأس البر . قلت من ينحنى صقر الذى أعرفه .. صقر مات بالحمى ، فى مقبرة فوق السطح . كان يهذى بين يدى .. وسط الزبالة والكتب وزجاجات البراندى الفارغة .. مات وانتهى منذ زمان بعيد ... قلت صقر انتهى بالنسبة لى . فتحت صدرى لهواء الطريق الزراعى . تنفست .

موت صقـر
٨ ، ٩ أغسطس ١٩٨٤

قال : كأن كل الورود سامه ، وكل الحب مستحيل .

٨ أغسطس : ليلا

(١)

قالت : أمك خرجت . انحنى فوق الطبق . يتأمل أقراص الطعمية ولايأكل . سألها : نمت كم ساعة ؟ . قالت كثير . كان العرق يسيل على جبهته . أشعل سيجاره . استند الى الحائط . حملت تحية الطبق . أشعلت الموقد على الشاى . قال : نوم النهار متعب . قالت أخرج امشى شويه .. يحيى سألنى عليك . قال : جسمى همدان . قدمت الشاى فوق صينيه وضعتها على الأرض . قالت : جدك نام . قال : اليوم عادة . قال : لا أذكر متى كان جدك مستيقظا . قالت مالك ياصقر ؟ أمسك جريده ، راح يتصفحها بلا اهتمام . قال : حبوب الشباب لم تعد مشكلة . أشار إلى الاعلان . قالت : مالك ياصقر ؟ قال : رأيت كابوسا . كان الكابوس يختلط بضجيج الشارع ، وكنت

لاأدرى أيهما الكابوس الحقيقى . قالت : امشى شويه على الكورنيش . قال : رائحة المجارى . قالت : دائما تغلق السكك المفتوحة . قال : لم يكن ثمة سكك مفتوحة . كان الجو ضاغطا ثقيلا والغبار يئزر داخل الشقة كلما مرت سيارة فى الشارع . قال : فى بيتنا أشعر بالغبار والقذارة فى جسمى مهما استحممت . قالت : خد لك دش . قال : لقد صارت القذاره تحت الجلد لاينفع معها الا السلخ . جلست تجهه أمامه.بكت ، تركت دموعها تنزل حرة . كانت الدموع تصعد من صدرها الى عينيها ، وكانت وضعت يديها فى حجرها . قالت انت عيان ياصقر . قال : ماليش حاجة ياعبيطه . بس عايز فنجان قهوة.ابتسمت . مسحت دموعها . أشعلت الموقد . أشعل سيجاره . قالت : خف شوية من السجاير ياصقر .. قال : حاضر، أى أوامر أخرى . قالت : تنام بالليل وتصحى بالنهار زى خلق الله قال : علم . ضحك . نظر اليها فجأة . قال : أمك فين ؟ قالت مندهشه . مش قلت لك خرجت قال : نسيت . قدمت له فنجان القهوه . قالت : ماتسهرش كتير . قال : حاضر . قالت : عايز حاجه . قال لا . قالت : تصبح على خير . قال : حاضر . لوت شفتها السفلى وهى تنظر إليه . ضحكت .

(٢)

دخل حجرته . أضاء النور . أغلق الباب خلفه . كانت الحيطان تبغ صهدا . شعر بجسمه مهدودا. استلقى فوق السرير . اغمض عينيه .. سمع نفسه يتردد داخل صدره . كانت القهوة فوق المكتب.استند الى الجدار . مد يده . أمسك الفنجان . ارتشف رشفة . كانت ساخنة . عاد فاستلقى . كانت الحيطان ترتفع حوله ، صماء ، خرساء . همس لنفسه : انتهى . وحده فى الحجرة المطله على الميدان والبيوت الواجهات والضوء والظل والرعب .. الرعب الكامن فى الأشياء . الكامن فى طين الله المتفسخ فى الطرقات . كان جاء فى الظهيرة . بالقناع والورود . جاء حاملا الباقة،على شفتيه ابتسامة واثقة ، وكنت وحدك أمامه من خلفك الضجيج والغبار ، ويده ترتفع بالزهور .. زهورك . صرخت فى الصحراء .. صحراءك . لاأحد . وكان يرتفع من الطين ، من الورش العفنة والشوارع والدهاليز ، يرتفع بالورود ، من دار السلام والجيرى والجامعة ورأس البر ، يرتفع من بطن ناهد الاسفنجية ، يرتفع من أفخاذ النساء الممنوعة ، خلف الستائر والعطر والسيارات الفيلات المصايف المواخير ، وكان يختلط بصخب الشارع ، بصوت أمك المشروخ ، بسعال جدك . كنت وحدك أمام ورودك . ولا أحد . حتى نجية ، راحت فى الشوارع ، فى الحلوى والدكاكين .

.. ..

شرب القهوة ، أمسك ورقة وقلما . كتب الى أى أحد ، ربما كتب الى صقر ذاته .. أن الحب مستحيل . وأنه متروك للأيدى الخشنية ، متروك لقناع الخزف والورود السامه . كتب انتهى . واستلقى مهدودا .

.. ..

.. ..

وكان عرقك مالح الطعم يسيل ، وكنت ناديت يحيى ، ليشق الحائط بذراعه ، ويأتى اليك ، وكان صوتك لايخرج .. انقطعت حبال الصوت . بقيت مفردا . تجاه سحنته الطالعة من ظلام الشوارع الجانبيه ، الطالعة من أكياس الملح ، وعينى السمكة ودمك المسفوح . أمام وجهه الخزفى وعينيه الزجاجيتين ، وكان رفع الورود السامة كلها ، وكان القبض عليك أنت ، صقر عبد الواحد ، لآخر مرة ، فى حجرتك المطله على الميدان .

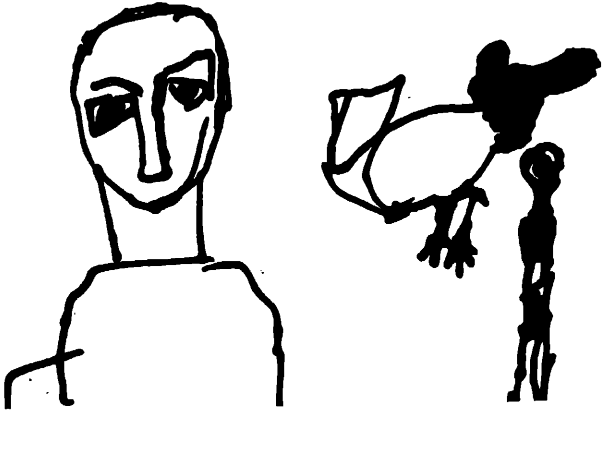
٩ أغسطس : صباحا

كانت سألت : صقر فين ياولاد . قالت نحيه : نايم . قالت : لسه نايم . قامت من مكانها ، ونحيه تنتظر خلفها ، فتحت باب الحجره ، صرخت صقر ، وصرخت ، ونحيه فى الخلف ، انخلع قلبها قبل أن تعرف أى شىء . دخلت الحجره ، كان أزرق وصلبا ورغوة تسيل من فمه ، وفوق صدره باقة ورود ، انطبقت عليها يداه ، وفوق المخده أوراق متناثره ...

* * *

لا أحد يعرف مصير باقة الورود التى وجدت فى يد صقر عبد الواحد ، والمرجح أنها كنست وألقيت فى الزباله . ولم يثر أى أحد شكا حول طبيعة هذه الزهور ، اللهم الا صديقه يحيى خلف الذى أكد أول الأمر أن هذه الورود سامه ، وأنها دست لصقر ، ويبدو أنه تنازل عن هذا الاعتقاد فيما بعد ، وقد بحثت عنه نحيه ليرتب معها أوراق صقر كما وعد . لم تجده . وعلمت بعد ذلك أنه حصل على عقد عمل فى قطر وسافر ، فحفظت أوراق صقر فى حقيبة وأغلقتها ودستها تحت السرير .

١٩٨٦/٧/٢١



شعر

سيناريو

سعديه مفرح

مشهد داخلي / نهار
تحتمي امرأة بظل جدار
يابس كأنه وجهها
والمدى حولها
يمطر ضوءا
يصير اذا ما احتوته يداها
هاجسا من ظلام سوف يأتي
وبقايا لما أتى من غبار

**

مشهد داخلي / مساء
رجل ودماء
وبقايا امرأة يحتويها سرير
تركض عيناه نحو الدم المستجير
وتشرئب عيناها نحو السماء
مثلما تشرئب نحو الضياء
عينا ضرير

** ** **

مشهد خارجي / سماء
يجلس الرب في حالة القرفصاء



خلسة ينظر في واحد من ثقوب كثيرة
ترقّش وجه الفضاء
الى منظر يشتهيه
لايقدر أن يشتريه
يصفق كفا بكف
يمصمص في شفتيه
وحين يرى أعينا
متجهات اليه
ينقل عينيه
للثقب الذى سيليه

** ** **

مشهد داخلي / أخير
جيفتان فاسدتان
ممددتان فوق ظهر سرير
في جانب منه
يبدو المؤجر
وفي آخر تبدو دماء الاسير

** ** **

كـــادر
طعمـــه مرير
في غيّـــة سادر

(الكويت)

تواصل / رسائل / مناقشات

توضيح من بشير السباعى

أرسل الصديق الكاتب بشير السباعى رسالة إلى رئيسة التحرير ، تعليقا على الرسالة **التى** نشرناها للدكتور رفعت السعيد فى العدد قبل السابق (٥٢)

يؤكد الكاتب أنه لا يزعم أنه يمتلك ناصية الحقيقة ، وأنه أورد استشهادات واضحة من ماركس فى حديثه ، وأن ردوده وخاصة الأخير — كانت حافلة باقتباسات من اللغة الروسية ، مما ينفى تهمة د . السعيد له بعدم علمه باللغة الروسية ، مشيرا إلى ترجماته فى الدراسات الاستشراقية الروسية .

ويؤكد الكاتب بشير السباعى على حقه فى الرد على تعليقات الدكتور السعيد ، ويتحفظ على الطريقة التى أغلقت بها « أدب ونقدى — والدكتور السعيد — الحوار ، وإن كان لايختلف مع وجوب إنهاء ذلك الحوار الذى طال كثيرا ، وقد أبلغنا — بالفعل — بذلك ، قبل صدور العدد الماضى .

□ أدب ونقد □

عدد الشعر :

غموض اللغة / غموض المعاناة

رضا البّهات

هذا خطاب قد تأخر كثيراً إذ كان ينبغى خطه عقب صدور عدد الشعر من أدب ونقد ــ لم لايكون هناك عدد آخر للقصة ! ــ ذلك أننى كنت سجلت بعض الملاحظات وكم وددت لو أناقشها معك .

● حينما أوغلت فى قراءة العدد وكلما قلبت صفحة .. كنت أبلع الريق لزجاً ممروراً.. ماكل هذا.. ماكل هذا العماء المبهم.. وماكل هذه الهموم الغامضة.. والوجدان المتيَّة فى ضبابات وغبش لايستطيع المرء حتى أن يتصوره انكساراً . فالمنكسر فصيح فى وصف شظاياه .. والهزيم له تلك النبرة البليغة البحيحة ، موجوع الصوت والقلب . والحزن لدى الشاعر يفترض أن يأتى على نحو من الحزن الايجابى أو الذى يمارس طقوسه فيتحرر معه آخرون . ونثار القلب ليس دائماً نثار زجاج .. بل نثار حىّ وهتك دام ينبض .. يعود فيلتئم فناً أو مقابلاً موضوعياً فى نفس قارئه أو سامعه ويعود ينتثر . إذن لم يعمد الشعراء إلى كل هذه اللفلفات والتيه والاغراب .. أحياناً أستعصب أن يأتى هذا الإغتراب والتغميض المحكمين فعلاً عمدياً .. هل أرص كلاماً انشائياً ؟ .. ربما لكننى أعرف أن كل هذا الغموض لايعنى غموضاً فى اللغة أو التعبير .. بل غموض فى المعاناة .. وبصراحة لم أكن أتصور أن هذه السيريالية ــ مثلاً ــ يمكن أن تصبغ جيلاً كاملاً من الشعراء هكذا .. خاصةً إذا قال المرء بالوعى فأنا أزعم أن حتى الوعى الناضج ــ النظرى ــ ليس نقصه سبباً فيما يقدمه الشعراء ــ لأنى أزعم أيضاً أن الواقع كتاب مفتوح وفصيح وأفعال الانتهاك فيه للوطن وللبشر أيضاً تغنى عن أية شروحات نظرية .. مابالك إذا افترض المرء أصلاً أن الشاعر لديه مثل هذه الثقافات النظرية أو ساغ إليها .. واعذرينى إن ساءلت النفس .. أى خير إذن فى أمة من شعرائها وهم يأكلون أنفسهم هكذا .. أسأل هذا ومازلت أذكر أن حتى أقطاب السيرياليه الأول كانت لديهم مواقف اجتماعية بل إن بعضهم حمل السلاح ضد النازى .. وآخرون أعتقلوا لمواقفهم من الليبرالية وافلاس عجلة الرأسمالية فى بلادهم .. أعذرينى فقد أفرد لهذه الأشعار عددٌ من المجلة بهذه الضخامة . خاصةً وأن الشاعر بالضرورة شخص ذكى حساس وأقول حينئذ قولتك عن جرامشى والذكاء المتشائم وعليه بالضرورة أن يرينا من البؤس وحتى اللا أمل مثلما يرى .

توقفت طويلا أمام الافتتاحية التى قدمت بها .. تلك المقالة شديدة الأهمية والخطورة .. قلت لنفسى بعد قراءتها .. ماكل هذا الجهد الذى تبذلينه .. مع شعراء لهم كل هذا الاغتراب والغموض . وكيف تأتّى لك من هذا النثار أن تلملمى له عقداً من الحقيقة .. والوعى .. وكيف تأتى لك تحييد مشاعرك إزاء هذا الكلام لكى تؤتى هذه المقالة بالغة الأهمية . واعتبرت أن هذا الجهد لايحتاج وعْياً فريداً فقط بل قلباً متسامحاً .. تعلمتُ أيضاً هذا الدرس من الموضوعية . ألا أفقد إيمانى بالكلمة وانحيازى لها حتى ولو لم تعجبنى .. ولا أسارع بتقلد الموقف النفسى غضباً أم فرحاً .. بل أمتصه إلى مثل هذه الموضوعية . أعرف أن هذا أخطر عيوبى الشخصية .. الانفعال . وإن أتانى مقتلى يوماً ما فسينفذ إلىّ من هذه النقيصة .

هل تعرفين من ذا الذى استحسنت شعره .. إنه ذلك الشاب قدمه حلمى ضمن أصوات جديدة . الزميلة العزيزة .. إن مايجول بخاطرى عقب قراءة العدد أفكار لها علاقة بقضية كم تحاورنا حولها وهى طول صبر هذا الشعب .. طول باله على الظالم وعلى الظلم .. وبذا لم أستغرب أن يأتى الشعر الآن على هذا النحو . فالشاعر لسان حال شعبه والناطق باسم وجدان أمته ، هذه حقيقة . ذلك أننى لحظت أن جلّ هؤلاء الشعراء يتفاعلون مع معاناتهم بطردها خارج دائرة الادراك خارج دائرة الوعى . حتى تتحول المعاناة إلى معاناة فى المطلق واللا معيَّن . تماماً مثل فعل الشعب مع ظالميه وآلميه .. لايقاومهم كثيراً .. بل ينزل بهم لعنة الطرد من حظيرة وجدانه .. النبذ خارج الجماعة .. وفى المقابل يعتنق محبيه وثواره والمدافعين عنه بادخالهم دائرة الوجدان الشعبى .. دائرة الذاكرة .. وكأن ليس لديه من أسلحة سوى هذه الذاكرة .. فقط الشعراء ذوو صخب فى هذا الاعتناق أو النفى من الذاكرة إنما لايقدمون لأمتهم جديداً فى التعامل مع الحق والظلم . إما نفى خارج الذات الفردية للشاعر وإما اعتناق للرمز أو القيمة وترديدها طوطماً أو مقدساً .. وفى كل الحالات بتجريد الموضوع عن أسبابه .. تجريد .. تجريد حتى يبيت الزعيم فى وجدانه قديساً .. لأنه قديس بالضرورة . وكذلك الظالم .. شريراً بالضرورة .. والزمان هو المطلق واللانهائى .. والمكان فى الحالين هو الوجدان الشعبى أو خارج الوجدان الشعبى .. وتلك هى الطبيعة المعتقدية لدى الشعوب .. وفى حال شعرائنا الذين أتحدث عنهم .. لم يزيدوا فى تبنيهم للحلم — الضائع دائماً — إلا صخباً فى ادخاله دائرة الذاكرة واسكانه منطقة الخالد / المقدس .. وجلبة أيضاً فى طرد السالب خارج هذه الدائرة . إنما لاقدرة على الفعل الآنى ولا المستقبلى ولا استشراف لهذا المستقبل .. إضافة بالطبع إلى بعض الذاتيات الشعرية كخمش الوجه وتقريع الذات .. الخ . عذراً فى هذا الربط الذى ربما جانبه الصواب .. إذ أعود فأسأل النفس ثانية .. لماذا لم يكن هذا هو حال الشعر دائماً فى أمة كم عُدَّ الشعر أبرز جوانب إبداعاتها ؟ .. فقط أسأل ولا أقدر على تقديم الاجابة .. مستهولاً أن تكون لهذه السنوات العشر أو الخمسة عشرة كل هذه القدرة على الإيلام والتوجيع والتغريب بما أحدثته من خراب وتخريب ..

الزميلة العزيزة .. عذراً فى هذه الدردشة المقتحمة — من طرف واحد — إنما ذكرنى هذا بقولك ذات مرة أن هذا الشعب دائماً فى التكتيكىّ ولايقرب الاستراتيجى أبداً . وكان قولها تأسيساً على ملاحظاتك فى الأمثال الشعبية على ماأذكر .. وبما أننى لاحظت أن هذه الأمة تقاوم دائماً مقاومة طويلة

الأجيال قوامها الاعتناق الجماعى لشخص أو لفكرة والعكس .. تخليد الزعماء والرموز والقيم الطيبة ونفى الاعداء والطامعين من دائرة التذكر والذاكرة .. يحدث هذا والجماعة ماضية ماضية فى طريقها صوب غايتها التاريخية وهى الاستمرار .. الاستمرار التاريخى . وهذه الصيغة تفتقر إلى ميزة المقاومة المباشرة والآنية خاصة فى أزمنة السحق الشديد .. ولو صح هذا الكلام يقول المرء عكس قولك ، وهو أن الشعب دائماً فى الاستراتيجى وأن آفته أنه لايقرب التكتيكى إلا نادراً . مما يضفى على كفاحاته صفة السلبية . وسوف أتطور بالملاحظة لأقول أن هذه الصفة التاريخية ليست ميزة ولاعيباً .. إنها خصيصة تاريخية وحسب .. ولايمكن وصفها هكذا أخلاقياً إلا بقدر ما نفيد فى توظيفها ــ نحن الذين نملك الوعى ــ توظيفاً ثورياً ملائماً . والشعب يبدو فى مثل هذه الحالة كالمصاب بغيبوبة دائمة لافتقاد ردود أفعاله إلى التعبير اللحظى .. لكننى أزعم ــ وأنت لن تختلفى معى ــ فى أن من يفتح مخزن هذا الوجدان الشعبى سيجد آلافاً من الرموز والطواطم من أول إيزيس وحتى عبد الناصر وسليمان خاطر . ومروراً بكل من أحس الوجدان الشعبى أنه مدافع عنه . يطبخه الوجدان ويؤسطره ويقدسه ويعتنقه . وربما قادنى هذا إلى ملاحظة من جانبى تفسر لم تقع دائماً الخلافات فى المناقشة حول نقط من هذا النوع ــ وهذه الملاحظة بالذات تحتاج الى دراسة ــ ذلك أننى أعتقد أن فى مصر وطنين .. مصرين .. الأولى مصر المدن الكبيرة والثانية المدن الصغيرة والريف ربما صحَّ فى فهم الأولى التحليل الطبقى والمادية التاريخية ، أما فى الثانية فلازال مفهوم « الجماعة » هو السائد ولاينطبق عليها التحليل الطبقى إلا بقدر يسير .. لا أجهر بهذه الملاحظة قبل مناقشتها وبحثها جيداً . على كل حال فسأحكى لك عن رحلة إلى مدينة بلبيس / شرقية أمدتنى بقرين صحة على قولى بخصوص اختزان هذا الشعب لرموزه ــ لانسيانها السريع كما كنت أعتقد ــ إذ ذهبت إلى هذه المدينة الصغير جداً لعزومة قريب لى على فرحى . ولما راقت لى هذه ــ القرية الكبيرة ــ تمشيت فى شوارعها فماذا وجدت ! الشوارع والمحلات لافتات قديمة هائلة الطلاء وجديدة مكتوبة قريباً تحمل هذه الأسماء .. شن جمال عبد الناصر ، شن العروبة ، حارة عرابى ، حارة بن خلدون زقاق توت عنخ آمون ، شن الثورة . صيدلية الزعيم ، حتى المسجد اسمه مسجد الأميرالاى ــ الذى هو أيضاً عرابى ــ فول وفلافل أمير الجيوش ، مدرسة وحضانة عرابى . حتى النسوة هناك لم يصلهن رشاش الذهب الأسود فلازلن يلبسن الملس ويعقدن عصبة الرأس تحت الطرحة عقدة تجعل مقدم الرأس كمقدم تاج إيزيس مكبباً بارزاً . لاحجاب ولاأزياء نفطية بل الأسود التقليدى اللامع الطويل لبنات المدارس والأمهات .. لباس (ماعت) إلهة الضمير عند الفراعنة . وبالطبع قليل جداً من اللحى وهى لعجائز يعد اطلاق اللحية معه توقيراً ووقاراً لاغير .. طبعاً بلبيس ليست هى كل مصر التى انتهكها النفط وانهكتها التبعية . إنما رفع هذا من معنوياتى جداً بتشخيصة أن مانراه هو العارض والزائل والقشرى وأن عمق العمق مختبىء فى دخيلة الناس .. وهو ماأعده قرينة أخرى على أن هذا الشعب دائماً فى الاستراتيجى ولايقرب التكتيكى إلا قليلاً .. ولايبذل من نضالاته اليومية واللحظية الكثير .. بل يكتفى بأن يعطى كل طارىء ــ طرقته ــ اكتفاء بأنه زائل مهما عمَّر .

لك كل التقدير والاحترام

رضا البهات

القسوة الأدبية على النفس

محمد روميش

■ « سيادة المدير » قصة قصيرة بقلم حمودة حماد ابو سبت ـ رفح ـ قطاع غزة

مدرس جديد ، عين فى إحدى المدن الساحلية ، اخلص فى اداء رسالته ، لم يكن العمل هو معيار التقارير السريه عند سيادة المدير ، فتخطت الترقية مدرسنا ونالها غيره ، ممن لايستحقونها ، فتقدم بطلب نقل ، وقبل تنفيذ نقله ، مات سيادة المدير .

بهذا « التلخيص » فإن القصه التى شغلت ست صفحات لاتفقد عنصرا واحدا أو فكرة واحدة منها . أى أن الكاتب ، لم يقف طويلا ، أمام عنصر الإختيار ، اولا ، اختيار ماذا يقوله بقصته ، ثم اختيار كيف يقوله فجاءت كتابته اقرب الى الحكى ، فانتثرت فيها امثال هذه التعابير ، « ومما هو جدير بالذكر » ثم يصف مبنى الفصول الدراسية ، « اذكر منها » و « اذكر انى » و « قال بالحرف الواحد »

ان القصة القصيرة ، من بين ماتضيفه ، ان يتوقف الكاتب لدى كل جمله ، ومدى لزومها وضرورتها ، وماذا تضيفه فى بناء القصة ، اما ان يكتب كل مايخطر على باله فإن القصة تتحول بين يديه الى حكاية أو على أحسن الفروض ، خبر صحفى .

■ « محضر اثبات حالة » قصة قصيرة بقلم كامل داود :

الحكايات التى كان يتداولها ابناء شعبنا الى زمن ليس بالبعيد ، عن الغول والجن والنداهه والعصفور الذى يتحول الى عبد فى حجرة العروس ، ويضبطها زوجها متلبسة ويقتلها وقبلها حكايات « كليلة ودمنة » ، قابله الى أن تترجم ان صح التعبير الى واقع انسانى تحمل الحكمه والنصيحة وخلاصة التجربة الانسانية ، وعندما ننتقل من الحكايات الى فن القصة القصيرة ، وتتخذ القصة من الحيوان ، مادة لموضوعها ، فإن القاعدة القديمة تظل صالحه ، أى بشرط قابليه قصة الحيوان ان تترجم الى واقع انسانى ، وقد عرض لنا الكاتب قصة كلب ، كلب لأسرته تاريخ ، « جده الاكبر ، كانت تتحاشاه دوريات الانجليز » وهذا الكلب صادق حمارا فى ضاحية من ضواحى البلده ، ففسد وتخلى عن دوره التاريخى فى الحراسة والأمانة والوفاء فماذا يريد ان يقوله لنا الكاتب ؟؟

■ « أبجدية الحجارة » قصة قصيرة بقلم عبد الرحمن شلش ــ عضو اتحاد الكتاب ــ بالقاهرة

كما يشي العنوان فإن القصة تقدم لنا مشاهد من كفاح اخوتنا الفلسطينيين ضد الغزاه الصهاينة ، والقصة تختار كفاح الصبيه ، بسلاحهم المبتكر وهو الحجارة ، الا ان القصة تفتقد الصدق ، ولنقرأ معاً هذه الفقرة « يلتقط كل واحد من مجموعتنا الحجارة من جيوبه ، ويقذفها على الصهاينة فى كل اتجاه ، كانوا يفرون من امامنا مثل النحل حين ترش امى عليه المبيد ، وحين استعدوا مدبرين ، التقطنا المقاليع ، وصليناهم بوابل من القذائف الحجرية بعيدة المدى » لو أن الصراع بمثل هذه البساطة ، ماقدم العالم العربى ، ومنه الفلسطينيون التنازلات تلو التنازلات ، ولما استمر الاستعمار الصهيونى لفلسطين ، ولما قرأنا عن شهداء ومصابين ومعتقلين وبيوت تهدمها البلدوزرات ، ان شرط الصدق فى العمل الأدبى ليس مجرد حليه ، انه شرط وجودى .

■ « ازمات مفتعلة » قصة قصيرة بقلم حمدى البطران ــ ديروط

قصة جميلة ، سلسة اللغة ، سليمه البناء ، تنم عن قلم متمرس ، وحس فكاهىٌ ، تقوم القصه على مظاهرة كلاب تتقدم بمطالبها الى مسئول ، وتضعه فى مأزق .
ولكنى اسأل القاص ، الست معى فى انه ينبغى ان نحفظ لهذا الشكل من الاحتجاج جلاله الانسانى .

■ « بائعة الخضرة » قصة قصيرة بقلم محاسب / كمال صفوت فايد ــ مديرية الشباب والرياضة بالشرقية ــ الزقازيق

هذه القصة فى حقيقتها قصتان ، قصة الام بائعة الخضره بكفاحها اليومى الشاق لتعول نفسها وتعول إبنها الوحيد المعوق والمتخلف عقليا وهذه كتبت بطريقة لا بأس منها ، والقصة الثانية ، قصة الابن الابله المعوق والذى لم يجد عملا فى الحكومة لأنه امى لايقرأ ولا يكتب وهذه يثور التساؤل عن مغزى كتابتها ، ان الفن فى جوهره نقد اجتماعى ، وهذا النقد يتخفى فيما لا يحصى من التشخيص الجمالى ، وان انعدم فى العمل الفنى ــ ماينقد ، إنهار مبرر وجود هذا العمل والابن المعوق الابله الذى لايقرأ ولايكتب ولايوظف فى الحكومة لهذا السبب ، شيء منطقى ولذلك فإن قصة الابن خيبت هدفها ، فقدت جوهر الفن فيها ، وهو النقد ، ولو ان القصة قامت على اساس ان الحكومة تخلت عن إعالته لاستقلت القصة واخذت طريقها للنشر .

■ « النجمة » قصة قصيرة بقلم خالد السروجى ــ المحامى ــ الاسكندرية

راوى القصه ، له عادة قديمة جدا ، تلك هى قتل الصراصير ، وقد أوقعته عادته هذه ، فى مأزق ، اذ حدث اثناء سيره فى الشارع أن شاهد صرصارا ، فطارده ، ودخل الصرصار تحت سيارة مرسيدس .. وقفت السيارة ، نزل منها ركابها ، ويبدو انهم ذوو حيثيه ، فما ان ذكر الراوى انه يريد قتل الصرصار واشار الى السيارة المرسيدس حتى استدعوا رجال الامن ، الذين اقتادوه الى هناك ، ليعترف على التنظيم الارهابى الذى دفع به لتنفيذ المؤامرة .

وهذه الطريقة ، فى القص او الحكى كان يلجأ اليها استاذنا توفيق الحكيم واسميها طريقة « الاستعباط » وتقوم على اساس احداث لبس فى القص والحوار ، ولنجاح هذه الطريقة تحتاج الى درجة عاليه من السيطره ، ليبدو كل شيء طبيعيا ، وهو ما افتقدته هذه القصة التى تفتعل صرصارا فى شارع عام ورجل يطارده تحت عجلات السيارات .

■ « آلام مثلجة » قصة قصيرة بقلم صفية فرجانى :

حتى القصه غير الواقعية ، اى تلك التى لاتسير احداثها ووقائعها وفق منطق الحياة العادية كما نحياها ونعيشها ، وتتخذ حواراتها منحى رمزيا ، حتى هذه القصة ، لها منطقها الخاص الذى نكتشفه ، ونحن نقرأها ، ولها مضمونها ، الذى يرتسم فى مخيلتنا بعد ان نقرأها ، ولها هدفها . فإن خلت من كل ذلك ، فعلى الكاتب أن يراجع فنه ، ليقدم للقارىء ابداعا حقيقيا ، وقصتنا هذه ، وان سلمت لغتها ، وهذه ميزة ليست هينه ، الا انها تفتقد منطقها الخاص وبالتالى مضمونها وهدفها .

■ « لقوب فى جدار من طين » قصة قصيرة للأخ محمد عبد الله الهادى :

هذه قصة مقبوله ، الا ان الكاتب لو أعمل قاعده « الحتميه » فى الفن التى ينادى بها أستاذنا يحيى حقى ، لاكتشف ان الفقرة الطويلة المقدمة يمكن حذفها ، ولاكتشف ايضا ، ان جملا عديده ، وسطورا كامله ، يمكن حذفها ، لعدم ضرورتها ، على الكاتب أن يقسو على نفسه بعض الشيء ، وألا تسحبه البلاغه اللغوية ، التى تفسد بساطة الأداء .

■ « الصفعة » قصة قصيرة للقاص حلمى شلبى :

قصة سويه عن شخوص غير أسوياء .. فالقاص له لغته السليمه ، وللقصة بناؤها المتمهل ... وينتهى كل هذا الفن الى لقاء رجل بامرأة .. والموضوع ليس جديدا ، ولا تثريب على الكاتب فى هذا .. الا ان مضمون العمل يبتعد عن الهم العام ... الهموم العامة التى يشغى بها الواقع .



أستقيل من جمهورية الشعر

عبد الناصر عبد الرحيم

نتحدث فى حياتنا العربية الراهنة ، اكثر ماتتحدث عن الأزمات من أزمة المواصلات الى أزمة السكن إلى أزمة الجوع إلى أزمة الأخلاق إلى أزمة المواطنة الى أزمة الثقافة .... الخ ونبدأ نعد أزماتنا ، فإذا بنا لاننتهى .. أصبح الحديث فى هذه الأزمات مملاً والكتابة صارت ضربا من التسلية الفارغة . كل من المتحدث والكاتب يعرف سلفاً أن الظاهرة أكبر من أن تؤثر فيها الكلمات ، فالمسألة ليست مسألة أخطاء يعاد النظر فيها وتصحح . انها مسألة البنية الأساسية لعملية حياتنا أعنى : أنها مسألة البنية اللاحضارية لوجودنا الاجتماعى : أعنى أنها مسألة التخلف ولأن التخلف لايتجزأ ، فالكتابة عن ظاهرة مرضية ما ، اغفال لجوهر المرض . ان علينا أن نبحث عن العلة فى مصدرها . ومصدر عللنا هو العجز ، هو حالة القصور وهما ، معا محصلة طبيعية لتخلف المجتمع . يضعنا ذلك فى صلب أزمة الثقافة : هل يمكن لوضع اجتماعى متخلف أن ينتج ثقافة متقدمة ؟ بالتالى : هل تستطيع الثقافة أن تتنفس خارج المناخ الذى تولد فيه ؟ هل يخرج الحضارى من اللاحضارى ؟ المعاق من المهيض الثقافة ، كما نعرف جميعا ، نتاج اجتماعى بمعنى أنها جزء من العملية الاجتماعية ، من الفاعلية البشرية فى وضع اجتماعى ما . هذا الجزء ، مهما بدا متميزا ومستقلاً لاينفصل عن العملية ككل ، عن الفاعلية ككل علينا انطلاقا من ذلك أن نفهم أن أزمة الثقافة عندنا هى أيضا أزمة تخلف ولذا يمكن القول أن [حياتنا الثقافية بلا قيم] أو [أن هناك قيماً ماتت] فالضباب الذى يغشى مناخنا الثقافى تراكم الى درجة أن الرؤية لم تعد واضحة ونضرب مثلاً ونسأل ما الذى يتحكم بمجمل الآراء النقدية التى تتساقط على الساحة الأدبية حولنا : الموضوعية ، أم المزاج الشخصى ؟

منهجية الفكر أم الانفعال ؟ ونسأل ثانياً .. ما الكتابة النقدية الواحدة التى ارتفعت عن الانفعال وقدمت أدبنا الحديث [شعرا ، قصة ، رواية ، أو مسرحاً] وفق منهج نقدى متكامل يضع فى حسابه عناصر العمل الأدبى كلها ؟ ونسأل ثالثا : ما الملامح التى حددها النقاد أو أشباه النقاد للحركة الأدبية الراهنة عندنا ؟ هذا بعض مانعنيه بموت القيم . ولعل أحد أهم أسبابه هو تراكم المنابر الثقافية غير المسؤولة وغير الجادة ، هو اعطاء بطاقات مرور مؤقتة أو دائمة ، لمن لاهوية أدبية لديهم ، لمن مازالوا يبحثون عن اعتراف . حالة من الفوضى وانعدام التوازن . حالة من التطاول والانتفاخ حتى الورم ، حالة من الهوس الطفولى والهذيان حالة من القفز على أسطح الثقافة والرقص فوقها ، حالة من اللاقيم ، ولذلك أعلن استقالتى من [جمهورية الشعر] ، وآه ياعصر الرؤى المنقلبة ، ووداعا أيها الشعر ، فقد انتصرت كل الأخطاء .

عبد الناصر عبد الرحيم

السويس

■ **الصديق الشاعر عبد الناصر عبد الرحيم السويس : رسالتك الحميمة مليئة بالصدق والعاطفة الساخنة . ولكن نود أن نؤكد لك أن الشاعر الحق لايستطيع أن يستقيل من دولة الشعر ، فالشعر قدر الشاعر وواجبه وهمه . واذا**

كانت الدنيا مليئة بالشرور والآثام ، فهى أيضا مليئة بالخير والفضيلة . واذا كانت حياتنا الشعرية تغص بالأقزام والمدعين وبالانتاج المنحط المخرّب ، فهى كذلك تحفل بالمبدعين الحقيقيين وبالانتاج الجميل الدافع للأمام . بل أن امتلاء هذه الحياة بالغث والمزيف ، لايجب أن يدفعنا إلى الانسحاب منها وهجرانها ، بل إن ذلك أدعى للتمسك بما نفعل والتشبث بكل رفيع ونبيل .

لقد كانت الدنيا ، ودنيا الشعر خاصة ، حافلة — منذ الأزل — بالغث والنبيل ، وليست هذه الحالة حالة طارئة علينا اليوم . حقا ، ربما زادت هذه الأيام وطأة وسطوة الغث والمزيف . وهذا وحده باعث جديد على مواصلة الانتاج الجميل ، فالقبح لن ينهزم من تلقاء نفسه ، بل سيهزمه تنامى الجمال ورسوخه واستمراره .

والمشكلة التى تواجهنا اليوم ليست مشكلة شعرية ، بل هى مشكلة مجتمع بكامله : ينحدر ويتفكك ويفقد قيمه الخلقية والأصيلة . فلنتعاون جميعا ، كل فى مجاله ، لنفى القبح والركاكة والتشوه ، عن مجتمعنا ، وبالتالى عن شعرنا ، وأنفسنا ، وعن الحياة كلها .

■ الصديق الشاعر محمد متولى :

« صور من كتاب الوجع » تزخر بنبض إنسانى حزين وجميل ، وصورها الشعرية لاتخلو من جدة وابتكار ، لايعيبها سوى اصطناع بعض التشبيهات أو التكرارات أو الصور المتضخمة تضخما غير صحى ، أو غير المساغة شعرياً ، من مثل « ورَم سماواته » أو « عكّر حليب الحلم ضفدع ف بركة عرق نازز على شهوتى » . وحينما تروق الصورة وتتخلص من هذه المبالغات يصفو الشعر ، وتتحقق درجة ملحوظة من القوة والسلاسة والوضوح الشعرى ، مثل :

« على حافة البحر والحلم عصفور رومانتيكى فى طرف الموجة ، تتكسر على قزاز مخربش مناقيره »

أو « الكف كانت لقبضة طين

مراية لجدة الحواديت

أنا شفت ياولداه فى منامى الغولة بترّضع

فيران الغيط

خبيت عصافير الحبيبة فى شقوق جرحى

بس مانخبيت »

■ الصديق الشاعر « الجنوبى » :

على الرغم من المعانى الطيبة التى تتحدث عنها قصيدة « نصيحة يسديها مقتول » ، فإنها خالية من عناصر عديدة تجعل الشعر شعراً . فليس فى القصيدة صور شعرية ، إذ كلها تقريرات خطابية من نوع « الصمت شعار — الصمت قانون — الصمت طعام يومى يوزعه الجلاد — الصمت أغنية المذياع » . وليس فيها لغة شعرية ، فلغتها هى لغة الخطاب اليومى العاطلة عن أى اكتناز إيحائى أو مجازى أو تأويلى . وليس بها وزن أو موسيقى ، على الرغم من أنها منظومة على نسق الشعر الموزون .

نأمل أن تراعى هذه المعايير ، ونتعشم أن نتلقى قريبا أعمالاً أجود وأقرب الى الشعر .

■ الصديق الشاعر أحمد اسماعيل محمد — طرة البلد :

زجلك « إلى كل من يهمه الأمر » حسن النية وساخن الفكرة ، لكن ينقصه العديد من مقومات الشعر ، كاللغة والموسيقى والصورة الشعرية .

■ **ترانيم الأفق ــ ديوان شعر جديد لمحمد فادى عثمان (دسوق)** صدر على نفقته الخاصة : من قصيدة « ترانيم الأفق » يقول :

« حاورتنى فى ترانيم الأفق لغة للكائنات
وحرف يتخلل ضلوع الشمس مرتويا بالضباب والسحب
وليس ينسكب رحيقا فتغتسل الوجوه
تمجيداً لإله الصمت قهراً »

■ **الصديق الكاتب أكرم القصاص ــ بسيون ــ غربية :**

يعبر أكرم القصاص عن تقديره لمقال السيدة رئيس التحرير ردا على محمود السعدنى فى جريدة « الأهالى » . ويقول : « أعتقد أن مايواجهه الشعب فى مصر يحتاج إلى كثير من البحث والتحليل ، لأن تزييف الوعى الذى استمر لسنوات طويلة حوّل الناس عن ان يعرفوا الفرق بين الأشياء . وأنا اقصد هنا كثيرا من الناس أصحاب المصلحة ، والذين يخلطون بين الاشتراكية (والملوخية) . وأنا أنقل إليك صورا من الواقع تماما ، فإن كثيرا من الطبقة المتوسطة ، والذين حولتهم السياسات السابقة والحالية إلى مسخ إنسانى ، والذين يجذبهم الحديث عن ١٩ ألف ألمانى هربوا من جحيم الاشتراكية (كما تدعى بعض الصحف التى تنقل ربع الحقيقة) ، لم يحاولوا التفكير ، (ولم يسمح لهم) فى أكثرية الألمان الذين لايزالوا يدافعون عن اشتراكيتهم امام الرأسمالية والامبريالية »

ويختم أكرم رسالته الحميمة بقوله :

« وكما يختلط عرق العامل بزيت الماكينة ، وعرق الفلاح بطين الفأس ، وعرق اللحاد برائحة الموت ، وعرق القابلة بدم الخلاص والمولود فى الفجر ، فسوف يخرج الأطفال فى الأجيال القادمة وقد ابتسموا للفجر الجديد ، وسوف يذكرون هذه الأيام الفريدة » .

■ **الصديق الشاعر أحمد سيد أحمد ــ فاقوس ــ شرقية :**

قصيدتك « خلود » بها العديد من الكسور فى الوزن ، ومعانيها مكرورة ومعادة . حاول الابتعاد عن الأفكار الجاهزة ، وابتكر صورتك الشعرية الخاصة . واهتم باللغة اهتماما جديا . وهذه الملاحظات نفسها تنطبق كذلك على قصيدتك (مرسانى) . انظر إلى المعانى المكررة فى هذه السطور ، مثلا :

فهوايا إليك يا أملى   لايخشى ربع الظلماتِ
لا يفزع برق الأفكار   لايرهب صوت الأنات

■ **الصديق الشاعر محمد سلامة بكر ــ القوصية ــ أسيوط :**

قصيدة « نبوءة شهيد » (المهداة إلى روح الشهيد سليمان خاطر) تحمل العديد من المعانى الوطنية الصادقة ، لكنها غارقة فى المباشرة إلى درجة شديدة . كما أنها تذكر فى بعض صورها بأسلوب الشاعر الراحل أمل دنقل ــ مع الفوارق الكبيرة ــ ومثالنا على ذلك المقطع القائل :

والضحى
وأخوتى الصغار
والوجوه الكادحه
لقد أحاط بالورود عنقى

وقبل الجبين بكل شوق
لكنه اغتالنى عند التقاء الفم بالجبين
عند اشتعال الحب والمصافحة »

■ **الصديق الشاعر محمد السيد سليمان البيلى ــ العامرية ــ الاسكندرية ــ الشركة العامة لاستصلاح الأراضى :**

قصيدتك عن « سناء محيدلى » عامرة بالروح الوطنى الحر ، لكنها ضعيفة المستوى الفنى ، لما فيها من مباشرة ونثرية وخلو من الوزن أو الموسيقى ، وافتعال القافية . انظر إلى هذه الأفكار الاعتيادية ، على الرغم من معانيها الجياشة بالوطنية :

« عساك سناء
توقظين أميرا من بتروله يسكر
والعدو بباب مخدعه
يقتل .. وينهى .. ويأمر
وهو فى غفلته
لسالب أرضه وعرضه يشكر
وآخر إذا حج ــ فإلى أمريكا ــ
ومن بيتها الأبيض هلل وكبّر »

■ **الصديق الشاعر عبد الناصر صالح ــ طولكرم ــ الضفة الغربية المحتلة ــ فلسطين :**

أسعدتنا رسالتك الحميمة ، وديوانك الجديد الجميل . وسوف يظل دائما من دواعى فخر المجلة واعتزازها أن تنشر النماذج المتتالية من الأدب المناضل المضيء فى فلسطين المحتلة . فقضيتنا واحدة ، وهمنا واحد ، وحلمنا واحد : أوطان تشرق بالعدل والحرية والجمال .

و« أدب ونقد » تعدّ حاليا ملفا خاصا عن الأدب فى الأرض المحتلة ، سوف نخصص له عددا قريبا ، نرجو به أن نقوم ببعض واجبنا تجاه الكفاح البطولى لشعبنا الفلسطينى فى أرضنا المحتلة .

■ **الصديق الدكتور أحمد محمد البدوى ــ قسم اللغة العربية ــ جامعة قار يونس ــ بنغازى ــ ليبيا :**

نشكر لك مشاعرك الجياشة وتعاونك الصادق مع أدب ونقد . ستصلك قسيمة للاشتراك ، والأعداد التى طلبتها . ونأمل دوام التعاون .

■ **الشاعر الصديق عزت الطيرى ــ نجع حمادى :**

نعتذر عن تأخر نشر قصيدتك . والحقيقة أن تأخر النشر راجع ــ فى معظمه ــ إلى اعتبارات تحريرية تتصل بالمساحة وتراكم المادة ، ولايرجع لأسباب فنية . وستنشر قصيدتك فى عدد قريب . ونرجو أن تقبل إعتذارنا ، فنحن نتمنى أن نستطيع نشر كل الأدب الجيد ، ولكن تضيق الصفحات عن تحقيق كل ما نتمناه .

الواقعية ليست الخطابة

الصديق حمدى عبد العزيز (المحمودية ــ بحيرة) يعرض بعض الملاحظات على العدد الخاص بالشعر ، قائلاً :

« قرأت العدد الأخير من مجلتكم العزيزة علينا ـ أدب ونقد ـ واطلعت على الافتتاحية « هل نجرؤ على التباهي / هل نجرؤ على الفرح ؟ ». وهي ليست افتتاحية بقدر ماهي مقالة نقدية ، تطرح أهم قضية في رأيي وهي الحداثة ، واستغراق شعراء الحداثة في الذات والوجد والصوفية التي تنطلق من رفض الواقع أيضا ، لكنها تجد علاجا في سمو (الأنا) فوق هذا الواقع الردىء ، وتوحدها مع المطلقات بما يتداعى بعد ذلك من الاختزال وتكثيف الصور وتلاحقها بشكل يعطي القصيدة طابع التهويمات . وليس معنى ذلك أن سوى هذا الشعر هو شعر الخطابة والمباشرة الفجة ، فكما أشرت الى محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد ، مع النظر الى خصوصية توفيق زياد ، وبدرجة أخرى سميح القاسم ، أضيف إلى الاشارة ما يرد على حجج الاتجاه الجديد في الحداثة : كيف استطاع أمل دنقل أن ينقل القصيدة إلى مستوى من الجماليات ، بقدر مايعبر عن واقع جيل ووطن ومجتمع وتاريخ .

ان الواقعية الاشتراكية تتطور بالفعل وترتاد آفاقا جمالية وواقعية جديدة ، وليس صحيحا أنها تعنى المباشرة الفجة والخطابية . وها هو ماركيز : كيف يحل تلك المسألة ، وعلى المستوى المحلي كيف فعل ذلك يحيى الطاهر عبد الله وجمال الغيطاني ؟

هناك قضية أخرى ، وهي قضية شعر الثمانينات . أعتقد أن المجلة لم تعرض بشكل أمين نماذج الثمانينات ، فهناك أصوات ثمانينية لم أرها في مجلتكم ، مثل صلاح اللقاني ، محمد الشهاوى ، عبد الدايم الشاذلي ، د. صلاح الراوى (عامية) . كذلك فإن محمد عفيفي مطر لم تتجاوزه مسألة الثمانينات ، بل هو مازال يعطي للقصيدة شكلا ووجها حداثيا .

□ تعليق □

ليست الذات في شعر السبعينات والثمانينات هي الذات الرومانسية القديمة ، بل أنها ـ في تقديري ـ **ذات** تعبر وتجسد أزمة **موضوع** . ولذلك فإن تفكك الذات وتعقدها في هذا الشعر هو صورة من صور تفكك وتعقد الموضوع . وأعتقد أنه لابد من مراجعة الفكرة التي تقول بذاتية شعر السبعينات وغموضه ، فمثل هذه المراجعة ستضع يدنا على صلات عديدة بين هذا الشعر وبين الواقع المعاش . لكن هذه الصلات ـ وهذه هي المسألة / المشكلة الجديدة ـ لاتبدى بمثل ما كانت تتبدى به الصلات مع الواقع في السابق . وعلينا جميعا أن نبحث أشكال هذه الصلات ، ومدى اختلافها عن ماسبق من صلات .

أما عدد « **الشعر** » من **أدب ونقد** ، فلم نزعم أبدا أنه عدد يشمل كل التيارات أو كل الشعراء بشكل كامل تام ، فهذا أمر لاتستوعبه مجلة واحدة .

ولهذا ، فهناك شعراء عديدون غابوا عن هذا العدد ، مثلما كان شعراء عديدون حاضرين في نفس العدد .

لقد كان غرضنا أن نقدم مادة وفيرة ونماذج متنوعة ، تعرض للقارىء والناقد أرضية عريضة من الشعر والشعراء ، لكي يبحثوا ويدرسوا خصائص هذا الشعر وملامحه العامة ، وأن نعطي فرصة طيبة لشعراء لم ينشروا من قبل ، من الشباب الجديد .

وليس هناك عمل يخلو كلية من النقص .

حلمي سالم

الحياة الثقافية



د. لويس عوض

متابعات ـ ندوات ـ سينما ـ مسرح ـ معارض ـ كتب



رسالة من الأرض المحتلة :

الملصق الفلسطيني يقاتل

أعزائي : أدب ونقد

سيشارك الفنانون الفلسطينيون في الأرض المحتلة في معرض قريب يقام في ايطاليا وقد جمّعت اغلب البوسترات التي رسمتها خلال السنوات العشر الأخيرة في ثلاث صفحات وارسلتها مع اعمال بقية الفنانين الى ايطاليا .

ان اغلب هذه البوسترات من عملي الاّ النزر اليسير الذي اشرت غليه بعلامة وانني ارسل لك النسخ المرفقة طيّة ، احتراماً وتقديراً للدور الريادي الذي تؤديه مجلة « ادب ونقد » على مستوى العالم العربي .

إنني اشتغل بتدريس الفن في جامعة النجاح الوطنية في نابلس ، والمغلقة منذ بدء الانتفاضة وإنه ليشرّفني اذا ارتأيت من المناسب نشر بعضٍ مما حوته رسالتي على صفحات مجلتكم .

كريم دبّاح



١٧ نيسان يوم السجين الفلسطيني
HAPPY NEW YEAR 1982
المهرجان الوطني الثاني للأدب الفلسطيني في الأرض المحتلة
١٩٨٢
عاشت الثامن من آذار يوم المرأة العالمي
١٩٨٧
CLOSE ANSAR III
اغلقوا معتقل انصار ٣
اتحاد الكتاب في الضفة الغربية وقطاع غزة
19 90
كريم دباح


مؤتمر
التنمية
من
اجل
الصمود
١٧ نيسان
يوم
السجين
الفلسطيني
ارفعوا
ايديكم
عن
جامعة
اليرموك
FREE FATHI GABIN
WORLD
CONGRESS
OF WOMEN
MOSCOW
23-27 JUNE 1987
مؤتمر
النساء
العالمي
موسكو
KAPUM
ДАББАХ


ПА
ЛИ
С
ТИ
НА

قلب الليل :
أربع قراءات للرواية وقراءة واحدة للفيلم

أحمد يوسف

باختيارهم لرواية « قلب الليل » (١٩٧٥) لنجيب محفوظ ، لصنع فيلم (١٩٨٩) يستحق أن يكون تكريماً رصيناً من فن السينما لرحلة مبدع روائى عظيم ، وضع صناع الفيلم أنفسهم فى مأزق صعب ، اجتازوه بنجاح لايمكن انكاره ، لولا بعض التردد الذى شكل قيداً على الرؤية العامة للفيلم .

أما المأزق الصعب فى هذا الاختيار ، فيعود إلى أن رواية « قلب الليل » تكاد تكون من أصعب روايات نجيب محفوظ ، بل ربما كانت أصعبها على الاطلاق ، ليس لأنها أعظم تلك الروايات ، بل على العكس ، لأنها أقرب لمخطوطة غير مكتملة لعمل روائى طموح ، يشمل بين طياته بذوراً (لكل) عوالم روايات نجيب محفوظ ، التى سبقت « قلب الليل » والتى تلتها معاً ، وكأنها كانت جسراً يضع قدماً فى عوالم الرموز الميتافيزيقية المطلقة التى تتخلل « أولاد حارتنا » و « الطريق » كما يضع قدماً أخرى فى الرمز التاريخى المعاصر ، الذى أصبح فيما بعد محور روايات نجيب محفوظ بدءاً من « الباقى من الزمن ساعة » وحتى « حديث الصباح والمساء » و « أسعد الله مساءك » .

ولقد بدت تلك الرواية القصيرة وكأنها تنوء بحمل تلك العوالم جميعها ، فظلت تقفز ، بين بدايتها ونهايتها من عالم الى آخر ، وإن لم تستطع أن تصنع منها عالماً واحداً مكثفاً .

صعلوك ، فى قلب الليل :

ذلك هو المستوى الأول ، والمباشر ، للرواية وأحداثها . صعلوك ينحدر من أسرة عريقة ، أمسى مشرداً بعد رحلة حياة طويلة ، حافلة بالسعادة والشقاء ، بالأمل واليأس ، بالعقدة والعجز ، بالحرية والجبر . وهاهو يحكى للراوى حكايته خلال تناولهما للعشاء القصير فى مسمط للكوارع بشارع محمد على ، ثم فى جلسة طويلة بالمقهى ، يسترسل فيها الرجل العجوز المهدم فى ذكرياته .

وفى الحقيقة أن هذا الشكل الروائى ، الذى يستخدم راوياً عابراً لايتعدى دوره الانصات للراوى صاحب القصة الحقيقى ، ليس مجرد وسيله لكى يقص علينا بطل الرواية حكايته ، وإنما يشير الى أننا ندخل ذلك العالم من خلال الشخصية الرئيسية ، نراه من خلال عينيها ، ونفهمه من خلال وعيها ، حيث لا تكتسب وقائعها صدقاً كاملاً ، ولاتحمل رموزها دلالات قاطعة ، وكأن نجيب محفوظ — من خلال درس منع « أولاد حارتنا » — قد تعلم أن يختبىء وراء بطله اختباء كاملاً ، فلا تصبح الرواية هى رؤية الراوى الموضوعى المحايد ، بل إنها — من السطح — لاتتعدى أن

تكون الفرصة التى تلوح للبطل المهزوم ، لكى يحكى لنا ما (يتصوره) عن نفسه ، وعن العالم ، والوجود ، يحكيها لنا خلال ممارسة ملذاته اليومية العابرة ، وهو يلتهم وجبة عشاء ، ويرتشف كوباً من الشاى أو الخمر الرخيص .

وعلى حين يبدأ صاحب الحكاية ذكرياته فى أول المساء ، فإنه ينتهى منها فى قلب الليل ، الذى يعبر عن موت يوم مضى ، فى نفس الوقت الذى يشير فيه إلى ولادة يوم جديد .

وتمضى بنا الرواية — فى هذا المستوى ذى الدلالة المباشرة — فى سرد وقائع حياة الرجل العجوز ، الذى تقلبت به الدنيا من سعادة الطفولة الفقيرة ، إلى نعيم الصبا الزائل ، إلى نزوة الشباب الجامحة ، إلى نضج الكهولة المبكرة ، حتى ينتهى به الأمر الى غياهب السجن ، يقضى فيه أكثر سنوات العمر عطاء ، ليخرج منه وقد فقد كل شىء .

وفى هذا المستوى من الرواية، يتجسد ولع نجيب محفوظ بتعقب مصائر البشر ، التى لاتنبىء بداياتها ابداً بخواتيمها ، على النحو الذى كانت فيه عائشة ، أجمل فتيات عائلة الثلاثية ، تتلقى ضربات القدر المأساوية ، أو ينتهى الفتى العابث حسين عاكف فى « خان الخليلى » صريعاً بذات الرئة ، وكشخصيات عديدة أخرى عاشت بين « المرايا » ، أو مابين « حديث الصباح والمساء » .

قراءة أخرى للرواية : الميتافيزيقا :

ذلك هو المستوى الثانى للرواية ، الذى لايمكن أن تخطئه عين قارىء نجيب محفوظ ، والذى يتردد هنا بنفس المفردات التى يتردد بها فى أعماله الروائية والقصصية الأخرى .

ويكتسب « قلب الليل » فى هذا المستوى دلالة جديدة ، فهو ليل ميتافيزيقى تضيع فيه الرؤية وتغشى الأبصار ، يفقد فيه الانسان كل القيم المطلقة . ويصبح — بعد أن كان فى أحسن تقويم — أشبه بأطلال خرابة قديمة مهدمة « حالى كما ترانى أمامك . خرابة من الخرابات » . ولكن تلك الخرابة نفسها تصبح امتداداً لما آل إليه قصر الجد القديم ، الذى تحول بدوره الى أطلال لايملك الانسان إلا أن يتشبث بها « الخرابة ... هى ملكى بوضع اليد ، وهى ماتبقى من بيت جدى القديم » .

هناك فى « قلب الليل » ، كما فى روايات أخرى ، جد عجوز ، يسكن قصراً ذا أسوار عالية وحدائق وارفة ، يجمع بين الرحمة والبطش « وذلك مايجعل من جدى لغزاً فى نظرى ، شخصية توحى بالسماحة والرحمة والعذوبة ولكنه ينقلب بالغضب شيطاناً أو حجراً صلداً . وهو أيضاً الذى « يطالب الانسان بالسمو والتطور والكمال ، وباعتناق رؤياه فى الوجود ... الطريق إلى حنانه واضح مستقيم ، ولكنه حافل بالجهد والصبر والعرق والقوة والتقدم والسمو » .

ويصبح لقصر الجد — كما للتكية فى رواية أخرى — ذكرى غامضة عن احساس بالطمأنينة الكاملة التى تحققت فى عصر ذهبى مضى ، حين كان من الممكن أن « نسمع تغريد البلابل وزقزقة العصافير ... أما أنفى فقد فغمته أخلاط من روائح الجنة حتى أثملته » .

لذلك يصبح التمرد على الجد نوعاً من السقوط فى الخطيئة ، والخروج من الجنة ، ليبدأ الانسان رحلته فوق « تراب الأم الخالدة » ، الأرض ، بكل جمالها ودنسها ، فقرها وغناها ، التى تغرى بوحشيتها الآسرة ، فيتبعها الانسان إلى حيث يستطيع أن يلبى أشواق جسده . وهنا تصبح مروانة ، الراعية الجميلة الشموس ، التى ارتبط بها بطلنا فى شبابه ، امتداداً للأم ، فهى « تكاد تسبغ قداسة على التراب الذى منه جاءت كوردة برية » . وحين يرتبط بها الانسان يقول عن نفسه « إننى أتمرغ فى التراب ولكننى هابط فى الأصل من السماء » .

ويمكنك أن تجد معادلاً مباشراً ، وربما عقلاً أيضاً ، بين هدى صديق والعقل أو الفكر الذى يرتبط به الانسان فى كهولته ، كما تجد تماثلاً بين محمد شكرون والفن ، الذى يظل قريباً ومحبوباً من الجميع، وفى كل المراحل، بدءاً من الجد ، ومروراً بمروانة وحتى هدى صديق .

أما بطلنا ، جعفر ، حفيد سيد الراوى الكبير ، فهو الذى حمل « حياة لايقدم على حملها الجن » ، وكأنها الأمانة التى أبت الملائكة أن تحملها وحملها الانسان ، الذى تضم روحه مزيجاً من الفجور والتقوى ، لذلك تراه كما يقول له شكرون « إنك شيطان فى تكيفك مع العربدة ، ملاك فى تكيفك مع الاستقامة » ، أو كما يقول هو عن نفسه « إننى زمة من المتناقضات » .

لقد سار صاحبنا فى مناكب الأرض ، وأصبح له أبناء ينتشرون فى كل مكان « لعلهم يملئون الأرض ، لى أبناء قضاة وأبناء مجرمون » .

والآن ، فى « قلب الليل » ، وقد صار قصر الجد أطلالاً ، وضاع أثر الأم ، ومروانة ، وهدى صديق ، وشكرون ، بكل مايمثلونهُ جميعاً ، « لم يبق من العمر إلا أيام ، ومازالت البشرية تعانى العذاب والقلق . مازلنا نموت مخلفين وراءنا أملاً قد تحقق ونسى » .

ومع ذلك ، فإننا مازلنا نطالب بحقنا فى وقف قصر الجد القديم .

قراءة ثالثة : تطور تاريخى ، وليس نظاماً ميتافيزيقياً :

وهنا يبدو أن هناك معنى جديداً تماماً لما يمكن أن يشير إليه « قلب الليل » ، يذكرك كثيراً بما يعنيه « قلب الظلام » عند جوزيف كونراد ، تلك الرواية القصيرة التى تشترك فى عنوانها مع عنوان رواية نجيب محفوظ ، كما أنها تشاركها الشكل الذى يعتمد أيضاً على الراوى العابر ، يلتقى فى الليل مع صاحب الحكاية ، الذى يقطع بسردها الرهبة التى تسرى فى وجدانهما حين يعبران ، فى سفينة على نهر التيمز ، قلب الظلام وكأنهما يصلان الى حافة العالم بحثاً عن نهار جديد .

وفى الحقيقة أن هذا ليس التشابه الوحيد بين الروايتين ، فكل منهما لاتكتفى بالمستوى الواقعى وحده لحكاية يسردها شخص عن رحلة الحياة الطويلة ، أو أن تشير إلى الخواء الذى صارت إليه شخصية البطل عندما اقترب من نهاية العمر ، بل إنها تقدم صياغة (تاريخية) لمراحل التطور البشرى . وهكذا تصبح لمغامرات البطل فى « قلب الظلام » دلالة رمزية على الليل الذى يسود عصر الامبريالية ، حيث أوربا تخترق أفريقيا السوداء ، لتكشف تحت قشرة الحضارة الأوربية عن وحش كاسر فى قلب الانسان ، ويصبح قلب الظلام هو تلك الظلمة التى قادت الحضارة الأوربية نفسها إليها ، فى عصر تصورت فيه أنها قد ملكت زمام كل شىء .

وهذا الطموح الذى يسعى إلى تقديم رؤية تاريخية عامة وشاملة ، من خلال حياة فرد واحد ، هو ماحاولت رواية « قلب الليل » أيضاً أن تقدمه . والرواية لاتفعل ذلك تلميحاً فى كل الأحوال ، بل قد فعلته تصريحاً فى بعض أجزائها . إن البطل ينظر إلى رحلة التاريخ الانسانى نظرة متأملة ، أسيانة ، يرى فى كل مرحلة بهاء خاصاً ، وسحراً باطنياً أصيلاً . وعنده لايصبح المعيار هو التقدم أو التخلف ، الحقيقة أو الخرافة ، « فلا توجد خرافات وحقائق ، ولكن توجد أنواع من الحقائق تختلف باختلاف أطوار العمر وبنوعية الجهاز الذى ندركها به ، فالأساطير حقائق مثل حقائق الطبيعة والرياضة والتاريخ » .

إن رحلة الانسان تبدأ — كما تمثلها طفولة جعفر الراوى على تلال مرجوش — حيث لم يكن قد عرف بعد أن له جداً يسكن قصراً . وكل مايعرفه هو عالم صغير يختلط فيه « الجن الماجن والجماد اللعوب والحقائق الطبيعية والأحلام الحقيقية » ، عالم يتجسد فى الرواية فى « حجرة يصعد إليها من الدهليز بسلم ذى درجتين ، وفراش مرتفع يرقى إليه بسلم خشبى يغرى باللعب ، ونارجيلة معزولة فوق صوان حتى لاتمتد لها يدى ، وقطط مدللة ، وجندرة ، وكرار مظلم تسكنه ألواع شتى من الجن ، وفأر أسود ، ومبخرة، وقلة مغروسة فى صينية يسبح الليمون فى مائها ، وكانون وزكائب فحم ، ودجاج وديك مزهو فخور » .

ذلك هو عالم طفولة جعفر الراوى ، وفجر الحضارة الانسانية ، حيث تتخلق الحقيقة فى مزيج من الأحاسيس المادية المباشرة والأوهام الروحية الجامحة، وحيث يصبح الكون والكائنات وحدة واحدة ، فى تناغم واتحاد لا انفصام فيه . إن الوعى الانسانى فى تلك المرحلة اتخذ السحر والطقوس السحرية والتعاويذ وسيلة لفهم العالم والسيطرة عليه « كانت لأمى أحاديث متنوعة ذات صيغ شعرية تخاطب بها الكائنات جميعاً ... الإنس والجن والحيوان والجماد » . وفى مثل هذا العالم يصبح للجنة معنى وثنى « كانت أمى تحدثنى عنها حديث الخبير ... جنة السحر حيث يرى الله بالعين ويسمع بالأذن ويخاطب باللسان » .

وكأن نجيب محفوظ يود لو يفهم القارىء على نحو مباشر مايريد أن يرمز إليه ، فيجعل جعفر الراوى يلخص الأمر بأنه « لاتوجد طفولة ، ولكن يوجد حلم وأسطورة . عهد الحلم والأسطورة » .

وحين تموت الأم ، ويأفل الحلم والأسطورة بسحرهما



وسذاجتهما ، يذهبون بالطفل الى قصر الجد . وكالانتقال من النقيض الى النقيض يكون الانتقال من السحر والوثنية إلى الدين بمعناه الذى يشمل مرحلة كاملة من مراحل تطور الحضارة الانسانية ، حيث لايصبح العالم ملكاً للأرواح الشريرة والجن والعفاريت ، بل يكون على الانسان أن ينكر عليها ذلك ، ويجعل القدرة لله وحده . « إن الجن تختفى من حياة الفرد مع اختفاء عهد الأسطورة وسرعان ماينساها تماماً ، بل إنه ينكرها » . وفى مرحلة الصبا من مراحل التطور البشرى يكون على الانسان أن يؤمن بالدين الذى يختلف عن أساطير الوثنية ، « دين جديد غير الدين الذى تلقيته على يد أمى ، دين المغامرة والأسطورة والمعجزة والحلم والشبح . أما هذا فدين يبدأ بالتعلم والجدية ، حفظ سور وشرحها، إلمام بالقواعد، ممارسة للصلاة والصيام ، دين نظرى وعملى .. » يجمع بين ماوقر فى القلب ، وصدَّقه العمل ..

لكن جعفر الراوى ، الانسان ، يرى أنه « لم يراع فى اعداد القصر مطالب الأطفال » وملذاتهم الساذجة . فهذا الدين يدعو الانسان الى التسامى فوق حاجاته البسيطة بل التافهة ، وهو مايجعل جعفر يشعر أن « أزمة تلك الفترة كانت أزمة جنس ، أزمة المراهق المتشوف الى القداسة ، ونزاعه الدائم مع غرائزه القوية » .

إن هذا الصراع بين الروح والجسد ، يجعل الصبى يود لو يخرج من أسوار هذا السجن الجميل ، « وطيلة الوقت أتعطش للانطلاق فى الحارة ، وهل يمكن ان انسى رحلاتى المتواصلة فى حوارى القاهرة تشدنى يد أمى ؟ » ، وكأنه يبحث عن حل أزمة الصراع بين السماء والتراب ، والخروج من مرحلتى الأسطورة والدين .

ويأتى الخلاص من تلك الأزمة ، كما تصور جعفر الراوى ، أو الانسان ، فى الإيمان المطلق بالمادة والحس ، بمروانة . ومع أول لقاء بها شعر أنه « سيخرج من القمقم مارد لاتعرفه » . لقد بدأ الانسان فى التعرف الحسى ، دون تهاويم أسطورية هذه المرة ، على قدراته ، وعلى الطبيعة . وبدا أن هناك « شخصاً جديداً يبعث ... لاعلاقة له بالشخص الميت ، شخص حديد ثمل ، يفيض قلبه بالأشواق ، والقدرة الخارقة على الالتحام » .

لقد كان هذا (البعث) خروجاً على العالم الوديع الساكن الذى يمثل العصور الوسطى ، كما يجسدها قصر الجد . بجماله وجفافه ، نقائه الذى يبدو أشبه بحياة معقمة . وحين يسأل الجد حفيده : « تخون الجمال والنقاء ، فى سبيل ماذا ؟ » تكون إجابة الإنسان ، الذى يعرف أنه سوف يغادر القصر « إلى الأبد » ، من أجل « الحرية .. الدم والتشرد والهواء النقى » .

ويعود جعفر إلى تلال مرجوش ، إلى الأرض والتراب ، ملبياً نداء مروانة الغامض « للتمرغ فى تراب الأم الخالدة » . لكنه لايعود إليها طفلاً تسيطر على روحه الجن والعفاريت ، بل لذة المغامرة والاكتشاف المادى للعالم .

لقد كانت مرحلة العودة إلى الأرض ، بعيداً عن أسوار الجد ، لاتمثل فى حقيقتها خروجاً من الجنة أو هبوطاً إلى الحضيض ، كما كان الأمر فى التفسير الميتافيزيقى ، بل كانت درجة جديدة يرتقيها الانسان فى رحلة صعودة التاريخى ، لقد كانت الحواس ، فى تلك المرحلة ، طريقاً لارتقاء الروح . « الناس يتصورون أننى كنت شيخاً طيباً ثم فسدت ... كلا ، ليس الأمر كذلك ... استبدلت بمهنة التدريس أو الوعظ مهنة أخرى هى الغناء ، أما روحى فقد ارتفعت درجات ، وقلبى لم يفسد ولم يتزعزع إيمانى » .

ولأن لكل مرحلة تناقضاتها ، فقد بدا أن طريق الحواس والمادة الصماء طريق مسدودة . لقد ظلت مروانة عصية على الترويض الكامل ، ظلت « تكره رائحة البيوت » ، وتود لو أطلقت من عقالها ، جامحة لاتلوى على شىء . ووجد الانسان نفسه فى معركة مع الإيمان المستسلم للحواس المادية الخالصة ، وكانت هدى صديق ايذاناً بمرحلة جديدة .

ولم تكن هدى صديق ، بالنسبة لجعفر ، مغامرة جديدة « فالمغامرة الحقة استجابة لنداء مجنون ، أما هذه الخطوة فتتحقق فى رحاب الرؤية وتحسب بالتفكير والمنطق » . لقد كانت مغامرة من نوع خاص ، لخصتها هدى صديق بقولها « المغامرة الحقة فى رأس الإنسان » .

لقد بدأت مرحلة (العقل) ، التى حملت فى ثناياها عبيراً من السكينة والهدوء الذى كان يتخلل مرحلة الاحتماء بأحضان الجد ، لكن عبير العقل يحمل أيضاً رائحة الحياة والبشر ، وليس فقط رائحة بخور التكية العبقة وخدمها المطهرين . « ذهبنا إلى بيت آل صديق ... ذكرنى بالسلاملك والحديقة فى قصر جدى ، ولكن الحديقة كانت أصغر ، كما أن سور البيت كان قصيراً لايحجبه عن العالمين » . لقد كان العقل هو الخلاص من أزمة الطفولة والصبا ، « تزعزعت ثقتى فى الايمان الخالص ، كما تزعزعت فى لغة القلب ، وعلى العقل أن يحل بقوته هذه المشكلة » .

وإذا كان جعفر الراوى قد اهتم فى مرحلة الصبا ، تحت حمى الجد ، بدراسة علوم الدين ، فإن هدى صديق فتحت أمامه عالماً جديداً ، « فتنت بمواد الدراسة المتنوعة ، واستوعبتها بمقدرة شخص ناضج ، وانجذبت لها بأقوى مما انجذبت الى علوم الدين .. » وكانت قمة تلك المرحلة هو وصوله لما تصوره يقينا يحقق له « **المنهج العلمى الذى يتحقق به أكبر قدر من الدقة والموضوعية والنزاهة** » ..
ومع هذا المنهج استطاع أن يصل إلى نظام فلسفى « دقيق ، أفقدنى الكثير من مظاهر الحرية السطحية (التى توفرت له فى مرحلة اطلاق الحواس) ، ولكنه فتح لى أبواب الحرية المضيئة التى يسمو بها الانسان على ذاته بالوعى » .

وبحثاً عن (العقل الخالص) ، يعيش جعفر يحلم بأن يجد فيه الخلاص . « عشقت العقل وحلمت طيلة الوقت بسيادته المطلقة ... أحلم بحياة عقلية خالصة يستوى العقل فيها على عرش السيادة على حين تستكن الغرائز على أرض الطاعة والعبودية » . وبدا له أن العقل الخالص يمثل حلاً يمنح حرية بلا حدود للانسان حين يجرده من كل مايربطه بالزمان والمكان ، بالفرد والوطن . « تصوُر أن نقيِّم أنفسنا دون خضوع للأنانية ، أن نقيِّم أوطاننا بلا تأثر بما تدعوه الوطنية » .

لكن ذلك كان بداية الطريق المسدود الذى يسير فيه العقل الخالص ، الطريق إلى احتقار الانسان لذاته ، وغرائزه ، وارتباطه بالوطن ، والأرض ، والتراث . « مأساة الانسان العاقل ... أن النصر مايزال حتى اليوم مقرراً للغرائز ... فاللغة التى تستجيب لها الملايين ماتزال هى لغة العواطف والغرائز ، أغانى الجنس والوطن والعنصرية والأحلام السخيفة والأضاليل » .

قد يكون لطريق العقل الخالص سحره ، لكنه يحمل فى طياته نزعة فاشية تبرر ، على الطريقة النيتشوية ، أن يرفع الانسان سلاحه ليقتل الآخرين بدعوى المبررات العقلية المجردة . إن جعفر ينظر باحتقار إلى الجماهير التى تدافع عن أوطانها ، « إن الذين يقتلون بدافع من غرائزهم لاحصر لهم ، ولكن (وهو يأسف لذلك) لم يقتل أحد بدافع من تفكيره الخالص النزيه النقى » . وكان جعفر هو ذلك الانسان الذى يقتل بدافع من تفكيره الخالص النزيه النقى !

لقد قادته نزعته الفاشية الى الاصطدام بسعد كبير ، الذى يمثل وجها اخر للعقل ، يرتبط بالجماهير ويحس نبضها ، ويرى أن الخلاص — ليس كما يرى جعفر فى العقل الخالص أو فى الأخلاق — وإنما فى إقامة النظام الاجتماعى العادل . والصرع العقل الذى يسعى — بحق — لأن يتحقق

العدل الاجتماعي ، على يد العقل الذى حول الإنسان الى قيم لانبض فيها ولا حياة ، لايجد الانسان مايفعله فى هذا العصر إلا أن يبكى على الأطلال القديمة ، وقصر الجد المهدم ، ومروانة الهائمة فى الآفاق ، وهدى صديق التى اندثر قصرها وأصبح عمارة كئيبة عارية عن الجمال ، وشكرون الذى اختفى وليس هناك أمل فى أن يعود .

لقد بات الانسان ، كما تقول الوجودية ، فى حالة هجران . ليس هو الذى هجر العالم ، لكن العالم هو الذى هجر الانسان .

قراءة رابعة : تاريخ مصر المعاصر :

تمثل الثلاثية عند نجيب محفوظ نموذجاً رفيعاً من (رواية الأجيال) ، التى تتجاوز سرد مصائر الأجيال المتعاقبة فى إطار مراحل تاريخية محددة ، لتكتسب بعداً ملحمياً شاعرياً . لكن « قلب الليل » كانت بداية أعمال نجيب محفوظ التى حاولت أن توحى ، بشكل قوى ومباشر ، برؤية شاملة لتاريخ مصر فى العصر الحديث ، والتى جعلت من رواية « الباقى من الزمن ساعة » أشبه بتلخيص مدرسى لهذا التاريخ ، بينما استطاعت « أحاديث الصباح والمساء » أن تقدم بانوراما كاملة لها عبق التاريخ ، وإيحاء الشعر .

أما مع « قلب الليل » ، كان نجيب محفوظ مايزال وفياً لمفرداته الخاصة ، وإن حاول من خلال تلك المفردات ذاتها أن يقدم صياغة للتاريخ المصرى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين . ولذلك تكتسب نفس المفردات : الجد ، التكية أو القصر الغامض ، الأب ، الأم ، الجسد ، الأرض ، الروح ، العقل ، تكتسب جميعها دلالات جديدة عند قراءتها فى ضوء التاريخ المصرى المعاصر .

ولعل مفتاح هذه القراءة هى شخصية الأب ، التى تمر بطريقة عابرة فى أحداث الرواية ، حتى أنها تبدو الأصل الشبحى الباهت الذى كانت شخصية الابن ، جعفر الراوى ، هى الظل الواضح لها .

فعالم الجد يبدو فى الرواية عالماً ساكناً ، مستقراً ، كسجن جميل ، أو كحلم بعصر ذهبى مضى ، يخفى حساً طبقياً حاداً حيث يعيش معزولاً عن عالم الحارة وعن أحاسيس البسطاء من الناس ، بينما يقيم الصلات القوية بالصفوة : الارستقراطية من ناحية ، وعلماء الأزهر من ناحية أخرى . وفى أحضان هذا العالم نشأ الأب ، لكن احتكاكه بأوربا (كما حددتها الرواية) زرع فى نفسه بذرة التمرد . « أنشأ جدى أبى نشأة دينية التزاماً بخط الأسرة حتى فاز بالعالمية ، وأراد أبى أن يسافر إلى أوربا للسياحة والدراسة ، فتردد جدى ملياً ثم وهبه الموافقة فسافر الى فرنسا ، تعلم الفرنسية ، واستمع الى محاضرات فى الفلسفة واللاهوت فى دراسة حرة ثم رجع إلى وطنه ، دون أن يحصل على شهادة أو يحرر رسالة » .

وهكذا لم يثمر الاحتكاك الأول بعالم أوربا عن فكر جديد أصيل ، فقد كان الأب يميل إلى « التوفيق بين الدين من ناحية ، والعلم والفلسفة من ناحية أخرى ... وبصفة عامة يمكن أن يصنف أبى من **الليبراليين** » .

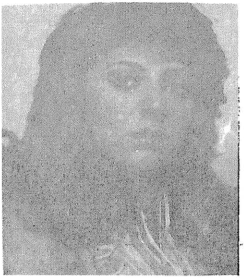
لكن تلك النزعة الليبرالية التوفيقية ذاتها كانت خلال القرن التاسع عشر بشيراً ونذيراً بتقويض العالم القديم ، ورغبة محمومة فى استنهاض الأمة من رقادها ، وميلاً إلى الارتباط بالجماهير ، فأحب الأب فتاة فقيرة وارتبط بها ، لكن الأمر قد تم حسمه فى النهاية لصالح الجد ، الذى كان مايزال يملك كل شىء . « أحب أبى أمى فى الوقت الذى كان جدى يدبر تزويجه من كريمة شيخ الأزهر ، وتزوج منها دون مبالاة . ماذا كان عيبها ؟ الفقر ؟ ... انفجر غضب الراوى ، وهوى بقبضته على رأس الابن الوحيد فقطعه ونبذه ، وخيل إلى كثيرين أن سلسلة الراوى **بعضويها التاريخى** قد انعدمت وانتهت ... » وهكذا اجهضت تجربة الليبرالية الأولى .

وعلى الدرب نفسه سار جعفر الراوى ، ممثلاً لليبرالية القرن العشرين . عندما يقترح عليه الجد أن يدخل الأزهر الشريف يقول الحفيد « يسرنى جداً ياجدى ، وأود بعد ذلك أن أسافر إلى أوربا ... أسوة بما فعل أبى .. » لكنه يتحسس المصير ، فما تزال تجربة الأب المطرود عالقة فى ذهنه .. « أكانت خطيئة أبى الوحيدة أنه تزوج من أمى ؟ » .

لكن طريق الليبرالية الحقيقية سوف يقود حتماً الى الصدام مع العالم القديم ، والى الارتباط بعامة الناس . فجعفر ظل وهو داخل قصر الجد « طيلة الوقت أتعطش للانطلاق



عاطف الطيب



هالة صدقى

فى الحارة » .. ثم يرى بعينين أكثر وعيا العالم خارج القصر « دخلت الأزهر فى طور المراهقة مدعماً بقوة انسانية منورة ، كأننى أمير سماوى ، لأجد نفسى فى بيئة شعبية أصيلة أنهكها الفقر والتقشف والأسى ، ولاتيسر لها الانسانية الحقة » .

وهكذا تقوده قدماه إلى مروانة ، التى لم تكن فى حقيقتها مجرد امرأة فقيرة أصيلة كالأم ، وإنما كانت أقرب للغوغاء والسوقة (أو الرعاع باستخدام كلمات الرواية) ، والتى وجدت فى النهاية أن الليبرالية ، حين تكون فارغة عن أى مضمون اجتماعى ، لاتقدم لها شيئاً ذا بال ، فتتمرد عليها ، وتعود راضية الى سيرة حياتها الأولى .

وبدلاً من أن يقوم جعفر — ليبرالى القرن العشرين — بدوره فى حماية الجماهير ، يبحث عمن يحتمى به ، ويجد ضالته فى هدى صديق التى تمثل الصفوة الجديدة ، وريثة العالم القديم ، وإن بدت أكثر عصرية .. « ذكرنى بيت آل صديق بالحلمية ... بقصر جدى ، ولكن الحديقة كانت أصغر .. وكانت هدى فى الحقيقة ليبرالية أصيلة ترى فى النظام الانجليزى مثلها الأعلى .. »

لذلك لم تكن هدى صديق فى هذه القراءة نقيضاً للجد ، بل كانت امتداداً لدور الصفوة التقليدى الذى عاشه جعفر فى قصر « فى بيت جدى ... يمجدون الصفوة التى يجب أن تحكم لخير الصفوة والرعاع والوطن .. وصلت فى ذلك الوقت الى الاقتناع بتلك النظرية ، والتسليم بها كوسيلة ناصعة لانتظام الأمور » .

وفى ظل الصفوة الجديدة عاش جعفر يحلم بامتلاك منهج ورؤية جديدين ، وإن اختلطت أمامه المناهج والرؤى « فى مكتبى .. اصطرعت أفكار الليبرالية والاشتراكية والشيوعية والفوضوية والسلفية الدينية والفاشستية » .

لكنه ، وبحكم جذوره فى عالم الصفوة القديم ، يميل الى الليبرالية : « أجد فى الصفوة نبلاً وثقافة وعراقة تاريخية .. وفى الليبرالية حرية وقيم وحقوق للانسان » . لكن تلك الرؤية التلفيقية الغامضة والغائمة للحرية وحقوق الانسان لايكشفها إلا سعد كبير ، الذى يؤمن بأن جعفر يجب أن يبدأ « بالمادية الجدلية والمادية التاريخية » ، ويرى أن قضية الصفوة ليست إلا قضية مقلوبة « ممكن فى نظام اجتماعى عادل أن يرتفع كافة الأفراد الى مرتبة الصفوة » .

وهكذا يصطدم جعفر وسعد كبير : « وجدت فى موقف سعد كبير التحدى الحقيقى الذى يواجهنى بكل صلابة » . وهذا الصراع بينهما ، بما يمثله من صراع بين منهجين مختلفين ، هو ذروة أحداث الرواية ، التى تكاد تقف الى جانب سعد كبير الذى يؤمن بالمادية الجدلية والمادية التاريخية .

فالرواية تكشف عن تداعى المنهج التلفيقى لجعفر الذى يؤكد « إنى أقف موقفاً واحداً من جميع الفلسفات ، والفلسفة الماركسية ليست إلا فلسفة من الفلسفات . فلماذا تتحول إلى عقيدة ؟ .. إننى أرى العدالة الاجتماعية بديهية لاتحتاج الى نظرية ... إن نظامى

هو الوريث الشرعى للاسلام والثورة الفرنسية والثورة الشيوعية ... لن تخيفنى نعوتك المشهورة . برجوازى . تصالحى . تجميعى . فمن حقى أن أنشىء مذهباً جديداً إذا لم أقتنع بالمذاهب القائمة » .

إن سعد كبير يرد فى جملة واحدة كاشفة : « بشرط أن تنشىء حقاً لا أن تلفق » .

ولايجد جعفر ، ولا الليبرالية ، مخرجاً لهذا الصراع إلا القتل ، « لطمته ، لكمنى ، اشتبكنا فى صراع مخيف ... كنت أقوى منه وكان أكثر شباباً ، ولما بدأت ألهث ، تناولت قطاعة الورق ... » .

ولعشرين عاماً كاملة ، تلمح الرواية أنها الخمسينات والستينات ، تكون الليبرالية قابعة خلف أسوار السجن ، لتخرج بعدها شبحاً غير قادر على الحياة .

وهنا ، فى القراءة الرابعة ، يكون « قلب الليل » هو اللحظة الحاضرة من تاريخ مصر كما تصورها الرواية ، وقد اختفى الأمل بعد مصرع سعد كبير ، وأصبح جعفر عجوزاً مهدماً ، ولاتوجد شخصية واحدة فى الرواية تملك مستقبلاً ، أو تشى بقدوم فارس جديد .

الفيلم ، فى « قلب الليل » :

من كل تلك الدلالات لعنوان « قلب الليل » حاولت الرواية أن تغزل نسيجاً واحداً ذا مستويات أربعة مختلفة ، باستخدام نفس المفردات التى تنتمى على نحو حميم لعالم نجيب محفوظ . لكن الفيلم بدا حائراً متردداً ، أى المستويات يختار ، حتى أنه ينتهى عاجزاً عن الوفاء بأى منها .

ولقد ترك هذا التردد بين تلك المستويات ، والعجز عن صهرها معاً ، أثره على الفيلم ، حتى أنه بدا ــ رغم توخيه درجة عالية من الجمال ــ أقرب إلى سلسلة من الحلقات المنفصلة ، والمتباينة أسلوباً ومضموناً ، لايجمع بينها الا الشخصيات التى لاتكاد تلحظ فى بنائها أى تطور درامى ، بينما تقفز شخصية البطل من مرحلة الى أخرى ، وكأنها ترجمة حرفية لقوله عن نفسه فى الرواية « إننى أتغير من النقيض إلى النقيض فجأة » ، رغم أنه كان يؤكد دائماً أن المرحلة الماضية من حياته لاتموت ، وتظل حية فى كل مراحل حياته التالية . لذلك كانت شخصية جعفر الراوى ــ وهى الشخصية المحورية ــ نقطة الضعف الرئيسية فى الفيلم ، إذ بدا لصناع الفيلم أن هذا التطور ــ من النقيض الى النقيض ــ يجعلها شخصية مترددة ، عاجزة ، ينتهى بها المطاف الى الجنون .

لكن تردد جعفر الراوى لم يكن دليل مس أو جنون ، وإنما كان طابعاً أصيلاً يعكس حيرة الانسان أمام القيم المطلقة ، كما يعكس فى مستوى ثانى عدم وصول البشرية الى اليقين ، ويبلور فى مستوى ثالث موقف الطبقة المتوسطة خلال فترة الأزمة المعاصرة ، حيث تقف مترددة ــ فى مجرى التاريخ ــ فى مفترق الطرق .

لذلك لم يظهر فى الفيلم أثر ــ إلا على لسان سعد كبير ــ للنزعة التوفيقية الذى كان جعفر (مقتنعاً) بها بحق ، وكانت تمثل فلسفة حياته وليست دافعة الى الجنون . بل تعمد الفيلم أن يضفى على العلاقة بين جعفر وسعد ظلالاً من الغيرة ، لا وجود لها فى الرواية ، خاصة عندما بدا واضحاً أن هدى أكثر ميلاً إلى سعد ، وهو الأمر الذى يتناقض مع احساس الصفوة التى (قد) تفهم الماركسية لكنها لاتتفهمها فى العادة أو تتعاطف معها، لأنها فى الحقيقة تهدد وجودها ، أو كما تقول هدى فى الرواية عن سعد : « إنه شخص ممتاز ، ولذلك فإننى أرثى له » .

كما أن جعفر قد اختار بنفسه فى الرواية طريق الدراسة ، وهو الذى حول مكتبه إلى صالون أدبى وفكرى ولم يفرض عليه فرضاً كما بدا فى الفيلم . بل إن الفيلم يبعد به عن الدلالة الحقيقية لتلك المرحلة من حياته حين جعله يهجر العالم ، ويطلق لحيته ، ويصاب بما يشبه (الدروشة) التى أبعدته عن الناس ، ليكتب نظريته ، ويعود بها ويلقيها فى وجه المجتمعين بالصالون ، وكأنه يحمل إليهم (رسالة) دينية جديدة .

بل إن تلميح الرواية إلى اعتقاد جعفر بأن هناك تشابهاً بين حياته وسيرة النبى ، لايحمل فى طياته دليلاً على اضطراب عقلى ، بل على إختيار فكرى يود أن يجمع بين المتناقضات : السلفية الدينية ، والليبرالية ، والماركسية .

والرواية لاتعاقب جعفر بالجنون ، بل إنها تتبع طريقه منذ كان « يحتقر التوفيق » كما قال عن نفسه فى منتصف الرواية عندما قرر أن يغادر قصر الجد ــ إلى الأبد ــ كما فعل أبوه ، وحتى ينتهى به الأمر الى التلفيق الكامل ، الممتزج بنزعة

فاشية أعطته مبرراً (عقلانياً) للقتل .

وهو مايجعل قارىء الرواية يتعاطف مع جعفر ، ويشفق عليه وهو يجتر ذكريات الماضى وحصاد الحاضر ، الذى لم يتعد أن يكون مجرد « خرابة » ، تمثل تجربة الانسان والبشرية والطبقة . لكن الفيلم يجعل المتفرج يسخر من جنون جعفر ، وربما يكرهه أيضاً عندما يراه يقتل سعد ، لا من خلال معركة متكافئة شريفة ، ولكنه يطعنه غدراً من الخلف ، وهو ماتجنبته الرواية تماماً .

وفى الحقيقة أن النصف الأول من الفيلم يتمتع بسحر واتساق جميلين ، إذ يقرر أن يقص آثار خطوات نجيب محفوظ الميتافيزيقية ، ويجسدها من خلال الصورة السينمائية المادية ، فيصور احساس الطفل التلقائى بالحياة ، كف الأم تحتضن كفه الصغير ، أو أصابع يده تعبث فى الليمون الغارق فى صينية القلل ، أو خوفه من الفئران والجن والعفاريت ، أو انتظاره للأم التى لن تعود وهو ينظر من أسفل إلى العالم، من خلال قضبان نافذة البدروم، التى تذكرنا على نحو قوى بعض لقطات «بداية ونهاية» لصلاح أبوسيف. كما يتميز عالم الجد بالجمال والراحة فى الزخارف والألوان ، ويتسم بالاستقرار والتوازن فى تكوين الكادرات .

لكن الفيلم فى نصفه الثانى ، وبدءاً من مرحلة مروانة ، يفقد زخمه الميتافيزيقى، حتى أن عالم الفجر الذى تنتمى إليه مروانة يفقد دلالته الرمزية، ويبدو أكثر غلظة وسوقية وفحاجة وعدوانية مما بدا فى الرواية. كما أن عالم هدى صديق — وقد فقد أيضاً دلالاته — بدا أكثر سطحية وبروداً.

ويقع الفيلم فى خطأ تحديد الفترة التاريخية أو تعيين شخصيات تاريخية محددة تجتمع فى صالون هدى صديق (الذى كان مكانه فى الرواية مكتب جعفر)، فإن هذا التحديد يفقد الشخصية دلالتها الايحائية الرمزية على الفور. فإذا كنت سوف ترى طه حسين أو سلامة موسى أو بيرم أو كامل الشناوى ، فسوف تسأل نفسك — عبثاً — من يكون سعد كبير كشخصية تاريخية محددة ، ومن يكون جعفر الراوى نفسه ؟

وينعكس التردد فى بناء شخصية جعفر فى الجزء الأخير من الفيلم ، فبعد تحديد بعض التفاصيل التاريخية، لم يكن هناك مبرر لعودة الفيلم الى العالم الميتافيزيقى، عندما يجعل جعفر يزور جده المحتضر، خاصة وأن الرواية ذاتها لم تقطع يقيناً بموت الجد الراوى. وعلى العكس، فإن الفيلم حاول أن يكتسب غموضاً خاصاً عندما تعمد أن يصنع تشابهاً حرفياً بين جعفر وأبيه، أو بين الأم ومروانه. لكنه كان غموضاً مجانياً، لايضيف عمقاً على معنى الرواية ودلالتها، بل هو ترجمة للفهم السطحى للرواية التى تبدو وكأنها قصة ابن يعيد قصة أبيه المأساوية.

بين السيـــــاسة والسينما .. وجد الفن طريقه

ماجدة موريس

هل كان حلماً ماحدث فى مهرجان ليبزج للافلام التسجيلية والوثائقية منذ أسابيع قليلة ؟ لقد انعقدت دورة المهرجان رقم ٣٢ كما تنعقد كلما يدور الزمن لعام إلى الامام ، لكن الفارق بين هذا العام والعام الماضى والأعوام الماضية كلها شاسع ، بل غير معقول قياساً على السلوكيات الغربية ، الألمانية بالتحديد التى تسير وفق مناهج محددة فى كل شىء ، التغيير فيها محسوب ومتسق مع كل مايسبقه ، فى العام الماضى منعت ادارة المهرجان العتيد عروض بعض الافلام السوفيتية الهامة لأنها تتحدث عن « البيريسترويكا » و « الجلاسنوست » ، وحظرت دخول مجلات ومطبوعات سوفيتية عديدة منها مجلة هامة للشباب هى « سبوتنيك » ، فى العام الماضى أيضا كان الحديث عن التغيير ، أى تغيير ، من الممنوعات وكان هذا الانفصال الكبير بين مايحدث فى الاتحاد السوفيتى وبين أى ردود للافعال تجاهه فى المانيا الديمقراطيه محير لمعظم المشاركين فى المهرجان الكبير الذى يحتل المركز الاول فى قائمة مهرجانات الافلام التسجيلية والقصيرة فى العالم ، والذى يحتفى بشكل خاص بالافلام السياسية ، هذا العام تغير كل شىء ، ردود الافعال المكبوتة تجاه الاصلاحات الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى ، أصبحت علانية ، وتعدت هذا إلى ماهو مطلوب تغييره فى المجتمع الالمانى الاشتراكى ، المصارحة بل النقد المر أصبحا سمة الحياة ، والسينما معا ، ورفعت اللجنة المنظمة للمهرجان اسمها من على الكرة الارضية التى تظهر على الشاشة قبل كل عرض وعليها شعار المهرجان الخالد (أفلام العالم من اجل سلام العالم) وكان يسبق ذلك الشعار كلمتان هما (اللجنة تقدم) الآن ، انكرت اللجنة نفسها ، واعلنت فى بيان ضمنته الصفحة الاولى من النشرة الاولى للمهرجان أن اعضاءها (لم يكونوا يوماً متفقين تماماً فى آرائهم ، ولم يكونوا شيئاً واحداً ، ولذلك حدث هذا التغيير .)

لكن التغيير الأهم ، والاعمق ، جاء فى الافلام الاشتراكية التى تنقد الاشتراكية فى أهم مهرجان دولى للسينما السياسية يقام فى بلد اشتراكى ، فقد أطاحت رياح التغيير بالفيلم الذى كان معدا للافتتاح يوم ٢٤ نوفمبر ، لتأتى بدلا منه بفيلم آخر هو (أحداث درسدن : عشرة ايام فى الخريف) ، وأحداث درسدن هذه وقعت فى اكتوبر الماضى فقط ، أى قبل شهر تقريبا من انعقاد المهرجان حيث قامت اكبر مظاهرات فى المانيا الديمقراطية احتجاجاً على أمور داخلية كثيرة ومطالبة بالتغيير ، وقد واجهها البوليس بقسوة مما أدى لاتساعها وانضمام فئات

عديدة للمشاركة فيها ، وهنا اسرع السينمائيون الشباب من طلبة المعهد العالى للسينما والتليفزيون بالمدينة إلى تسجيل هذه المواجهات والمظاهرات وخراطيم المياه ، كما سجلوا حوارات عديدة مع قطاعات مختلفة من المواطنين يطالبون بالتغيير لأنهم يريدون الافضل ويريدون فتح كل الحوارات التى لم تفتح بعد منذ سنوات ، الفيلم يعبر عن رؤيه صناعة الشباب وجسارتهم وحسهم الملهم فى تسجيل تلك اللحظات ولهذا فقد كان عرضه فى الافتتاح على ضيوف من ٥٦ دولة له مغزى هائل ، وادراكا من المسئولين هناك بأن التغيير قادم والوقوف أمامه هو حكم بالموت ، ومن هنا ، تقديرا لدور السينما والشباب والوعى معا استحدثت لجنة تحكيم المهرجان جائزة ، شرفية (حمامة ليبزيج الذهبية الشرقية) لتهديها للفيلم .

● الفيلم الثانى عن التغيير فى المانيا الديمقراطية جاء سريعاً ، فى اليوم التالى للافتتاح ، وهو عن أحداث مدينة المهرجان نفسها « ليبزيج » وعنوانه (ليبزيج فى الخريف) وهو يقصد تلك الفترة القريبة جدا ، نفس وقت احداث درسدن ، المظاهرات والتجمعات الطلابية والعمالية ، والمطالبات بالتغيير . ويستفتى الجميع ، وأولهم راعى الكنيسة الانجيلية بالمدينة الذى تضامن منذ وقت بعيد ضد مظاهر كبت حرية الرأى وطالب بالترفق بهؤلاء الذين اعتبروا خارجين قبل سنوات ، ويكشف (ليبزيج فى الخريف) أن التغيير لم يحدث بين يوم وليلة وانما كانت له جذور نبتت على مدى اعوام عديدة حتى صارت قوية ومهيأة للصمود والمقاومة وقد أخرجه ثلاثة من مخرجى التليفزيون الالمانى هم اندرياس فوجل وجيرد كروسك وسباستيان ريشتر فقدموا عملاً يستحق أن يوضع فى مكانة خاصة ضمن اطار السينما التى تواكب التغييرات الكبرى .

أطفالنا

أطفالنا .. كان الفيلم الثالث الذى القى ضوءاً على ما يحدث فى المجتمع الالمانى ، وكان من الصعب عرضه والسماح به قبل ذلك ، فالفيلم يتعرض لهذا الجانب الذى يثير الحساسية أو كان يثيرها فى بلد اشتراكى من قبل ، وأقصد جماعات الشباب الرافضين للانتماء والرافضين للمدرسة ولكل شيء قد ذهب إليهم المخرج رولان شنيتر فى كل الاماكن ، وحرص بعضهم على أن يتحدث بدون أن تظهر صورته . وهنا أصبحت الصورة على الشاشة نيجاتيف أسود ومن خلال اللقاءات العديدة الموحية ورصد المناخ العام لها بكل مافيه حتى مضايقات الشرطة لهم (حدث هذا اثناء تصوير الفيلم وسجل) قدم شتيز صورة شديدة القتامة لشباب ضاع اما بسبب افتقاد الحب والاسرة والاهتمام واما بسبب هذ التحريض الاعلامى الهائل للاعلام الغربى حيث عبر اكثر من فتى وفتاه عن هذا قائلين أنهم يريدون ترك هذا المجتمع لكى ينعموا بالحياه كما يرونها فى التليفزيون الغربى . وليست هذه مبالغة ففى المدينة الصغيرة للمهرجان كان جهاز التليفزيون بأى منزل يستقبل ستة قنوات منها قناة واحدة فقط للتليفزيون الالمانى الشرقى ، أما القنوات الخمس الاخرى فاثنتان منها لألمانيا الغربية وقناه أمريكية موجهة خصيصا (سوبر شانيل) وقناه القمر الصناعى الامريكى (ساتلايت ٢) والقناه الأوربية الرياضية ، ولابد أن يتأثر اطفالهم ، وأى اطفال فى العالم عندما يكون الانفتاح على كل مشهيات مجتمعات الاستهلاك تحت أيديهم وفوق رءوسهم ليلا ونهاراً يقنعهم أن من لم يأكل تلك الشيكولاتة أو يلبس ذلك الحذاء عليه أن ينتحر لأنه غير موجود أصلا !!

العمل .. والمرسيدس

● اليوم الثالث للمهرجان أيضا ، كان يوم الاساليب السينمائية غير المعتادة فى عالم الفن التسجيلى والفكر الاشتراكى ، فهذا الفيلم (أوتيل تيرمنوس) للمخرج أو فيوس يتحدى المشاهد أن يراه لأن طوله ٤ ساعات ونصف (٢٧٦ دقيقة كاملة) تدور حول شخصية (كلاوس باربى) المتهم بالتعاون مع النازى والذى لازالت شخصيته يحوطها الغموض ، ويقدم الفيلم دراسة شاملة ، تفصيلية ، دقيقة جدا ، عن الشخصية وعالمها وأصدقائها من رحل ومن تبقى منهم وكل الوثائق الخاصة بتلك المرحلة ، لكنه كان يستطيع أن يفعل هذا فى نصف تلك المدة أو اقل بدلا من تعذيبنا لأن هناك أفلاماً فعلت مثله تماما آخر كان فيلما المانيا عن رفيق آخر من مساعدى هتلر فى فرق العاصفة كانت مدته ساعة ونصف وقد استوفى موضوعه تماماً لكن المفارقة ليست فى طول الفيلم وانما تأثيره وقوته وهو ماحدث فى نفس اليوم من خلال أقصر فيلم فى المهرجان ، وربما فى اى مهرجان فمدته دقيقتان مخرجه يوغسلافى هو سيقين ناسيفسكى واسمه



(اليوم الذى ولدت فيه الاشتراكية) وقدم نقدا عنيفاً للاشتراكية من خلال الرسوم المتحركة حيث يقول أن الطبقات المستفيدة من عرق العمال أخرت التقدم الاجتماعى لان الطبقة العاملة عندما ثارت لم تكن مؤهلة للقيادة واحداث التغيير المطلوب وبالضرورة فإن هذا الشرح يتنافى مع روح الفيلم الساخرة ورسومه المعبرة القوية واسلوب التعبيرى الرائع لكنه فيلم لايمكن تجاهله ، تماما مثل هذا الفيلم التشيكى (زيارة عمل) الذى يتحدث عن نكبة دول العالم الثالث ، وربما الثانى ، فى بلاغة الرسوم المتحركة وفى ٤ دقائق فقط هى مدته حيث تقرر لجنة من المسئولين زيارة أحد مواقع العمل (زيارة مفاجئة) يعرفها الجميع فيقومون بتركيب المصنع بسرعة وتجميل المنطقة حوله ويصل موكب المسئولين وتدور عدسات المصورين ومانشيتات الصحف للسادة فى كل الاوضاع ، وفور خروجهم تنهار جدران المصنع التى يتضح انها مجرد ماكينات بالحجم الطبيعى تختفى وراءها الخرائب ، بينما يتجه موكب المرسيدس إلى موقع جديد تقلهم طائرة هليوكوبتر يقوم قائدها باتصالات ماثم يعطى الاشارة للموكب فيتوقف فى منتصف الطريق ، وينزل المسئولون من المرسيدس إلى عربة التليفزيون ليعرفوا ، من خلال الاشارة ، أن عمليات التركيب فى الموقع القادم قد بدأت استعداداً لزيارتهم « المفاجئة » فيعودون بسعادة إلى المرسيدس منطلقين للافتتاح الجديد .

وبالرغم من أن أفلام الرسوم المتحركة دائما موجودة فى المهرجان إلا أنها ومنذ سنوات قليلة بدأت تتخذ نغمة نقدية تصاعدت بشكل مطرد لكنها هذا العام كانت الطلقات السينمائية الاكثر بلاغة فى أسلوب التعبير وفى التكنيك أيضا وهو ما يدل على أنه ــ برغم السنوات الماضية وقيود التعبير ــ كان هذا الفن مزدهرا فى تشيكوسلوفاكيا وبولندا ويوغسلافيا والمانيا الديمقراطيه وجوائز المهرجانات الدولية لأفلام التحريك مضمونة غالباً لفنانى هذه الدول ، لكن دائما يكتسب أى عمل ابعاداً جديدة من تغير المناخ العام حوله وهو ماحدث هذا العام ، فنقد افلام التحريك للانظمة الاشتراكية فى الحقيقة لم يكن جديدا ، وانما الجديد هو نقد السينما التسجيلية الاشتراكية لنظمها وهو ماقدمته بجانب الافلام الالمانية ، الافلام السوفيتية التى عرض منها عدد كبير من الافلام داخل برامج المهرجان من أهمها ثلاثة أفلام الاول هو (هل من الصعب أن تكون انساناً) الذى يحكى قصة رياضى اعتقل بدون تهمة أثناء المرحلة الستالينية وظل فى السجن بدون محاكمة ، واستمر لسنوات طويلة بلا إدانة ، وهو ماقدم الفيلم إدانة كاملة له ، أما الفيلم الثانى (ساعة بروز الشخصية) فيقدم رحلة القلق لدى الشباب السوفيتى مما يراه الآن من تغييرات تتنافى مع ماظل يسمعه سنوات وسنوات منذ الطفولة ، ان شخصيات الفيلم ، التى تبدأ رحلة الحياه ، تعبر بوضوح تام أنها ماعادت تعرف ماهو

الصحيح وماهو الخطأ فيما تفعله ، ولماذا أصبح هذا الفكر مدانا بعد أن كان مشرقاً ، بل أنها تعبر عن أن الارتباك لدى هؤلاء الشباب وصل إلى السلوكيات أيضا فما هو السلوك المناسب للمجتمع الجديد وماهو السلوك الذى لابد أن ترفضه يقدم الفيلم رؤية عامة مؤداها أن التغيير نفسه بكل ما يتضمنه هو رؤية غير واضحة لدى الجميع الآن فى الاتحاد السوفيتى ، الصغار كالكبار ، أما فيلم (كورفوس تورتيكس) فيقدم صورة من أزمة الانسان والنظام حيث تذهب بطلته للعمل فى مكان بعيد ، فى غير تخصصها الذى تأهلت له وهو صناعة البصريات ، وتفتقد فى مكان العمل كل شىء الدفء والرعاية وحتى العمل نفسه تجد نفسها عاطلة فتترك المكان لكنهم يحيلونها إلى اخصائية نفسية بتهمة (عدم التكيف) وعندما تفر هذه سلامتها تتوفر لديها الفرصة للعمل فى مكان آخر ، تجد نفسها مضطرة أيضا للعمل لفترتين من أجل تكاليف الحياه وعندما تقرر « ألنوم »فى المصنع لعدم استطاعتها العودة فى ساعة متأخرة تحيطها الشائعات ، وتصبح مريضة نفسيا هذه المرة بالفعل

الجنة

● أغرب أفلام المهرجان ، ومن أكثرها جمالا وحساً فنياً ، عالياً ، هو ماقدمه المخرج البولندى اندريه فيديك بعنوان (الجنة) ، والجنة هنا ليست بولندا ، بل أن الافلام البولندية العديدة فى المهرجان كانت تنتقد سياسات الدولة التى تخفى الحقائق عن الشعب خاصة فيلم (احداث ٨٨) الذى سجل الاضطرابات العمالية هناك والتى تصاعدت لتطيح اخيرا بالحزب والحكومة ، لكن الجديد فى فيلم (الجنة) أنه كان عن بلد اشتراكى آخر هو كوريا الشمالية حتى فى وقت دورة/سيول الاوليمبية فى العام الماضى حيث أقامت كوريا الشمالية « دورة صداقة مصغرة » بعد أن رفضت المشاركة فى الأولمبياد المقام فى كوريا الجنوبية ، والمفارقة فى هذا الفيلم تشمله كله منذ البداية ، أى العنوان إلى آخر لقطة فيه حيث يدور فى عالم من الجمال والتنسيق والموسيقى ويصور نظاما جعل بلاده جنه فعلية ، لكن من اجل الزعيم كيم ايل سونغ الذى ينطلق منه أى شىء وإليه يصب كل مجهود ومشاعر كل الشعب ، من خلال الاماكن واللقاءات والتسجيلات والاحتفالات يقدم الفيلم شعباً بأكمله يعيش من أجل رجل واحد لتمجيده وتأليهه ومن هنا يبدو كل هذا الجمال قائما على وهم الزعيم الأوحد الاعظم الذى تدرك من خلال اللقطات أنه بناء غير حقيقى سوف يقع عندما يختفى الزعيم الأوحد ذات يوم ولا يعرفون ساعتها أى اتجاه وأى فعل وأى عمل هو الافضل.. يعبر الفيلم بقوة كيف أصبحت عبادة الزعيم هى المعادل للحياه وهو ماجعله يحظى بالصفير الحاد عند فوزه بالجائزة ، لكنه يستحق بالفعل لاسلوبه الرائع فى رصد هذه الحالة من تزييف الوعى الكلى بلا أية كلمة فى السياسة .

الهولوكست المنسى !

☐ وبين أفلام التغيير الاشتراكية وأفلام النقد الغربية التى جاءت من المانيا الغربيه وأمريكا وأفلام إدانة العنصرية التى جاءت من بريطانيا وأفلام (امريكا اللاتينية) التى صنعها السينمائيون فى دول هذه القارة أو السينمائيون الاوربيون عن الفقر والظلم الاجتماعى والمخدرات فى البرازيل وكولومبيا وبيرو ، وبين أفلام الفن وأفلام التعبير عن القضايا الأنسانية الخالصة مثل قضايا المعوقين وكيف يمكن للمجتمع أن يستخلص أقصى طاقاته لدمجهم فيه ، وبين أفلام أصبحت لها مكانة دائمة فى المهرجانات الدولية ، كالأفلام المعبره عن خصوصية موقف المرأة فى المجتمع ، حتى فى المجتمعات التى اعطتها اكثر من غيرها كالمجتمع السوفيتى والمجتمع الالمانى الغربى والمجرى ، وأخيرا ، الافلام التى لازالت مصممة على فتح ابواب الماضى الذى انتهى وهو تعذيب اليهود على يد النازى ولقد لعبوا هذا العام على هذا الاسلوب بعد أن اصبح الموضوع مملا حتى للمتعاطفين معه وهو ما دفع الكثيرين من العرب إلى عدم مغادرة قاعة العرض أثناء عرض فيلم بعنوان (جيتو لودز) بسبب أسلوبه المؤثر والثرى فنياً ، لكن اطرف هذه الافلام هو ماحمل عنوان (الهولوكست المنسى) .... فى قمة الالحاح علينا به يسمونه منسيا ، فى وسط كل هذه النوعيات من الافلام بدات تظهر بين أروقة المهرجان ملصقات غير سينمائية ، لكنها صادرة عن قوى التغيير السياسى وأهمها جماعات (النيوفورم) التى صارت لها فروع فى كل المدن الالمانية ، وفى مساء اليوم الرابع تجمعت هذه القوى فى مظاهرة الاثنين المعتادة ، وهرع السينمائيون والنقاد الى

الشارع لرؤية المظاهرة ، فمهما كان التعبير عن التغيير السياسى متوفرا من خلال السينما ، فإن الواقع الحى أفضل واكثر روعة . والمثير فى هؤلاء المطالبين بالتغيير هو اتفاقهم على أن يتظاهروا ويغيرو بنظام ، بعد ساعات العمل الرسمية ، مساء كل يوم أثنين فى الميدان الكبير ، كل واحد يأخذ دوره فى الكلام وكل جماعة ترفع شعاراتها ، والخروج عن النظام أى عن نظام التغيير .»

جماعات اليسار المتحد

□ **لكن بعد المظاهرة ، فرض الواقع نفسه على السينما من جديد ، ففى النشرة السينمائية اليومية للمهرجان أعلن عن عقد مؤتمر خاص لجماعات التغيير السياسى ، فى اليوم الاخير للمهرجان ، ولعلهم ارادوا بذلك أن يتيحوا فرصة لكل الصحفيين والنقاد ولأسئلة أخيرة قبل السفر ، وهو ما حدث فى المؤتمر الذى استمر ساعتين ونصفا ، وجلس على منصته ستة من الشبان والفتيات لاتزيد اعمارهم عن نهاية الثلاثينات يردون على اسئلة مواطنيهم ومندوبى صحافة العالم ومواطنى المانيا الغربية الذين سمعوا عن المؤتمر فحضروا ليسألوا . كانت الاسئلة حول قوى التغيير الجديد ، ماهى ، وهل صحيح أنهم يسمون أنفسهم (اليسار المتحد) ؟ وكيف ينسقون بينهم ويعملون بشكل جماعى** وهل من المعقول وجود كل هذه التنظيمات الصغيرة الجديدة بعد أن كان الجميع فى حزب واحد تقريبا ؟ وهل هنا اعضاء فى الحزب الشيوعى (قبل الغاء اعتباره الحزب القائد) ولماذا لم يخرجوا منه حتى الآن ؟ وماهو رأيهم فى الامتيازات الخاصة بزعماء هذا الحزب ؟ ولماذا يجلسون او تتظاهرون، بنظام ولماذا لاتنطلقون لشرح افكاركم للناس ؟ وماهو موقفكم من الوحدة مع المانيا الغربية ..، وتحدث قادة المستقبل الشباب طويلا ليقولوا أشياء كثيرة هامة منها أنهم بعد سنوات طويلة من الصمت فالمجال مفتوح لكل من كان لديه رأى او فكرة ، وأنهم سوف يستمرون فى اللقاءات حتى يتبلور تيار شعبى ووعى شعبى يوضع موضع التنفيذ من خلال تنظيم جديد ، لكن ، فى اطار حدود الدولة ليس خارجها ، وفى اطار اصلاح التجربة التى بدأت مع الدولة الاشتراكية ، أما الوحدة فهى مسروع مستقبلى قد يحدث عندما نصلح انفسنا ، ونرفض تماما تعبير (إعادة الوحدة) لأنه يذكرنا بالدولة النازية ، ونحن نرفض ان تعود النازية والفاشية من جديد ولامكان لدعاتها بيننا فهم القوى الوحيدة المرفوضة فى كل القوى المطالبة بالتغيير الآن .

اليوم الاخير .. أحداث براغ

ولعل المهرجان الذى انتهى يوم ٣٠ نوفمبر لو كان قد تأخر بعض الشىء لأضاف الكثير إلى تلك المجموعة من الافلام عن ثورة التغيير فى الدول الاشتراكية والتى من الممكن اعتبارها موجة سينمائية جديدة وفى اليوم الاخير ، كان الفيلم الاخير ايضا عن التغيير والذى كان قد وصل توا من تشيكو سلوفاكيا ، فيلم فيديو مدته ٧٠ دقيقه عنوانه (أحداث براغ) وفيه رصد لمظاهرات الشباب التشيكى وكل فئات الشعب المطالبة بالتغيير وحوارات معها عن معنى التغيير المطلوب ، والغريب أن هذه الافلام التى عبرت عن واقع جديد يتخلق فى تلك المجتمعات ، خاصة فى المجتمع الالمانى حيث مقر المهرجان ، كان استقبالها من الجمهور هناك يفوق المعتاد ، ويعكس الحماس الشديد للتغيير والاحتياج له فى انفعال غير معتاد من المشاهد الاوربى ، وفى وقت تجرى فيه احداث التغيير على مستوى الواقع وهو ماجعل هذه الدورة للمهرجان دورة تاريخيه بكل معنى الكلمة ، ذلك أن الفن فيها عكس مايدور فى المجتمع بأمانة وفى تلاحم ودقة بحيث اتاح لضيوف المهرجان فكرة كاملة عما يحدث ، بل ربما تكون هذه هى المرة الاولى التى تقدم دولة لضيوفها مايحدث فيها على المستوى السياسى ، وخارج أطار التنظيم الرسمى فيها ، **ولعل هذا الحدث الهائل هو ما افقد كثيرا من افلام المهرجان رونقها وتألقها الذى كانت ستجله فى الايام العادية ، لكنه لم يقلل من أهميتها ولاتمثيلها لأهم اتجاهات السينما التسجيلية والوثائقية والقصيرة فى العالم والارقام دليل مؤكد فقد عرض المهرجان ٤١٦ فيلماً و ١٧٧ شريط فيديو من ٥٦ دولة بالاضافة لبرلين الغربية ومنظمتى اليونسكو والاينو وضعها فى برامجه الخمسة وهى المسابقة الرسمية والقسم الاعلامى وأفلام الشباب والبرنامج الخاص وعروض الريتر وسبكتيف أما الفيديو فقد نظم له ٢٧ عرضا ليحصل بذلك على لقب اكثر المهرجانات العالمية اهتماما بالفيديو السياسى والاجتماعى والوثائقى .. وهو ليس النوع الذى تقبل عليه المهرجانات الاخرى من شرائط الفيديو .**

هل ينفصل التنوير عن الثورات الاجتماعية ؟

أحمد جوده

• ترى هل تحتاج ثقافتنا العربية الحديثة إلى ثورة ، يكون « التنوير » محتواها الأول ؟! وهل لاتزال ثقافتنا العربية الحديثة بعد طه حسين وعلى عبد الرازق وسلامة موسى وزكى نجيب محمود ولويس عوض ومحمود أمين العالم تحتاج الى مزيد من العقلنة .. والعلمنة .. والتنوير ؟!

وماهى القوى الاجتماعية المؤهلة لتلعب هذاالدور ؟! وهل ينفصل التنوير الثقافى ؟! عن التطور الاجتماعى والصراع الطبقى ؟! .. وهل يمكن أن يحدث تنوير بدون ثورة إجتماعية تقوم بها طبقات « تقدمية » على طبقات « رجعية » ؟!

وما دور الحواريين الثقافة العربية والثقافة الأوربية ؟!

الإجابة عن الاسئلة السابقة كلها تختلف بأختلاف زوايا النظر الثلاث التى تشكل محاور البناء الثقافى العربى الحديث بأكمله ..

فالذين ينظرون من النافذة السلفية يرون أن ثقافتنا الحديثة تنقصها الأصالة ، مدعين أن لدينا الكتاب والسنة والتراث الثقافى العريق ..الخ ، وهؤلاء هم أصحاب المشروع الاسلامى على مختلف ألوانهم ،

• أما الذين ينظرون من « النافذة الغربية » فيرون أن ثقافتنا متخلفة ، ومحشوة بالاساطير والخرافات والأوهام ، وتحتاج إلى ثورة تنوير كبرى ، تعلمن وتعقلن بنيتها الأساسية ، على أساس العقل .. والعقل فقط ، لا سلطان على العقل إلا العقل كايتم الفصل بين الدين والدوله بشكل نهائى ،.. هكذا فعل الغربيون أصحاب الحضارة الحديثة التى نعيش عالة على منتجاتها وسلعها .. بل وأفكارها ، وهولاء هم أصحاب المشروع الليبرالى بشكله الأوربى ، وبعض الاشتراكيين « المدرسيين » ، وبعض أصحاب الرؤية القومية التى تستمد أصولها من ينتشه والتراث الفلسفى الأوربى فى عصر التنوير .

ومابين النافذة السلفية ، والنافذة الغربية ينظر « التوفيقيون » من نافذة توسطت بينهما ، ويرون أن نأخذ من التراث بطرف ، ومن الحضارة الغربية بطرف آخر .. نأخذ الهوية الثقافية والحضارية من تراثنا العريق ، الذى يشكل جوهر شخصيتنا القومية ، ومن الغرب نأخذ التكنولوجيا التى تمثل عصب الحضارة الحديثة ..

ومابين « التوفيقيين » والمتغربين جرى « صراع

فكرى » حول الثقافة والتنوير ـ فى المؤتمر الذى عقدته الجمعية الفلسفية الأفرو آسيوية ومعهد جوته بالقاهرة ، مؤخراً ، وغاب عنه المفكرون السلفيون ، والكتاب الذين يدافعون ـــ عادة ـــ عن المشروع السلفى الاسلامى .

○ فى البداية طرح د . مراد وهبة أستاذ الفلسفة والمفكر المعروف إشكالية الثقافة والتنوير على الوجه التالى :

« الإشكالية تعنى أن هناك تناقضاً بين التنوير والثقافة .. فالتنوير ظاهرة حضارية تخص البشرية برمتها من حيث أن التنوير واحد لجميع البشر ومن ثم يمكن تأسيس حضارة إنسانية واحدة ، أما الثقافة فمحكومة بموقع جغرافي وتراث متميز ، لهذا فان نشأة مفهوم الثقافة مردود إلى الإنقلاب على رؤية التنوير للطبيعة البشرية من حيث أنها نمط واحد .

ثم ينتقل د . مراد وهبة إلى « التشكيك » فيما يسمى بعصر التنوير المصرى ، « فثمة نفر من المتنورين الكبار مثل طه حسين وعلى عبد الرازق ونجيب محفوظ ولويس عوض ، والقاسم المشترك بينهم أنهم تأثروا ، بالتنوير الأوربى ، وأن لكل منهم كتاباً مصادراً ، هو رمز على التنوير ، ولكن هؤلاء جميعاً لم يشكلوا تيار أتنويرياً ؟!

● **تلك هى أهم ملامح رؤية د . مراد وهبه « راعى الندوه والداعى إليها » ، فماذا عن الآخرين ؟!**

المسخ المشوه

● د . غالى شكرى يتجاوز « تشكيك » د . مراد وهبة فى وجود عصر تنوير عربى ليؤكد أن « الوطن العربى لم يعرف العلمانية والتنوير قط كمشروع حضارى شامل ، وإنما عرفها كثقافة عقلانية حينا ، أوكمجموعة من القوانين المنقولة عن الغرب وخصوصاً فرنسا حينا آخر ؟! .

● ويبرر د . شكرى ذلك بالنشأة الإجتماعية للشرائح المتوسطة للبرجوازية المصرية التى « لم تعثر أبداً على الصيغة العلمانية المناسبة لتطورها وتطور المجتمع بشكل عام ، لأن نشأتها كانت هجيناً من رحم كبار الملاك والإقطاعيين ، وليس فى تناقض معهم كما أنها لم تكن مستقلة فى أىّ لحظة ، ثم تحولت إلى قطاعات من ملكية الإرض إلى التجارة والصناعات الخفيفة ، والإلتحاق بآلة البيروقراطية للدولة ، وذلك بمعونة الاحتكارات الأجنبية .

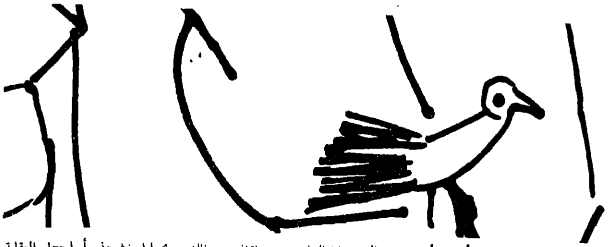
لهذا كله يرى د . غالى شكرى **أن البرجوازية المصرية ولدت مسخا مشوها .. فمن أين تأتيها القدرة على التنوير وتبنى العلمانية والعقل ؟!**

دور الإستعمار

فى دراسة له بعنوان « التنوير بين المحافظين والحريين » يرصد المؤرخ المصرى د . يونان لبيب رزق البوادر الأولى للتنوير فى مصر قائلا « كان الإنتقال من فكر الخرافة والأسطورة إلى الفكر العقلانى فى مصر **قد تم بفعل عناصر خارجية اكثر مما تمّ من خلال تفاعلات داخلية »** .

ويرى د . يونان أن بذور التنوير وضعت فى التربة المصرية خلال ال ٧٥ عاماً الأخيرة من القرن التاسع عشر ، أىّ بين مجىء الحملة الفرنسيه عام ١٧٩٨ ووفاة رفاعة الطهطاوى عام ١٩٨٧٣ ، وبلغت أوجهها فى عهد محمد على مؤسس الدولة المصرية الحديثة ، حيث تم القضاء على الإقطاع العثمانى القديم ، وبناء الجيش الحديث ، والمدارس المدنية التى أنشأها محمد على لخدمته ، ثم البعثات العلميه لأوربا .. فى وقت بقى فيه الأزهر ومؤسساته غارقاً فى الشروح والمتون القديمة .

○ وبالاضافة الى النشأة المزدوجة للبرجوازية المصرية التى يفترض أن تحمل أعلام التنوير كما فعلت مثيلاتها فى أوربا ، فان الغزوة الإستعمارية أدت **إلى أجهاض محاولة محمد على لخلق رأسمالية وطنية حديثة** ، أو حتى رأسمالية دولة ، وتم تدمير كل أنجازاته بعد احتلال مصر ، وكل ما أسفرت عنه تلك المحاولة ـــ فى رأى د . عبد الخالق لاشين الأستاذ بجامعة عين شمس ـــ **النجاح فى تفكيك عرى البناء**



الإقطاعى ، بإصلاح جزئى هنا أو ترميم هناك ، فلا البناء القديم استمر ، ولا الجديد استقر ، واختفت تحت سنابك الاحتلال البريطانى تلك المحاولة فى أن تحقق مصر نفس النتائج التى تحققت فى أوربا » .

استخذاء ثقافى

○ هذا عن الماضى والنشأة ، فماذا عن حاضر التنوير ومستقبله لدينا ؟! ..

يرى د . غالى شكرى أن العلمانية والتنوير فى الوطن العربى لا يتمثلان إلا فى بعض النتاج الأدبى والثقافى ، وفى النصوص القانونية والدستورية دون مضمون تنويرى حقيقى يرتبط بمشروع للديموقراطية السياسية أو الثقافية أو الإجتماعية ، فلا يزال التفكير الدينى السلفى يحكم باسم الإسلام فى كافة قطاعات السلطة فى الوطن العربى ؟! بينما يرى د . مجدى وهبه أن التنوير لدينا عريق منذ المعتزلة و الفلسفة الرشدية « نسبة إلى أبن رشد » ، والتأثير الأوربى فى المثقفين العرب لم يكن حاسماً ، لأنه لم يأت مباشرة من فلسفة التنوير الأصلية ، وإنما جاء منتخباً أو معدلاً من خلال إنتشار الفلسفات الأوربية التى ولدت بعده ، كالفلسفة الوضعية الفرنسية والفكر التجريبى الإنجليزى .

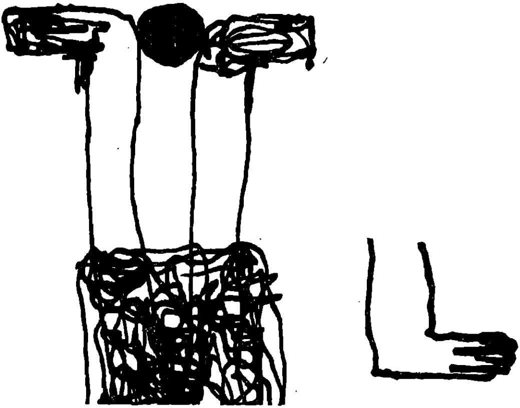
- ويرد د . مجدى وهبه على السلفيين الذين يصرخون من « هجوم الغزو الثقافى » والأفكار المستوردة ساخرا : للأسف نحن لانعانى من غزو ثقافى .. فالغزو يجعلنا نشحذ أسلحتنا العقلية والفكرية لمواجهته ، لكننا نعانى من عملية « أستخذاء ثقافى » .. ولازلنا نعيش أزمة جوهرها العودة للداخل والتمسك بالتراث كرد فعل لهذا الإستخذاء ؟! ..

ويتدخل د . حسن حنفى معلقاً « للأسف فان العلاقة بين الحضارتين العربية والأوربية فى العصر الحديث علاقة انبهار وليست علاقة حوار ؟! ..

لكن د . منى أبو سنة استاذ الأدب الأنجليزى بجامعة عين شمس تؤكد أن « الحوار يعنى التواصل من خلال إطار مرجعى مشترك ، يشير إلى مستوى حضارى متقارب ، وبالتالى لايمكن أن يقوم حوار بين الثقافة العربية ذات البنية الدينية و الثقافة الأوربية ذات البناء العقلى العلمانى .. فالدين ينفى ماعداه ، ويقدم مطلقات ثابتة لايجوز مناقشتها ، بخلاف العقل ، الذى يخضع كل شىء للقياس النسبى ، فالثقافة العربية « وهى ثقافة أصولية فى جوهرها » تطرح الهوية الثقافية فى الماضى ، وتتحول بالتالى إلى كينونة متحجرة غير قابلة للتطور ، ويترتب على ذلك الغياب الكامل لأىّ نقد ذاتى ، ويساعد على ذلك هيمنة التراث الدينى المقدس الذى لايقبل المساس ، فالثقافة العربية تنطوى على إكتفاء ذاتى ، ومن ثم يأتى الرفض للاعقلانى للحضارة الحديثة .. والنتائج المنطقية المترتبة على هذا الرفض هو استبعاد الحضارة العربية من مسار الحضارة الحديثة ؟! .

كلام ساكت

- تلك هى أهم ملامح الأفكار والمقولات التى طفت على سطح المناقشات والدراسات التى تمت فى « سيمنار الثقافة والتنوير » ، **فالجميع أعتبروا أن الحل التاريخى لحالة الأزمة** التى نعيشها هو « العلمانية » بمفهومها الأوربى الخالص كما ورد عند مراد وهبه ومجدى وهبه ومنى أبو سنة وغيرهم ، « فالدين » يجب أن يفصل عن الدولة تماماً أو بتعبير د . غالى شكرى يجب « تخليص الدين من الدولة لكيلا يكون موظفاً بين الموظفين ؟! .. لكن غاب عن المتحاورين الإجابة عن بعض الأسئلة الجوهرية التى طرحناها فى أول حديثنا وأهمها : **ماهى القوى الإجتماعيه المؤهلة لإتمام عملية التنوير ؟! .. وهل ينفصل التنوير عن الصراع الإجتماعى ؟!** وهل يمكن أن يحدث التنوير ويطنق من أعلى دون حدوث ثورة إجتماعية ، تدحر حلالها طبقة « محافظة » ، وتنتصر طبقة « جديدة فتية ؟!» .. لم يجب أحد عن هذه الأسئلة .. ربما لأنها أسئلة جوهريه تحدد « المواقف » الإجتماعية وتفصح عن « المواقف » السياسية ، وربما لأن التحليق فى المجردات ، والبعد عن « العينيات » والملموس لايحمّل أحداً مسئولية لذلك كلـــه حرج الكـــثيرون من « السيمنار — حلقة النقاش » بانطباع مؤداه أن أغلب ماقيل — بتعبير الناقد الاذع فاروق عبد القادر — كلام ساكت ، لايغضب أحداً ، ويرضى الجميع ...



متابعات ثقافية



سناء جميل

على هامش الراية البيضاء

وعى « النونو » البطىء

« النونو » هو الشخصية الشعبية المليئة بالتشوهات والتناقضات المغروسة فى وحل واقع يتردى ويضغط عليها ، ومع ذلك فهى أيضا شخصية شعبية واعدة لأنها حاملة الوعى الجنينى الذى يؤسس لمشروع المقاومة ؛ هكذا قدم لنا « النونو » — وهو إسم دال — الفنان الدرامى أسامة أنور عكاشة فى مسلسل « الراية البيضا » من إخراج محمد فاضل الذى أفرجت عنه الرقابة مؤخرا فى القاهرة .

« النونو » هو واحد من صبيان المعلمة فضة المعداوى تاجرة الأسماك التى بدأت حياتها سارقة صغيرة ثم أصبحت تاجرة مخدرات تتلاعب بالملايين وهى أيضا شخصية نموذجية . وقد تربى « النونو » فى أحياء الاسكندرية الشعبية ، وأخذ وعيه يكبر فى خضم المعركة الواقعية ذات المستويات المتعددة والتى دارت بين « فضة المعداوى » وفريقها من خربى الذمة والمرتزقة ورجال العصابات من جهة ، وبين الدكتور « مفيد أبو الغار » السفير السابق والمثقف الذى يحيط به نفر من العاملين الشرفاء الواعين من جهة أخرى . وموضوع المعركة — المحرك أيضا بالرموز .. الوطن الثقافة .. الحضارة — هو فيلا أثرية تحمل عبق التاريخ وحيث تطمع فضة فى شرائها لالحاقها بقطعة أرض مجاورة تملكها ، بينما يرفض أبو الغار وفريقه بيعها .. أى بيع كل ماترمز له .

ينتمى النونو بحكم الرزق والتربية لمعسكر فضة ، ولكن ، ولأنه يحب الفن ويجاهد للوصول الى عالم الثقافة ، ويسعى لمعرفة الحقيقة حول حكم السجن المؤبد ضد أبيه الذى اتهم فى قضية تهريب مخدرات .. يكبر عقلا وقلبا وإرادة .

بالتدريج ، وعبر الاهانات المتواصلة ، والاكتشاف اليومى لحقيقة الثروة التى كونتها فضة ولنوعية العلاقة بينهما كسيد وعبد ، ومتبوع وتابع ، وحيث يتيح له اقترابه

الحميم من دائرة حياتها الجهنمية بعرف « النونو » على نوعية الجرائم التى يتواطأ فيها المحامى و « المعلمين » صغارا وكبارا .. يكتشف كل مافيها من عنف وقوة .

وكان لابد من ضربة قاضية دراميا تعجل بإنتقال النونو إلى المعسكر الآخر : وتكون تتويجا لتفتح وعيه التدريجى البطىء ، وتعرفه على طبيعة المعركة الدائرة على أشدها : ونأتى هذه الضربة باكتشافه أن أباه قد سجن زورا لافتداء إبن المعلمة إذ هو المهرب الأصلى .

إن النار تلسع « النونو » شخصيا ، ويقدم لنا المؤلف عبر هذا الانتقال المحسوب من حالة لحالة درسا كلاسيكيا فى بناء الشخصية الدرامية وتطورها ، فالوعى الجنينى للنونو لم يكن ليتطور وينضج بهذه الصورة لمجرد اكتشافه مصائب الآخرين وإفتراء مديريها .. وهو مايسمى بالحس العملى للشعب .

كذلك فان أسامة أنور عكاشة المهموم فى كل عمله بدور المثقف الطليعى وعلاقة هذا المثقف بالطبقات الشعبية أسند إلى مدرس التاريخ دورا فى مساعدة « النونو » على إنضاج وعيه ، بينما إلتزم المخرج محمد فاضل إلتزاما دقيقا بل وحرفيا بفكرة التدرج والبطء هذه حين صور المواجهة الأخيرة بين الفريقين المتحاربين ، ليأتى « النونو » إليها ببطء ومن خلف الصفوف ويضع يده فى يد المقاومين ... فتقدم هذه الحركة معادلا فنيا لعملية إكتملت على طول المسلسل .. وهى آخذة بالاكتمال فى واقع الحياة حيث يتفتح وعى الطبقات الشعبية ببطء ليكون لها شأن آخر فى حسم المعارك الدائرة ..

فريدة النقاش

لويس عوض : ثلاثة أرباع القرن المصرى

فجأة ، أصيب الدكتور لويس عوض بجلطة عاتية ، خلال الأسابيع الماضية ، سرعان ماتماثل للشفاء منها ، وبدأ يعاود نشاطه الفكرى الخصب .

وقد داهمته نازلة المرض ، وهو يستعد ــ ونستعد معه ــ للاحتفال (هذا العام) بمولده الخامس والسبعين من عمره المديد .

كان لويس عوض ــ طوال الفترة الماضية ــ شاغلا من شواغل حياتنا الثقافية . فمن ناحية ، تحضّر مجلتنا « أدب ونقد » لإعداد عدد خاص عنه بمناسبة بلوغه الخامسة والسبعين ، يشارك فيه نفر من النقاد والباحثين والأدباء ، سوف نخصص له عددا قادماً قريباً .

ومن ناحية ثانية ، كان فوز لويس عوض بجائزة الدولة التقديرية للعام الماضى ، مثيرا لردود فعل طيبة من قبل المثقفين والنقاد والحركة الأدبية . فقد شعر الجميع أن حصوله على الجائزة التقديرية ــ مع صلاح أبو سيف وشكرى عياد ــ بعد تصحيحا لمسارها وبداية لذهابها إلى مستحقيها ، حتى لوكان بعد فوات الأوان مع بعض الفائزين بها .

على أن هذا الارتياح الطيب ، سرعان ماتعكر ــ من ناحية ثالثة ــ بصورة مفاجئة . فقد عكرته حادثة رفع أحد كبار موظفى وزارة الثقافة قضية أمام المحاكم بدعوى غريبة . طالب المدعى بسحب جائزة الدولة التقديرية من لويس عوض لأنه (مسيحى) ويؤلف كتبا تطعن فى (الإسلام) !!

وقد أثار خبر رفع القضية ردود أفعال رافضة لهذا المنطق (الطائفى) الذى تنطلق منه الدعوة القضائية . وكان أبرز ردين من المستشار سيد الطويل (عميد كلية الدراسات الاسلامية) ، والكاتب الصحفى صلاح حافظ .

أكد المستشار سيد الطويل على أن الاسلام يحمى حرية الفكر والاعتقاد ،حتى لو اختلفنا مع هذا الفكر والاعتقاد .

وأن السبيل القويم للتعامل مع أى فكر مختلف معه هو محاورته ومقارعته حجة بحجة ، لامصادرته أو تجريمه أو استعداء القضاء والسلطات عليه .

أما **صلاح حافظ** فقد وضع هذه الدعوى القضائية الشاذة فى سياق تفاقم الفكر السلفى المتطرف والتجريم الدينى ، الذى شمل ــ فى الفترة الأخيرة فقط ــ مصادرة كتاب : **مقدمة فى فقه اللغة العربية** للويس عوض نفسه ، ومصادرة كتاب «**سوسيولوجيا الفكر الاسلامى**» **للدكتور محمود اسماعيل** ، ومصادرة «**ألف ليلة وليلة**» ــ الذى يعيش بيننا منذ عشرة قرون كأثر عظيم ــ ومصادرة كتاب «**الفتوحات المكية**» للفيلسوف الصوفى محيى الدين بن عربى ، وقبلهم جميعا : مصادرة «**أولاد حارتنا**» لنجيب محفوظ الفائز ــ بها ــ بجائزة نوبل ، ثم مؤخراً محاكمة محمد عبد الوهاب (وبراءته) على أغنيته الأخيرة «**من غير ليه**» .

وقد اتهم صلاح حافظ الدولة باذكاء هذا النزع السلفى التجريمى والتحريمى ، وبإشعالها ــ فى فترة السادات ــ للمعيار الدينى فى الحكم على العمل الفكرى أو الأدبى أو السياسى .

ومن ناحية رابعة ، فقد أدلى لويس عوض للصحف المصرية بحوارين هامين . الأول لجريدة الأهرام أعلن فيه أن الكتاب الجدد ينتظرون «صك البراءة والاعتراف» من لويس عوض ، وأنهم كسالى يفضلون مساعدة الآخرين على جهدهم الذاتى ، وأنه ينبغى عليهم أن يفرزوا نقادهم من بينهم .

والثانى **لمجلة أكتوبر** ، وانصب أغلبه حول المواقف السياسية والفكرية للمفكر الكبير . ومن أهم ماقاله فى هذا الحديث أنه يشعر بالقرب الشديد من حزب التجمع ، ولكنه لم ينضم إليه لأنه ــ فى رأيه ــ ليس حزبا متجانسا ذا اتجاه واحد ، فهو خليط من الاتجاهات والتيارات ، لايربط بينها رابط سوى شخصية **خالد محيى الدين القيادية التاريخية** .

ولقد نفى الدكتور عوض عن نفسه أنه ينطلق فى تقييمه الفكرى من أسس مسيحية ــ كما يقال ــ ودليله على ذلك أنه رفض الانضمام إلى حزب مسيحى لأنه لا يؤمن بالاساس الدينى للحزبية . وكذلك رفض الاستمرار فى حزب الوفد ، بعد تخلى الأخير عن علمانيته بالتحالف مع الاخوان المسلمين .

ومن ناحية أخيرة : صدر للدكتور عوض ــ فى الفترة الأخيرة ــ كتابان . الأول هو طبعة جديدة من كتابه الشعرى الرائد «**بلوتولاند**» ، الذى صدرت طبعته الأولى فى أوائل الخمسينات . الطبعة الجديدة صادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، متضمنة بيانه الهام الذى كان ــ بالاضافة إلى الشعر نفسه ــ حدثا شعريا كبيرا منذ أكثر من ثلاثين عاماً .

والطريف أن الطبعة الأولى من **بلوتولاند** التى أثارت دويها الحاد آنذاك ، كانت على نفقة الدكتور عوض نفسه ، ولم يطبع منها أكثر من ألف نسخة فقط .

أما الكتاب الثانى فهو «**دراسات أدبية**» ، **وقد صدر عن دار المستقبل** ، محتويا على المقالات التى نشرها دكتور عوض فى العامين الأخيرين بالأهرام . وابرز مافيها مقالاته عن الشعر والشعراء ، التى أثارت أثناء نشرها ردود فعل متباينة ، نظرا لما بها من تقييمات حادة قاطعة .

غالب هلسا :

البكاء على الأطلال

عن عمر يتعدى قليلا الخامسة والخمسين ، رحل الروائى والكاتب الأردنى والمناضل العربى غالب هلسا ، فى سوريا مؤخراً .

عاش غالب هلسا فى مصر منذ منتصف الخمسينات حتى ١٩٧٦ ، حين طرده السادات ــ مع عدد من الكتاب والمثقفين والمناضلين العرب ــ قبل زيارة القدس بقليل . انتقل هلسا بعدها إلى بغداد ، حتى عام ١٩٨٠ ، ثم إلى بيروت حتى أواخر عام ٨٢ ، حيث عاش حصار بيروت (صيف ١٩٨٢) ، ثم إلى دمشق ، وظل بها إلى أن رحل منذ أسابيع قليلة .



صدر لغالب هلسا : زنوج وبدو وفلاحون ــ الضحك (رواية) ــ البكاء على الأطلال (رواية) ــ ثلاثة وجوه لبغداد (قصص) ــ العالم مادة وحركة (دراسات فكرية)

وقد أثارت شخصية وروايات غالب هلسا (وخاصة : الضحك ــ الخماسين ــ ثلاثة وجوه لبغداد) العديد من ردود الفعل المتباينة بين أوساط المثقفين المصريين والعرب ، نظرا لما فيهما (شخصيته ورواياته) من نظرة حريفة وخاصة وحادة .

لقد رأى بعض القراء والمثقفين أن رواياته المشار إليها ركزت على جانب الانهيارات الأخلاقية فى صفوف الحركات اليسارية العربية ، حتى بدت الحركة اليسارية وكأنها تخلو من أية فضيلة أخلاقية ، بدون أن يصور الكاتب الجوانب الايجابية أو المضيئة بجوار الجوانب السلبية أو المظلمة ، حتى تتوازن الرؤية موضوعيا .

على أن العديد من النقاد اعتبروا غالب هلسا ــ كاتباً من الكتاب المتميزين ، لما تتوفر عليه اعماله من دقة فى التفاصيل ، وتشريح الذات (إلى حد تقريع النفس إحيانا) ، والموضوعات ، ولامتلاكه طريقة منفردة فى القص والسرد الروائى .

والآن ، ما أحوج حياتنا الثقافية إلى درس نقدى وإف لأعمال هذا الكاتب المتميز ، يضعه فى موضعه الحق من حياتنا الروائية المعاصرة .

النجيبان : محفوظ وسرور

« رحلة فى ثلاثية نجيب محفوظ » كتاب جديد لنجيب سرور (الذى رحل فى نوفمبر ١٩٧٨) وهو الكتاب الخامس فى سلسلة « الكتاب الجديد » التى تصدرها « دار الفكر الجديد » ببيروت ، ويشرف عليها الناقد التقدمى المعروف : محمد دكروب .

والكتاب يحتوى على مجموعة من الدراسات المجهولة لنجيب سرور حول ثلاثية نجيب محفوظ (بين القصرين ــ قصر الشوق ــ السكرية) ، نشر بعضها فى مجلة « الثقافة الوطنية » اللبنانية ، فى أواخر الخمسينيات . وظل بعضها الآخر مخفيا ، حتى كشف عنه محرر الكتاب

(دكروب) . ورتب أجزاءه وبوّبه ونشره ، فيما يعد كشفا مدهشاً .

ووجه الدهشة فى الأمر راجع إلى أن نجيب سرور كان له موقف معروف ، مضاد ، من نجيب محفوظ وصل إلى حد الاتهام الصريح بأنه « أديب السلطة الحاكمة مهما كانت نوعية هذه السلطة » .

لكن هذه المقالات التى ضمها هذا الكتاب الجديد ، تنطوى على موقف مختلف هذا الموقف ينطلق — كما يقول المحرر — من حب الناقد لهذا العمل ، وتقديره لمبدعه ، بل واعجابه بالعديد من صفاته الشخصية

ونجيب سرور فى قراءته النقدية يحاول أن يجد اجابات لعدد من الأسئلة : ماهى المشكلة الرئيسية التى تلح على وجدان الكاتب ؟ ماهو المفتاح إلى هذا العمل ؟ . « فقط أشترط فى هذا العمل أن يهز أعماق بعنف ، لكى أعيد قراءته مرات ومرات حتى أضع يدى على المفتاح المنشود ، ثم يطيب لى بعد ذلك أن أعيد اكتشافه مع القراء » .

* * * *

المدخل الرئيسى الذى يقرأ به نجيب سرور ثلاثية محفوظ هو مدخل « أمينة » ، زوجة السيد أحمد عبد الجواد ، وأم الأولاد . المرأة الصابرة المنكرة الصامدة . فيرى نجيب سرور فى العمل الروائى لمحفوظ نصا يصوّر « أزمة المرأة فى المجتمع الإقطاعى » . ويرى أن أمينة التى تتجسد فيها الأزمة بأكثر مماتتجسد فى غيرها ، هى فى الوقت نفسه رمز لمصر الخاضعة لظلام النظام الاقطاعى ، وللسيطرة الاستعمارية . وأن خلاص مصر وتحررها من الاستعمار شرط لتحرر المرأة وللتخلص من أزمتها .

ويقرر المحرر — دكروب — أنه قد يتفق أو يختلف مع هذا المدخل السرورى للثلاثية (أزمة المرأة فى المجتمع الإقطاعى) ، لكنه يؤكد أن هذه الدراسة دراسة جديدة من نوعها فى النقد الأدبى العربى . ولعلها أول دراسة فى النقد الأدبى العربى تذهب فى رحلة تحليل واستكشاف للعالم الداخلى والبنية الداخلية لثلاثية محفوظ ، والشخصياتها . وهى دراسة تجمع — ومنذ تلك الأيام — بين الطريقة البنيوية ، والرؤية الماركسية ، والامتاع القصصى ، معا . فلاهى تكتفى بالتحليل البنيوى التشريحى الجاف المحض ، ولاهى تنظر إلى العمل الأدبى من الخارج ، وبأحكام مسبقة . بل هى — بالفعل — رحلة ناقد ماركسى — فنان ومستنير — إلى العالم الداخلى للثلاثية ، يعرّفنا على معالم وأسرار الشخصيات والأماكن والأحداث ، عبر البنية المتشابكة والحية للثلاثية .

* * * *

« رحلة فى ثلاثية نجيب محفوظ » كشف هام أتاحة لنا ناقد جاد ، دكروب ، لشاعر وناقد يملك بصيرة حادة وقلبا حارا خصبا ، تقلبت به الأحوال لتحرمنا من مواصلته لجهده المسرحى والشعرى والنقدى ، وتطوره .

إن هذا الكتاب الذى كتب منذ ثلاثين سنة ، يظل ابن اللحظة الراهنة ، تماماً .



المرأة فى المرآة

« المرأة فى المرآة » كتاب جديد صدر عن دار العربى للنشر والتوزيع ، للكاتبة سوسن ناجى . وهو بحث كانت الكاتبة قد تقدمت به لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب

جامعة المنيا . وهو « دراسة نقدية للرواية النسائية فى مصر » ، من خلال ثلاثة محاور :

الأول : يتناول القضايا الموضوعية التى تتناولها الرواية (المرأة) سواء كانت قضايا سياسية ، أو اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو جسدية .

الثانى : يتناول صورة المرأة فى الرواية النسائية ، سواء كانت هذه الصورة للفلاحة المصرية ، أم للمرأة العاملة ، أم البغى ، كما يتناول صورة المرأة داخل الأسرة بأطوارها وأنماطها المختلفة ، سواء كانت أما ، أم زوجة ، أم ابنة .

الثالث : يتناول الملامح الفنية المميزة للرواية النسائية فى مصر ، وقد حرصت الباحثة على تناول أهم السمات التى تميز الرواية النسائية ، أكثر من حرصها على التقييم الفردى لكل رواية على حدة . وكانت أهم هذه الملامح هى « ظاهرة الأنا » فى الرواية النسائية ، وترتبط هذه الظاهرة بافتراض أن الرواية النسائية تعد ترجمة ذاتية لكاتبتها .



وتحاول الباحثة فى دراستها الالتزام بوجهة النظر (الواقعية) ، التى لاتهتم باظهار العلاقات الجمالية فى العمل الفنى فقط ، بل تضيف إلى ذلك الموقف الفكرى للأديبة ازاء الواقع ، وقضاياه المختلفة .

ديوان جديد

الخروج واشتعال سوسنة

الديوان الأول للشاعر الشاب عبد الناصر هلال « الخروج واشتعال سوسنة » ، صدر عن سلسلة « إشراقات أدبية » بالهيئة المصرية العامة للكتاب . تضمن الديوان دراسة نقدية للشاعر أحمد سويلم .

يقول سويلم فى دراسته :

« إن قضية هذا الجيل الذى ينتمى إليه الشاعر عبد الناصر هلال ، يعبر عنها هذا الديوان تعبيرا صادقا ، فهذا الجيل — السبعينات والثمانينات — جاء بعد موجات متلاحقة متآزرة من الصراع مع الموج العاتى ، خلخلت ركود الساحة زمنا طويلا ، ولاتزال تمارس هذا الصراع ، بل أكدت وجود المرفأ الذى يمكن للملاح أن يستريح إليه بعض الوقت ثم يستأنف رحلته ثانية ، بعد أن يتسلح بالصبر والتأمل ، وبجناحى الرغبة فى الاستمرار والرغبة فى الإضافة .

« لكن يبدو أن فريقا من جيل السبعينات والثمانينات — يعيش أغلبه فى احضان القاهرة قريباً من وسائل الاعلام — نظر إلى القضية من زاوية إخرى (وأقول نظر ولم أقل دخل مثلا أو تأمل أو فكر ، إلى آخر هذه الأفعال التى تؤكد التجربة والفعل معاِ والتفكير الواعى) . فالقضية لدى هذا الفريق تحولت إلى رغبة عارمة (ظاهرية) فى الصعود والطفو على رفات من سبقهم (فهم وحدهم الذين يملكون إن يقتلوا وإن يصعدوا ويطفوا إيضا !) . ولكى يكسبوا دعوتهم هذه ثوبا من الشرعية ، تعلقوا للأسف بأذيال بعض الكبار والدعاة الذين ربما تميزت تجاربهم فى الزمن الخالى ، وتوقفوا عن الاستمرار فيها لعدم جدواها وعدم أصالتها أيضا . فأقبل هذا الفريق الجديد يحاول إحياء هذه التجارب التى تكاد تنقرض ، وليتهم أحيوها بقدر واع من القيم الفنية ، اذن لتقبلهم الذهن العربى باحتضان وتقدير.

وطبيعى أن يحدث هذا (الضجيج) فى الساحة الأدبية



مايشبه الدهشة المزلزلة ، ويتساءل الكثيرون : لماذا وكيف وإلى إين ؟»

وواضح أن الشاعر / الناقد أحمد سويلم ينطلق فى هذه الأفكار من الشائعات المتواترة عن تجربة شعر السبعينات طوال السنوات العشر الماضية . وهى شائعات لاتستند الى قراءة حقيقية لشعر هذه التجربة ، ولاتنهض إلا على المعتقدات السابقة . ويغلب عليها الغرض الشخصى قبل النزوع الموضوعى .

ولنا أن نتساءل : هل يمكن ان تحدث دهشة مزلزلة بسبب ظاهرة مزيفة ؟ وهل الشاعر مطالب أن يكون شعره تطبيقا كاملا حرفيا لنظرته أو نظريته فى الشعر ؟

ان هذه التجربة لم تحظ — لأسباب غريبة ومتنوعة — بدرس نقدى أمين ، حتى الآن : درس يطور الصالح منها ، ويقوم المعوّج منها . وترك هؤلاء الشعراء الشباب يعملون ويجهدون ويبذلون شعرهم وحياتهم بدون متابعة نقدية أو ثقافية حقيقية . ولم يلتفت إليهم إلا قليلون من الكتاب والنقاد ، اشارو إلى ما فى تجربتهم من مغامرة حقيقية جديدة ، ومن عيوب فنية أيضا .

أما الضرب على منوال الغموض والسطحية والمظهرية ، فهى افتراءات لاتفيد الشعر ولا النقد !

أما ديوان عبد الناصر هلال نفسه ، فهو — كديوان أول لشاعر — يحفل فعلا بالعديد من الاجتراءات اللغوية والصورية الجديدة التى ينبغى إن تُحمد للشاعر ، ويشجع عليها، على إن ينبه إلى مافى بعض هذه الاجتراءات الجديدة من بعض التعسف والاعتمال والمعاظلة .

ويتخلص الشاعر — رويداً رويدا — من هذه الاصطناعات والمعاظلات غير المبلوعة شعريا ، ستصفو له مغامراته التجريبية صفاء يجعلها فتوحات وتحقيقات حقيقية وصادقة وسلسلة .

ومن نماذج هذه التحقيقات الصافية قوله :

« كاف نون
فاء كاف ألف نون
وعد قاس محزون
قال إلى :
تمرا عبأ جيبه
مر على أطفال الحى وغنى
كلّل طفلا
برماد الدهشة .
عاد إلى البيت
وخط على باب الغرفة

أفقا يفضى للجرح ،
وآخر يفضى للبحر ،
وقال : الليلة أكثر دفئا
ولذلك سأعرى لغتى
خاصرتى للضوء .
ارتعدت .
قالت : طقس روّاغ
طق ..طق ..طقس .
صافح زوجته
ضم ابنيه
تحسس جبهته
انتفض
انحصر ،
اشتبك مع الغيب »

حلمى سالم

□ المجد ينحنى أمامكم □

ديوان جديد للشاعر عبد الناصر صالح . وهو واحد من ابرز شعراء الجيل الثانى فى تجربة الشعر الحر ، فى فلسطين المحتلة ، بعد جيل سميح القاسم ومحمود درويش وتوفيق زياد . الديوان صادر عن منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة . أهدى عبد الناصر صالح الديوان إلى فرسان النار وحرّاس الحلم الفلسطينى ، الجنرالات الجديدة فى الأرض المحتلة ، وإلى روح والدى الذى علمني تربية القصيدة وجدلية العلاقة بين الكلمة والرصاصة .

صدر للشاعر من قبل ثلاثة دواوين : « الفارس الذى قتل قبل المبارزة » ــ داخل اللحظة الحاسمة ــ خارطة للفرح .

جديد الكويت

■ العدد الجديد من مجلة « الكويت » (نوفمبر ١٩٨٩) صدر متضمنا العديد من المواد الثقافية والأدبية : اليأس فى الأدب العالمى للدكتور نبيل راغب ، وجبران بقلم د . جهاد نعمان ، وأشعار لحسين عبد الرحمن والمنجى سرحان ومحمد صالح ، ملامح من الفن الاسلامى لمختار العطار ، مسرح القسوة للدكتور محمد هناء عبد الفتاح .

□ الثقافة العالمية □

يحفل العدد الجديد من « الثقافة العالمية » [مجلة تترجم العديد فى الثقافة والعلوم المعاصرة] ــ بالعديد من الموضوعات الهامة . من إبرز هذه المواد حوار مع الشاعر السوفياتى الكبير رسول حمزاتوف . وملف « جولة مع الفن التشكيلى » ويتضمن : اليابان والفن الغربى ، جويا وروح التمرد ، الانطباعية بمنظور جديد ، انبهار جوجان بجزر تاهيتى ، الدراما الخفية فى أعمال ديجا ، الفنانون السود اليوم .

فى حواره يقول حمزاتوف ، ردا على سؤال : ألا زلت تدافع عن موقفك « لا تلم الحصان ، بل لُم الطريق » ؟
■ أجل ، الطريق .. فالعصا العوجاء لاتصنع ظلا مستقيما . ونحن ، لانزال نسعى جاهدين إلى تقويم الظل ، بل أن نقوم العصا . لقد فضحنا التعسفات الستالينية وطروشوف وركود بريجنيف . لكن هذا كله مجرد ظلال . آن الأوان للاجابة على السؤال الجذرى : ما السبب فى أن مثل هذه التشوهات قد استطاعت أن تحصل فى أطر الاشتراكية بشكل عام ؟ » .



محاكمة عبد الوهاب : من غير ليــه ؟



أخيرا انتهت الضجة التى ثارت حول أغنية « من غير ليه » ، التى عاد بها عبد الوهاب بعد سنوات طويلة من اعتزاله الغناء . أنهى تلك الضجة التى اثارها الأصوليون والسلفيون المتطرفون بتكفير عبد الوهاب ومستمعى الاغنية حكم محكمة القاهرة للأمور المستعجلة ــ فى ديسمبر الماضى ــ برفض الدعوى لعدم مساس كلمات الأغنية بالدين .

بدأت القضية « الضجة » بتوقف شاب « خريج كلية الحقوق ! » ــ من التابعين لمن يحرمون سماع الأغانى ومشاهدة التليفزيون والسينما ــ أمام بيتين من الأغنية « جايين الدنيا مانعرف ليه .. ولا رايحين فين .. ولاعاوزين أية و « مش معقول ابدا ياحبيبى القدر اللى هدانى بحبك .. يوم م الأيام يبقى عزول » .

اعتبر الشاب ان هذه الكلمات تدعو للشرك والاستهانة بالقدر ، ويهرع الشاب لمن نصبوا أنفسهم حماة الدين الاسلامى وتلا عليهم كلمات الأغنية فأكدوا أن الأغنية مخالفة للشرع .

ومن جهة أخرى يلجأ أحد محررى الصحف الدينية الأسبوعية الى لجنة الفتوى بالأزهر ليحصل على فتوى موقعة من أحد أعضاء اللجنة بأن كلمات الأغنية تمثل إساءة بالغة لديننا الحنيف وتدخل كاتبها ومرددها فى دائرة الشرك بالله لما فيها من تعارض مع ماجاء بآيات القرآن الكريم واستهانة بالقضاء والقدر . وبذلك فإن الأغنية تدعو إلى الشرك بالله .

وجاء فى نص الفتوى « **وعلى المسئولين فى الدولة ، وهى دولة اسلامية ، أن يستتيبوا مؤلف الأغنية**

ومغنيها ... » .

وبموجب هذه الفتوى رفع المحامى الشاب دعوى قضائية ضد محمد عبد الوهاب ، ووزير الاعلام ، ورئيس اتحاد الاذاعة والتليفزيون ، ومدير الرقابة على المصنفات الفنية ، ورئيس مجلس إدارة الشركة المنتجة للأغنية ، بمحكمة القاهرة للأمور المستعجلة ، وطالبت الدعوى بوقف اذاعة الأغنية وعدم توزيعها عن طريق أشرطة الكاسيت ، ثم مصادرة الأغنية وحذف كل مايخالف الشرع الاسلامى فيها مع تكليف محمد عبد الوهاب بالحضور امام المحكمة ليعلن توبته .

وفى منتصف الشهر الماضى يقدم فضيلة الشيخ عبد الله المشد رئيس لجنة الفتوى لمحكمة القاهرة للأمور المستعجلة مذكرة بدفاعه ينفى فيها مانسبته اليه الجريدة الدينية الأسبوعية من المساس بعبد الوهاب وينفى توقيعه على الفتوى ويؤكد أن الأغنية لاتندرج تحت أى قسم من أقسام المحرمات الخمسة . وينفى الشيخ المشد مانسبته له الجريدة بأنه "كان يجب على المسئولين عن الرقابة أن يراعوا الله فى هذه الأغنية » .

وطوال الفترة مابين رفع الدعوى والحكم فيها لايتوقف من أسموا أنفسهم بعلماء الدين عن إعلان مخالفة كلمات الأغنية للدين والنص الواضح فى القرآن « **وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون** » بينما لم يجرم عمر الخيام ولم يكفر احمد رامى الذى ترجم له :

لبست ثوب العيش لم استشر
وحرت فيه بين شتى الفكر

ولكنه الفرق بين عصرين عصر تنوير واستنارة واكتشاف وبناء على جميع المستويات ، وعصر اظلام وإنهيار وتخلف نعيشه الآن على جميع المستويات . فالعالم يتفجر وعلماؤه يبحثون فى كيفية تغيير الكومبيوتر الموجود بإحدى سفن الفضاء منذ ١٢ سنة بطراز أكثر حداثة ، بينما نحن مشغولون بتكفير نجيب محفوظ ومنع روايته أولاد حارتنا (!!) .

وينزعج البعض منا حصول د. لويس عوض على جائزة الدولة التقديرية ، ونجد من يطالب بسحبها لأنه مسيحى ويدعو لأفكار معادية للاسلام . ونجد من ينصب نفسه فقيها وأماما ليحرم ويحلل .

إنه المناخ العام الذى يسعى لتكبيل العقل والفكر والوجدان باسم الدين ، والدين من كل ذلك براء .

بهيجة حسين



شهادة على العصر / شهادة على الذات

د. لطيفة الزيات

طُلب إليّ الادلاءُ بشهادتى ، وهاأنا أفعل ، وأدور فى دائرة الخواطرِ الذاتية التى تمليها طبيعةٌ مثل هذه الشهادة ، وأنا أدرجُ نفس فى سياقِ العصرِ الذى عشت فيه .

وفى معرض التعريف بالذات أقول أنى أحترف مهنةَ تدريس النقد والأدب الانجليزى فى كلية البنات ، جامعة عين شمس ، وأمارس النقدَ أحيانا للأدبِ المصريِ والعربي ، وأمارس الإبداعَ نادرا ، إذ تفصل مدةٌ زمانيةٌ تقارب الثلاثين عاما بين عملى الإبداعى الأول **الباب المفتوح** ١٩٦٠ وهو رواية ، والثاني هو مجموعةٌ قصصيةٌ بعنوان **الشيخوخة وقصص أخرى** ١٩٨٦ .

ولدت ١٩٢٣ فى مدينة ساحلية هى دمياط فى أعقابِ ثورةِ البورجوازيةِ المصرية ضد الإحتلالُ البريطانى سنة ١٩١٩ ، ووعيتَ على أصداءِ هذهِ الثورةِ التى لم تلبث أن إنتكست فى الثلاثينات ، كما تمثلت فى إنتاجها الفكريِ والفنى والأدبي . وفى أعقابِ ١٩١٩ شهدت مصر نهضةً فكريةً كبيرةً إحتفاءً بالشخصية المصرية القومية . وربما كان مفهوم الأمّة بمعناها العلمِى الدقيق مفهوماً يرجع فى مصر إلى القرن التاسع عشر ، ومع الإنفصال التدريجى عن الامبراطورية العثمانية ، غير أن هذا المفهوم لم يتبلور بكل أبعاده كما تبلور فى أعقابِ ثورة ١٩١٩ ، حيث بدأت القوميةُ المصريةُ تحفرَ مساراتها في كلِ نواحى الفكر ، وتتجلى فى أدبٍ قومي مميز . وارتبط مفهومُ الأمّة برؤيةٍ جديدةٍ للتاريخ ،، لا كظواهرٌ منعزلة ، بل كنسقٍ ونظام تندرج فيه مختلفُ الظواهر ، وبرؤيةٍ لتاريخ مصر بتراثيه الفرعونى والإغريقي والرومانى والقبطي والإسلامى فى نسقٍ أوسع وهو تاريخُ الإنسانية . وارتبطت بهذه الرؤية ضرورةُ تفتحْ الأمّة المصرية على تاريخها بتنوعه وضرورة تفتحها على أوروبا ، التي احتلت مكانَ الصدارة فيها

لثقافة الفرنسيةُ والانجليزيةُ . وفى ظلِ هذه الرؤية التاريخيةُ أصبح الآخرُ هو الأوروبى وصورةُ الآخر هى لمثال الذى يحتذى ، وخاصةً ثقافيا وعلميا .

وفى هذا الإطار إتجهت المحاولاتُ للتأريخ لكافةِ الظواهرِ الاجتماعيةِ التاريخية وفى مقدمتها الأدبُ العربىُ القديم ، وتم إضفاء الطابعُ القومىُ على الآداب بأشكالِها القديمة والجديدةِ . وارتبطت هذه الرؤيةُ للتاريخ برؤيةٍ عقلانيةٍ جديدة تربط بين الأسبابُ والمسبباتُ ، وترسى منهجا علميا جديدا للتحليلِ ولرؤيةُ الأشياء .

ورغم استمرار التياراتُ السلفية ، كان المناخُ السائدُ فى العشرينات ، دون الثلاثينات ، مناخاً ليبرالياً علمياً متفتحاً على الغرب عبرَ عنه الكثيرُ من الروادِ أمثالُ لطفى السيد وعلى عبد الرازق وطه حسين وعباس محمود العقاد وشبلى شُميّل وسلامه موسى وغيرهم . وقد أدى هذا المناخُ العلمانى الليبرالىُ إلى إحراز تقدم ملموسٌ فى العلومِ والفنونِ التقليدية ، وإلى متغيراتٍ فى فنِ النحتِ على يدِ مختار وفى فنِ الشعرِ والمسرحِ والنقدِ الأدبى ، كما أدى إلى ظهور أنواعُ أدبية جديدةٌ نتيجةٌ للتفاعل مع الثقافاتِ الفرنسية والانجليزية . وفى العشرينات والثلاثينات عرفنا بداية الرواية والقصةُ القصيرةُ والمسرحية الاجتماعيةُ المصرية ، وإن عادت بداياتُ المسرح عندنا إلى الربع الأخيرِ من القرنِ التاسع عشر . وقد عرفنا هذه الأشكالَ الجديدةَ من الأدب والنقدِ على أيدى روادٌ من أمثالِ طه حسين وعباس محمود العقاد وعبد القادر المازنى وحسين هيكل وطاهر لاشين ومحمد ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم . وفى هذه الفترة دخل الشعرُ العربىُ مرحلةً جديدةً من مراحلِ تطوره معبراً عن ذاتية الفرد ، ومنتقلا مما هو عامٌ ، وتقليدى إلى ماهو خاصٌ ، ومبتكرٌ . وتمثلَ التطورُ الذى طرأ على الشعرِ فى بساطةِ اللغةْ المستخدمةْ التى تقترب من اللغةِ اليومية ، وفى عضويةِ القصيدة . وفى تمجيد لفردية الإنسان ، وخاصة الفنان . وكانت مدرسةُ **الديوانْ** التى أحدثت هذا التغييرَ فى الشعرِ متمشيةً مع الإتجاه القومى ، وبروز عنصر الفردية كعنصر « هام » من عناصرِ هذه القومية . وكانت مدرسة **الديوان** متأثرةً فى هذا الإتجاه بالحركة الرومانسية الإنجليزية ، ومن أقطاب هذه المدرسة عباس محمود العقاد وعبد القادر المازنى ، وعبد الرحمن شكرى .

وكانت حركةُ الترجمة الأدبية من الانجليزية والفرنسية إلى العربية قد ظهرت فى النصفِ الثانى من القرنِ التاسعُ عشر وتنامت فى أواخِره وإزدهرت كما وكيفا فى أوائلِ القرن العشرين . وقد قامت حركةُ الترجمةُ الأدبيةُ بدورٍ كبير فى التمهيد لظهورِ الأشكالُ القصصيةْ والمسرحيةْ الجديدة ، وساهمت والصحافة فى تطوير اللغةِ وفى تطويعها للتعبيرِ القصصى ، وفى توفير دائرةْ من المتلقين لِهذه الأشكالُ الجديدة .

ولم يأخذ أىٌ من روادِ هذه الأشكالْ الجديدةْ عن حركة الترجمةْ ، بل أخذوا عن المصادرِ الأصليةِ ذاتها ، واستوعبوا إلى حد ما ماأخذوا عن الغرب ، وأضفوا عد... ـع المحلية . وفى إعادة إكتشاف التراث وإعادة التأريخ للأدب العربى ، كان طه حسين يستخدمُ منهجـ ...ـج فيه بين منهج Taine الجبرى الذى يرجع الظاهرة إلى أسبابها ومسبباتها فى البيئة وبينِ منهج Sainte-Beuve . وكان عباس محمود العقاد يرسى

نظريته متأثراً بالنظرية الرومانسية الانجليزية ، ويكتب سلسلةَ العبقرياتْ التى يؤرخ فى كل كتاب منها لعبقرية إسلامية أو عبقرية معاصرة ، متأثرا بمفهوم البطل عند توماس كارليل ، ومرجعا التاريخ فى كل الحالات للعبقرية الفردية .

وكان هذا جيل الرواد الذى تعلمت فيه الكثير وأنا صبية وأنا فى مقتبل شبابى . وفى الثانية عشر من عمرى تفتحت لى عوالمُ باهرةٌ الجمالْ وأنا أقرأ لأول مرة روايةَ توفيق الحكيم **عودة الروح** ، التى يربطُ فيها بين تاريخ مصر الفرعونى والحديثْ ، ويعيد فيها إنتاجَ واقعْ ثورة ١٩١٩ من منظورِ عائلةٍ من البورجوازية الصغيرة .وكانت قراءاتى حتى هذا الحين محصورةً على الرواياتِ البوليسيةِ المترجمة ، فإذا بروايةِ الحكيم تدخلنى فى عالمٍ أعرفُه ويعرفنى . وربما تمنيت من ذلك الحين أن أكتبَ فى يومٍ من الأيام روايةً مماثلةً لرواية **عودة الروح** ، وربما إلتزمت من ذلك الحين بإطارِ الواقعية الذى تحركت دائماً فى نطاقهِ ككاتبةٍ إبداعية .

وقد يكون لى الآن بعضُ التحفظات على بعض هؤلاءْ الروادْ ، ومنها تأليه صورة الآخرْ أو الأوروبى ، دونِ الوعى الكافى بصورةِ هذا الآخر كالمستعمرْو المستغلْ ، ومنها أن إختياراتْ البعض منهم من الثقافةِ الأجنبية لم تكن بأفضل الإختياراتْ المتاحة. ولكن تبقى حقيقةُ أنهم كانوا محصلةً عظيمةً لعصرهِم ، وأنى كنت محظوظةً لأنى تتلمذتْ على أيديهم . وتبقى حقيقةُ أن وعيى تفتح على كتاباتهم وعلى الأفاقِ العريضة التى فتحوها لإمكانيةِ تطورْ هذا الوعى ، وعلى طموحاتِهم اللانهائيةِ والتى إنكمشت بعض الشىء فى الثلاثينات .

ولكلٍ فى مقتبلِ العمر كاتبهُ المفضل ، وكان سلامة موسى الذى دعى إلى الاشتراكيةِ الفابيةِ هو كاتبى المفضل . وقد أحببت أسلوبَ سلامة موسى الذى تميز بين الأساليبِ المعاصرةِ بالبساطةِ والمباشرة ، والإقتصادِ فى التعبير ، وأحببت ، وهذا الأهم ، توجهة الاجتماعى الاشتراكى . وكان هذا التفضيلُ المبكرُ لسلامة موسى مؤشراً لتطورٍ لاحقٍ فى حياتى فى الأربعينات . ولعلى سبقت الأحداث هنا ومن الأربعيناتِ للثلاثينياتَ يتأتى أن أعود .

السنة ١٩٣٤ ، وأنا أقف ، فى الحادية عشر من عمرى ، فى شرفةِ بيتنا فى شارع رئيسى من شوارع المنصورة ، أشاهد إستقبال الجماهير لمصطفى النحاسْ رئيس حزب الوفدْ أو حزبُ الأغلبية . حكومةُ الأقليةِ برئاسةِ إسماعيل صدقى تحاول منعَ الزيارة ، تحفر الشارعَ بخنادقٍ أفقيةٍ ، لتحول دون سيارة النحاس والتقدم ، والناس حفاةَ جياعَ ، يحملون السيارة ، يتجاوزون بها ، خندقا بعد خندقْ ، والموكبُ يتقدم . رصاصُ رجالِ البوليس يدوى ، وأمام صبيةٌ فى الحاديةِ عشرْ يسقط أربعةُ عشر قتيلاً من الحفاةِ والجياع .

ولعل هذا المشهد الذى ساهمَ فى تشكيلى يُلخص المحنةَ التى عاشتها مصر فى الثلاثيناتِ ، تحت وطأة الحلفْ الذى أقامته شرائح من البورجوازية المصرية مع المحتل البريطانى ورأس المال الأجنبى ، ضد

الشعب المصرى وحزب الوفد أو حزب الأغلبية . وفى سنة ١٩٣٦ توصل حزب الوفد بدوره إلى معاهدة مع بريطانيا ، ولم تكن المعاهدةُ بالمعاهدةِ المرضيةِ ، غير أن بداية الحربُ العالمية الثانية ، وإعلان الأحكام العرفية فى مصر أوقف كفاح الشعب المصرى ضد الإحتلال حتى نهاية هذه الحرب .

وفى الثلاثيناتِ والأربعيناتِ إستحال على مفكرى البوجوازيةِ المصرية الاحتفاظُ بحلم التغيير ، وأوغلت معظمُ الكتاباتِ فى التراث الإسلامى ، وتراجع بعض الرواد عن المواقف المتقدمِة التى بدأوا بها : وقد بدأ محمود عباس العقاد رائداً للتجديد فى الشعر والنقد ومدافعاً صلبا عن الديمقراطية ، وانتهى بمواقفٍ رجعيةٍ تستهدف الحفاظ على الأمرِ الواقعِ ، وتهاجم كلّ محاولةٌ للتجديد سواء على المستوى الأدبى أو السياسى . وبدأ توفيق الحكيم بإرساء التقليد الواقعى فى عودة الروح ، ويوميات نائب فى الأرياف ثم إنفصل عن الواقع واتسمت مسرحياتهُ بالأفكارِ المجردةِ دون الشخوص الحية .

وفى الأربعيناتِ كان نجيب محفوظ يُرسى دعائَم عالمِه القصص الذى امتد إلى اليوم ، ويعمق فنَّ الروايةِ المصرية مطوِّرا للغة ومطوعاً لها للتعبير الفنى الموحى ، ومرسيا للتقليد الواقعى فى الرواية ، وسط إتجاهاتٌ رومانسية وإتجاهات وعظية أخلاقية ، ومؤرخاً ، على نمطِ بلزاك ، للواقعِ الاجتماعِى فى مصر فى فترة الثلاثيناتِ والأربعيناتِ بداية من **القاهرة الجديدة** ١٩٤٥ وإنتهاءا **بالثلاثية** التى إنتهى من كتابتِها سنة ١٩٥٢ . وبدت واقعيةُ نجيب محفوظ أشبه ماتكون بالطبيعية ، وهو يعيد فى كلِ مرةٍ إنتاجَ واقعاً محكوماً بقوى قدرية وإجتماعية لافكاك منها ، فى ظلِ منظورٍ يدور فيه التاريخُ حولَ نفسَه ، ليعود دائما إلى نقطة البداية ، وسيظل هذا هو منظور نجيب محفوظ للتاريخ إلى اليوم ، طبيعياً كان أسلوبُه أم تعبيريا ، مباشرا أو لائذا بتراثِ الحدوتة والحكايةُ الشعبيةْ . وستتطور اللغة لخدمةِ التجديدِ التقنى المتلاحقِ ، وستظلِ رؤيةُ الكاتبِ للتاريخ ثابتةٌ ، والواقع التاريخى الإجتماعى يُعاد إنتاجُه على نفسِ الصورةِ دوماً ، يتغير دائماً ولا يتطور أبدا .

ومن حركةِ التاريخِ الذى لايدورُ حولَ نفسْه ، خرجت حركةٌ جماهيريةٌ من بين صفوف الطلبة والعمالِ ، متصاعدةٌ مع نهايةِ الحربْ العالميةْ الثانية ، ومعلنةٌ بدايةَ صفحةٌ جديدة من صفحاتِ التحرير الوطنى فى العالم . وأضافت هذه الحركة البعدَ الاجتماعِى إلى البعدِ الوطنى ، وارتبطت المطالبةُ بلقمةِ الخبزِ بالمطالبة بجلاءِ القوات الأجنبيةِ وسقوط الملكيةِ والحِلفُ المحلى المتعاون مع الاحتلال الأجنبى .

وفى أواخرِ الأربعيناتْ وأوائل الخمسيناتْ ، كانت مصرْ تقفُ فى منعطفٍ خطيرٍ من منعطفاتِ تطورِها ، وقد إستحالت القضيةُ الوطنيةُ إلى قضيةٍ إجتماعية ، وتجاوزت الجماهير ، بمطالبها الاجتماعية ، قدرة الأحزابُ السائدةُ فى ذلك الحين . وخلقت الجماهيرُ من بين صفوفها ، قيادةً تقود حركتها الجماهيريةِ اليومية ، ضد لإستغلالُ الخارجى والداخلى ، وكانت القيادةُ المنتخبة ، من القاعدةِ إلى القمةِ ، هى « اللجنة الوطنية للطلبة والعمال » . وتزايد القلق ، وشرائحُ متزايدةٌ من البورجوازية ، تنضم الى حركةِ العمال الصامتة ، والجماهيرُ تتزايدُ فى الشوارع ، تُسقِط بجموعها ، حكومةً بعد حكومة ، والحركةُ الجماهيرية تتصاعد ، تُهددُ فى بداية الخمسينات ، بإجتثاث النظامْ من أساسهِ بمؤسساته وأحزابِه . وكانت حركةُ الضباط الأحرار ١٩٥٢ ، هى البديلُ المقبولُ للأطرافِ المعنيةِ دولياً ، وربما ، إلى حد ما ، محليا .

وإلى هذه الحركة الجماهيرية إنتميت ، وفى فترة دراستى الجامعية من ٤٢ إلى ٤٦ شاركتُ فى هذهِ الحركةِ ، وأُنتخبت كمقرر من ثلاثةِ مقررين للجنةِ الوطنيةِ للطلبةِ والعمال . وقد صنعتنى هذه الحركة الثورية التقدمية ، التى لم تفرق بينَ رجلَ وإمرأة ، ومازالت تبقينى إلى اليوم ، إنسانةً قادرةً على التصدى ، والوقوفِ على قدمى .

وفى أعقاب ١٩٥٢ تراجع الإتجاهُ الليبرالى ، وتوطدَ إلى حد ما الاتُجاه العَلمانى ، بعد فترةٍ وجيزةٍ من حكمِ جمال عبد الناصر ، وتراجعتْ النزعةُ الاقليمية ، لتفسح الطريق للقومية العربية ، ولوحدةِ العالم الثالث ، تحت راية التحرر الوطنى ، وأسفرَ العدوانُ الثلاثى عن جلاءِ القواتِ البريطانية وعن العديد من الاجراءات التى ضمنتِ لمصر حداً أدنى من التحرر من التبعية الاقتصادية . وبعَد العدوان الثلاثى إلتف الشعبُ حولَ مشروعه الوطنى التحررى ، وتوفر الحد الأدنى من الوحدةِ المشتركة للوجدانِ ونظامِ القيمِ مما أوجد قاعدةً عريضةً للتلَقى تكفلُ ازدهار الحركات الفكرية والأدبية والفنية، غير أن هذه الانتعاشة الموحية بالتغيير ، وإمكانيات التغيير ، لم تدم طويلا . وحمل المشروع الناصرى ، الذى بدا لفترة ناجحا ، تناقضاته من البداية ، وأجهزت على هذا المشروع غيبةُ الديمقراطية من جانبٍ ، والتدخل العسكرى الاسرائيلى من جانب آخر ، ورسمت هزيمة ٦٧ الحد الفاصل بين مرحلتين من تاريخ مصر الحديث .

وفى الخمسيناتِ والستينات برزَ التوجُه الإجتماعى فى مختلف المجالات الفكرية والأدبية والفنية والنقدية ، وسادت حركةٌ نشطةٌ ، تجمعُ فى تفاعل سريع ، مابين الإنتاج الأدبى والفنى والمتلقى لهذا الإنتاج . وارتبطت هذه الحركةُ النشطةُ بانتعاشة الطبقة الوسطى التى إزدادت فى فترة الناصرية حجماً ووزناً، متيحةً دائرة واسعة من المتلقين لكل أشكال الفكر. وإزدهر المسرحُ الجادُ ازدهاراً كبيرا فى هذين العقدين ، بعد سيادة المسرح التجارى فى الثلاثيناتِ والأربعينات . غير أن إزهادرة المسرح الجاد لم تدمْ طويلا ، فلم يلبث أن إنكمش إنكماشاً ملحوظاً فى السبعيناتِ والثمانيناتِ .

وفى منتصف الخمسينات قدم نعمان عاشور مسرحية **الناس اللى تحت** ويوسف إدريس المجموعة القصصية **أرخص ليالى** ، وعبد الرحمن الشرقاوى رواية **الأرض** ، وكان الثلاثةُ ممن ساهموا فى الحركة الوطنية فى الأربعينات . وقد أرسى هؤلاء الكتابُ ، تقليداً فى الكتابة سمى إذ ذاك بالواقعيةِ الجديدة ، تمييزاً له عن الواقعية التى سادت حتى ذلك الحين فى الرواية ، بريادةِ نجيب محفوظ . ويتلخص الجديدُ الذى قدمه هؤلاء الكتاب فى منظورٍ للتاريخ يرى الحقيقة كحقيقة تاريخية إجتماعية متطورة وصاعدة رغم كل المنحنيات ، وفى الإيغالِ فى التصوير الواقعى ، سواء فى المدينة أو القرية ، وفى استخدامِ اللغة العامية كلغةِ الحوار ، وفى إهتمام صميمى بالحدث وشخوصه بدلا من الوقوف منها موقف المتفرج المحايد .

وفى إتجاه ماسمى بالواقعية الجديدة ، تندرج روايتى الباب المفتوح ١٩٦٠ ، وفى هذه الرواية أعيد إنتاج واقع الحركة الوطنية من ٤٦ إلى ٥٦ ، وأدخل مع هذا الواقع فى حوار مطالبةً بمزيد من التغيير . وينأى أسلوب الباب المفتوح عن الوصف الذى ساد الرواية المصرية حتى هذا الحين ، ويعتمد على السردِ الدرامى لمجموعة من اللحظاتِ الدرامية الدالةِ تحمل التغييرَ للشخوص ، وتوحى

بالمطالبة بمزيد من التغيير على مستوى الوطن .

وتبنى تيارَ الواقعيةَ الجديدةَ هذا كتابٌ أصغر سنا من أمثال سليمان فياض وصالح مرسى وعبد الله الطوخى فى مجالِ الروايةُ والقصة القصيرة ، وألفريد فرج وميخائيل رومان ومحمود دياب ونجيب سرور فى مجال المسرحية .

وبلغت المسرحيةُ الاجتماعيةُ فى الستينات ذروتها ، وقطعت شوطاً طويلاً فى التجريب ، معتمدةً على التراثِ ، وذلك فى محاولةِ لإيجادِ مسرح قومى يختلف عن المسرح الأوروبى . وتعمق الجانب النقدى فى المسرحية الاجتماعية ، بل وتنبأت بعض المسرحيات بهزيمة ٦٧ قبل أن تقع الهزيمة ، محللةً للواقع الاجتماعى تحليلا فنيا متميزا . وفى هذا الاتجاه أشير إلى مسرحية **الزوبعة** لمحمود دياب ، ومسرحية **آه ياليل ياقمر** لنجيب سرور . وقد كتبت كلّ من المسرحيتين ١٩٦٤ ، وإن عرضتْ الأولى على خشبةِ المسرح قبل الهزيمة بشهورٍ ، وعرضت الثانية فى أعقاب هزيمة طوت صفحة لتفتح صفحة جديدة مازلنا نعيشها إلى اليوم ويصعب تقييم العقدين الأخيرين ، وبلورة إتجاهاتها العامة ، وملاحقة الخريطة الأدبية والفنية والنقدية التى تتطور الآن بشكل ملحوظ، وسأكتفى لذلك برصد بعض الظواهر الاجتماعية والأدبية دون غيرها . إستمر نجيب محفوظ يكتب ، كما استمر غيرُه من قدامى الكتاب أمثال يحيى حقى ويوسف إدريس ، وإدوارد الخراط ، وكذلك فتحى غانم ، الذى بنى عالماً قصيصا دائب التجريب ، يستقر على منظور لوحدةِ الوجودِ يعلىُ الحدسَ كأداةٍ للمعرفة على الفعِل ، وإنضم الى هؤلاء الكتاب مجموعةً من الكتابِ ، تشكلتْ فى الستينيات ، وبرزتْ كعنصرٍ فعالٍ فى الساحة الأدبية ، فى السبعينات والثمانيناتِ ، وأثرت بإنتاجها الأدبى فيمن سبقوهُا ولحقوا بها من كتاب . ومازال أدب هذه المجموعة يُعرف حتى الآن بأدب الستينات . وإنضم لهذه المجموعة ولحاقا كتاب من مختلف الأجيال . واتسعت الساحة للعديد من الكتاب والنقادِ الجددِ والقدامى يصعبُ حصرهم فى هذا المجال .

وتمثل الجديدُ فى العقدين الأخيرين فى الإنتاج الأدبى ، لهذه المجموعة من الكتاب التى تشكلت فى الستينات ، وخرجت بأهم أعمالها الأدبية فى العقدين الأخيرين . وتضم هذه المجموعة العديد من الكتاب والشعراء ومنهم يحيى الطاهر عبد الله ، وإبراهيم أصلان وأمل دنقل ، وعفيفى مطر ، وجمال الغيطانى ، ويوسف القعيد ، وعبد الحكيم قاسم وصنع الله إبراهيم ، ومحمد البساطى ومجيد طوبيا وغيرهم .

ولكل من هؤلاء الكتاب إختلافاتهُ الفردية ، وتوجهاتهُ الاجتماعية والسياسية ، ومنظورُه للتاريخ ، وأسلوبُه المميز ، غير أن شيئا ما يجمع بين رؤيتهم للأشياء ، شيئا عزلهم عن النقاد والقراء فى الستينات ، وقربهم إلى النقاد ودائرة محصورة من القراء فى السبعينات والثمانينات . وقد بدأ معظمهُم بكتابةِ القصة القصيرة ولم يتطرق بعضهم إلا لاحقاً الى كتابة الرواية ، بما تقتضيه من قدرةٍ على البناء ، أما المسرح وهو الفن الجماهيرى المباشر ، فلم يقربه أىُ منهم .

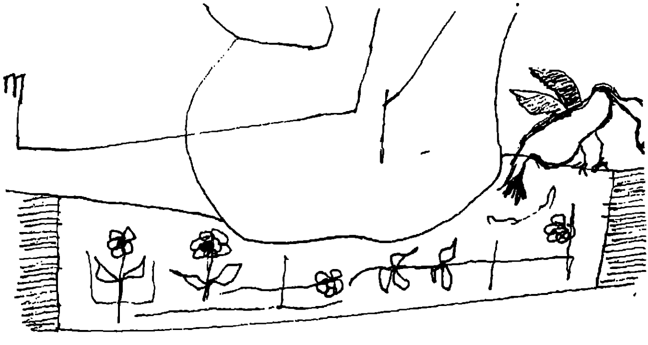
وفى ندوةٍ نقدية ، فى البرنامج الثانى فى الاذاعة ، قلت ، قديما ، أمازح واحدا من مجموعةِ الستينات هذهْ : لقد كان مشروعُ جيلى هو تغيير وجه مصر ، أما مشروع جيلك ، فهو عبور الإنسان للطريق العام بسلام ، دون أن يمسه ضرر .

وتصدق هذه العبارةُ على بعض كتاب الستينات ، ولاتصدق عليهم جميعا ، وتصدق على بداياتِ هذا البعض ، ولاتصدق على كتاباتهم كما تطورت الآن . وسيتجاوز هؤلاءُ الكتابُ وطأةَ التأثيرْ الأجنبى متمثلا فى هيمنجواى وكامى وأقطاب « الرواية الجديدة » فى فرنسا ، وسيحفرون مسارهم فى الواقع المصرى ، وسيلجأ بعضهم إلى التناص ، inter-contextuality فى مفارقةٍ أو مقارنةٍ بين لحظةٍ ماضيةٍ من التراث ولحظةٌ حاضرةْ ، وسوف يختلف هذا التراثُ من تراثٍ مملوكى إلى تراثٍ فرعونى أو شعبى ، وسيوغلون فى التجديدِ التقنى ، والصلة تتقطع فيما بينهم ، وبين الروايةِ الأوروبية ، وتقترب عند البعضَ ، من الكتابةِ التراثية المصرية العربية ، وسوف ينصرف إهتمامهم إلى مشاكل الخبز والحرية ، وتقتربُ لغتهم من لغةِ الكلامِ اليومية وتتراوح بين التسجيلِ والغنائية ، وسوف يتقلص الحوارُ فى عالِمهم وتتسع أعمالُهم للوصَفِ المُسهب ، وتنأى عن السرد الدرامى ، وسوف يقف الكاتُب فى معظم أعمالهم موقفَ المتفرج الراصدِ لمتفرج آخر راصد هو البطل ، أو بالأحرى اللا بطل ، وسوف يغلب العاملُ الذاتى على العامل الموضوعى فى بعضِ أعمالِهم ، والحقيقةُ الداخليةُ على الحقيقة الخارجية ، وسوف يبقى عالمُ البعض منهم عالماً محاصرا ، وسوف يخيبُ مسعىَ اللابطل ويكون موعوداً بالهزيمةِ دون أدنى فرصةٌ للإفلات . وسوف تسقطُ المطلقات ، كلُ المطلقات بالنسبةِ لمعظمِهم ، وسوف تبدو الحقيقةُ فى أعمال البعضِ منهم ، ذاتَ أوجه متعددة نسبيةً وهشةً ومفتقرةً إلى التبرير ، مكوّنةً تعدد الأصواتُ فى الإنتاج الأدبى ، كبديلٍ عن هيمنةِ الصوت الواحد ، وتتعدد الزوايا التى نتلقى منها الحدث ، كبديلٍ لزاوية الرؤية الواحدة ، وسوف يدورون ، وفى معظمهم ، ورغم كل أنواع التجريب ، والتأثر بكتابات ماركيز وأدب أمريكا اللاتينية ، فى دائرة الواقعية .

ولم تكف الشكوَى فى العقدين الأخيرين مما سمى بأزمةِ الإبداع وبأزمةِ المسرح وبأزمةِ النقد ، ولن يلتفت الكثيرون إلى حقيقةِ أن الأزمةَ فى أساسها أزمةُ تلقى ، فقد ضاقت دائرةُ المتلقين للإبداع والفكرِ فى العقدين الأخيرين ، وانقسمت هذه الدائرةُ على نفسها فى دوائر منعزلة ، الواحدةُ عن الأخرى تفتقر إلى الحدِ الأدنى من وحدةِ الثقافةِ ، ووحدةِ الوجدان ووحدة القيمْ . وعمق من هذا الوضع إنتشارُ التيارات السلفية ، وانكماش الطبقة الوسطى كماً وكيفاً ، وهى الراعيةُ التقليديةُ للفنون والآداب فى مصر . وإنعكس هذا سلبا على الإنتاج الفكرى والفنى والأدبى .

وحين كتبت **الباب المفتوح** ، فى أواخر الخمسينات ، كتبتها فى ظِل وجود دائرةٍ عريضةٍ من القراءِ ، يُجمعها الحدُ الأدنى من الوجدان المشترك ، والحد الأدنى من القيم المشتركة . وكنت أعرف مسبقا ، الأرضيةَ المشتركَةَ التى أقف عليها ، بدايةً مع القارىء ، وكيف أسحبه برفقٍ إلى قيمٍ أكثر تقدما ، وإلى مواقعٍ أكثر تقدما . وكنت أعرف ، مسبقا ، نوعية الإيقاع على الوجدانِ الذى تستجيب له القاعدةُ العريضةُ من القراء ، والنغمةَ الصحيحةَ الكفيلةَ بتحريكها .

وفى منتصف الثمانينات ، وأنا أكتب **الشيخوخة وقصص أخرى** ، كنت كمن يقفزُ إلى البحرِ معصوبَ العينين . وتأتى أن تكون الدائرةُ التى أتوجه إليها بالخطابِ الروائى ، دائرةَ أضيق نتيجةً للتعددية فى القيم ، والتعددية فى الوجدان . وتأتى أن أعزف ، دون أن أعرَف مسبقاً ، نوعية النغمة التى يستجيب لها المتلقى .
وهذا مقومٌ آخر من مقوماتِ الأزمة الثقافية ، التى عشناها طويلا والتى تؤذن الآن ببعض الإنفراج .



كان هذا هو الخطاب الرئيسى الذى اختتمت به أعمال المؤتمر الدولى للأدب المقارن ، صورة مصر فى أدب القرن العشرين ، الذى عقد بإشراف قسم اللغة الانجليزية وأدابها ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة فى الفترة من ١٨ الى ٢٠ ديسمبر ، وحضره العديد من أساتذة الأدب الانجليزى من الأجانب والمصريين ، وفى هذا الخطاب تدرج الدكتورة لطيفة الزيات أستاذ الأدب الانجليزى بجامعة عين شمس حياتها فى سياق التاريخ الثقافى لمصر الحديثة ، وتدلى بشهادتها عن العصر .

كلام مثقفين

تكنولوجيا العفاريت !

الظاهرة التى لفتت النظر مع استقبال عقد التسعينيات ، هو أن السادة الفلكيين والمنجمين ، ممن تعودوا أن يستقبلوا كل عام ، بنبوءاتهم العبقرية ، حول مسار السياسة الداخلية والعربية والدولية ، قد التزموا الصمت ، ولقطّوا القراء بسكاتهم التام ، ولعل صحفنا القومية ، هى التى التزمت الصمت ، ولم تسرّح أحداً من محرريها لكى يسأل ألقطاب « حزب بيِّن زين ولخط بالودع » ، عن نتائج تحليلاته العميقة ، ونبوءاته العلمية للعام أو العقد ـــ الذى هلّ هلاله .. !

بل إن دور النشر فى القطاع الخاص ، التى تعودت ان تبيع هذا الوهم ، وأن تنشر كتبا للعبقرى الفلكى ، والتونسي الفلكي ، قد تخلت عن نشر هذه الكتب ، وحرمتنا ـــ هذا العام ـــ من قراءة مؤلفات الشيخ ... الصباحى ، رئيس حزب الأمة ، والقارىء الدائم لكف الأمة .. !

أما أسعد الأخبار فهو إعلان « الدكتور » شندى الفلكى ، أنه قد اعتزل العمل الفلكى ، وأغلق مرصد النبوءات الذى كان يديره ، بعد أن أصبح « علم » الفلك مهنة من لا مهنة له ..

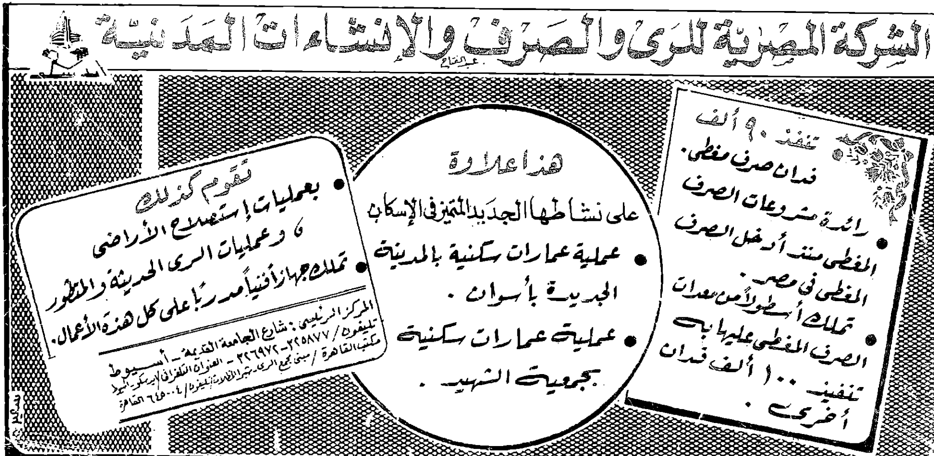
وكنت أظن أن إختفاء هذا اللون من المطبوعات والمنشورات ، يعود إلى إدراك الذين يكتبون ، أن مايجرى فى العالم ، وفى مصر ، يتحدى أى متنبىء ، اكثر مما يعود إلى شيوع العقلية العلمية والصناعية ، واليقين بأن مايصنع احداث الغد ، ليس الاصطدام بين المشترى وزحل ، أو اتحاد المريخ والزهرة ، بل إن « المستقبل » أصبح علما له أساتذة ، وجامعات ، ومؤسسات ومراكز أبحاث ! ،

ثم ثبت لى أن بعض الظن إثم ، وأن إختفاء هذا النوع من الموضوعات والمطبوعات يعود إلى إهتمام جديد ، لدى التليفزيون المصرى ، باستيراد وإذاعة افلام السحر والعفاريت ، وهو نوع من الأفلام ، يضم عادة ، امرأة تستطيع أن تشعل النار بعينيها ، أو تفسد فرامل سيارة باشارة من إصبعها ، ورجلاً يستطيع أن يدخل من الباب دون أن يفتحه ، ويطفىء النار ـــ أو يشعلها ـــ بنفخة من فمه ..

وهكذا انسحب السحرة والمنجمون من الصحف ، حيث كان ضررهم يقتصر على من يعرفون القراءة والكتابة ، وانتقلت علوم « السيما » و « اليازرجة » إلى أخطر أجهزة الاتصال ، وأوسعها انتشاراً ، وأكثرها تأثيراً ، وهو التليفزيون .

وهو مؤشر طيب ، على أن العالم يقتحم القرن الحادي والعشرين ، بالعلم والتكنولوجيا ، وثورة الاتصالات ، بينما نستقبله نحن بما يتواءم مع قيمنا وعاداتنا ، ومايتماشى مع أخلاق القرية ولا يتصادم مع خصوصيتنا ، أى بتكنولوجيا شيخ محضر ياشيخ محضر .. اللى عليه عفريت يحضر !

صلاح عيسى



رقم الإيداع : ٦١٧١ / ١٩٨٣

طبع بمطابع شركة الأمل للطباعة والنشر
عادل الرفاعي وشركاه